أعلام المسلمين
١

عبد الله بن المبارك

الإمامُ القُدوَة

تأليف
محمد عثمان جمال

دار القلم
دمشق

أعلام المسلمين

١

عبد الله بن المبارك

الإمامُ القُدوَة

١١٨ - ١٨١ هـ

تأليف

محمد عثمان جمال

دار القلم

دمشق

الطبعة الرابعة
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

هذا الرّجُل

« ما على وجه الأرض مثل عبد الله بن المبارك ، ولا أعلم أن الله خلق خصلة من خصال الخير إلا وقد جعلها في عبد الله بن المبارك »

إسماعيل بن عياش

« نظرت في أمر الصحابة وأمر ابن المبارك ، فما رأيت لهم عليه فضلاً إلا بصحبتهم النبي صلى الله عليه وسلم وغزوهم معه »

سفيان بن عيينة

« الامام الحافظ العلامة ، شيخ الاسلام ، فخر المجاهدين ، قدوة الزاهدين ، صاحب التصانيف النافعة ، أفنى عمره في الأسفار حاجاً ومجاهداً وتاجراً .... والله إني لأحبه في الله ، وأرجو الخير بحبه ؛ لما منحه الله من التقوى والعبادة ، والإخلاص والجهاد ، وسعة العلم والإتقان ، والمواساة والفتوة والصفات الحميدة »

الامام الذهبي

« عبد الله بن المبارك أبو عبد الرحمن ، الإمام المجمع على إمامته وجلالته في كل شيء ، الذي تستنزل الرحمة بذكره ، وترتجى المغفرة بحبه »

الامام النووي

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله حمد الشاكرين ، وصلى الله وسلم على سيد الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين ، وعلى الأئمة المجتهدين والعلماء المجاهدين ، الذين اعلوا كلمة الحق باجتهادهم وجهادهم إلى يوم الدين .

وبعد : فما أشد الحاجة إلى نشر سيرة السلف الصالح من هذه الأمة ، وإلى ابتعاث ماضيها الزاهر الزاخر ، ليتصل حاضر الأمة بماضيها ، وليطلع عليها الشباب المثقف ، ليرى من خلال تلك السير عظمة أولئك الرجال الذين بنوا مجد الإسلام وتاريخه العظيم، ثم لتكون حياة هؤلاء العظماء قدوة لشباب الاسلام في هذه الأيام . ثم بعد ذلك لتظهر روعة هذا الاسلام العظيم ، ولن تظهر روعته واضحة جلية إلا إننا رأيناه مترجماً في حياة رجاله : انتماء وولاء ، وعقيدة وعبادة ، ودعوة وجهاداً ، وثقافة واخلاقاً .

وعندما يرى المسلم ذلك كله في حياة رجال السلف رضي الله عنهم ، ويقارن ذلك بحياة الذين جاؤوا بعدهم ، يدرك سر انتشار الاسلام وانتصاره على أيدي أولئك . وسرّ انكماش الاسلام وانحساره على أيدي من بعدهم . ويدرك كذلك صدق القائل عندما يقول عن الاسلام :

يا له من دين لو أن له رجالاً !!

وبعد المقارنة ، وعندما يدرك الفارق الكبير بين رجال ورجال ؛ بين رجال السلف ورجال القرن الرابع عشر سينشد مع الشاعر قوله:

لا تعرضنَّ بذكرنا مع ذكرهم   ليس الصحيح إذا مشى كالمقعدِ

ولقد برهن هذا الإسلام العظيم بما تزاحم في تاريخه الطويل من أبطال ورجال على جدارته الفذة في تقديم النماذج الصالحة للقدوة ، وهم كثرة كثرة ، اشرق بهم تاريخ الاسلام وازدانت بهم عصوره ؛ وإمامنا الكبير ابن المبارك رضي الله عنه وأرضاه ـ بما تجمّع فيه من أنواع المحامد والفضائل : علماً وعملاً ، وعبادة وجهاداً ، وورعاً وأخلاقاً ـ هو خير من يكون نموذجاً لما ينبغي أن يكون عليه شباب الاسلام .

وهذه الطبعة الثانية لترجمته ـ رحمه الله ـ أقدمها للإخوة القراء بعد أن قمت بخدمتها ما استطعت : فشرحت ما يحتاج إلى الشرح من الفاظها ، وخرّجت ما لم يكن مخرجاً من أحاديثها ، وزدت زيادات كثيرة ومتنوعة ، واخباراً لطيفة وطريفة ، واشعاراً حكيمة ومرغبة ومرهّبة ، كنت عثرت عليها أو أرشدني إليها بعض الإخوة المحبين خلال السنوات الماضية بعد الطبعة الأولى ، وسيجد القارىء الكريم ذلك كله مبثوثاً في مختلف أبواب الكتاب .

والله سبحانه ولي التوفيق ، وله الحمد ، وبه الاستعانة وهو المأمول ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

حلب ١٦ من رجب ١٣٩٨ هـ   محمد عثمان جمال

مقدّمة الطبعة الثانية

الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافىء مزيده . والصلاة والسلام على سيدنا محمد الأسوة الحسنة ، وعلى آله وأصحابه ومن نهج نهجهم واقتدى بهداهم إلى يوم الدين . وبعد :

فنحن في زمن التبست فيه المناهج ، واختلطت السبُل ، وتعددت المفاهيم ، وذلك تبعاً لاختلاف الثقافات المتباينة ، وتعدد التصورات المتخالفة والبيئات المتناقضة . وقد استحكم هذا الالتباس حتى أصبح للاسلام الواحد الذي أنزله الله عز وجل وجاء به محمد صلى الله عليه وسلم صور متعددة ، تقترب منه حيناً وتبتعد عنه أحياناً . وإن كثيراً من المسلمين خلعوا على هذا الاسلام نعوتاً ، ورسموا له حدوداً من عند أنفسهم ، لم يأت بها القرآن الكريم ، ولم تدل عليها السنة المشرّفة .

فمن الناس من لا يرى الاسلام شيئاً غير العبادات الشكلية الظاهرة ، فإن أدّاها حسب أنه قد وصل إلى لبّ الاسلام وحقيقته . ومن الناس من لا يرى الاسلام إلا فلسفة فكرية جدلية ، يتلهى بها العقل دون أن تظهر آثارها في الواقع العملي . ومن الناس من لا يرى الاسلام إلا الخلق الرفيع ، والآداب الفاضلة ، والروحانية الفياضة ، والعاطفة الجياشة .. إلى غير ذلك من الصور المتعددة للاسلام في تصورات الناس .

وإن كل جماعة من هؤلاء قد تمسكت بجانب من الاسلام ، وأوغلت فيه، وَجمدت عليه، وَجحَدت أهمية الجوانب الأخرى التي يتمسك بها غيرها من الجماعات ، فنحن أبداً بين إفراط وتفريط •

أما الاسلام الكامل الشامل الوسط ، البعيد عن طرَفي قَصْدِ الأمور ، الذي لا يميل إلى الإفراط كما لا يميل إلى التفريط ، فهو هذا الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته وسلفه الصالح ، وهو وحده الحق الذي يجب أن يُتبع•

ومن هنا تبرز الحاجة إلى عرض سيرة السلف الصالح الذين أجمعت الأمة على إمامتهم وجلالتهم ، فمن خلال سيرتهم الكريمة يظهر الفارق البعيد بين إسلامهم وإسلام العصر الحاضر ، ويبدو واضحاً ماذا ينبغي أن يكون عليه المسلم ، وكيف يجب أن يكون سلوكه • فعرض سيرة السلف نور يضيء ، ومشعل يهدي ، حتى لا يسير المسلم بعينين مغمضتين في عالم يعج بالتيارات المتناحرة • وحتى لا يسير في رَدْغة(١) مستوحلة ، قد تزلّ فيها قدمه فيسقط إلى الحضيض •

---

(١) الردغة : بفتح الدال وسكونها : الماء والطين والوحل الشديد .

فهؤلاء الأئمة صُوىً [1] مشرقة ، ونجوم متلألئة ؛ لا يضل من اقتدى بهم ولو كان في صحراء مترامية الأطراف . ثم إن هؤلاء الأئمة حجة على الناس في استمساكهم بأوامر الله تعالى وسيرهم على الصراط المستقيم ، فكل واحد منهم بشر من لحم ودم ، يأكل الطعام ، ويمشي في الأسواق ، ولكنه ارتفع فوق تراب الأرض وشهواتها، وتعالى على متاع الدنيا الزائل وحطامها الفاني، ووصل قلبه بالله ، فكان قرآناً يمشي على الأرض وإسلاماً يتحرك ، فاستحق بذلك أن يكون أسوة حسنة وقدوة صالحة .

وإن هؤلاء كثيرون ــ والحمد لله ــ في تاريخنا الاسلامي ، ولا يحتاج الإنسان لشيء سوى أن يفتح عينيه ، ويقرأ ما حفظه التاريخ عن الأئمةالعظام في العلم والتقى ، والزهد والورع ، والجهاد والبطولة . وإن إمامنا العظيم عبد الله بن المبارك رضي الله عنه ؛ واحد من هؤلاء الذين جمعوا أنواع المحامد كلها ، ووصلوا الذروة في العلم الواسع والعمل الدائب : من حج ، وجهاد ، وكرم ، وزهد ، وورع ... بحيث يحس المسلم وهو يقرأ سيرته ، كيف ينبغي أن تكون عليه حياة المؤمن الصادق القوي ، والعالم العامل المخلص ، والتقي الزاهد الورع ، والمجاهد البطل الشجاع، مما جعله ينال أعظم ألقاب الاحترام والإجلال .

---

(١) الصوى: العلامات المنصوبة في الصحراء ليستدل بها على الطريق .

وقد اعتنى العلماء بترجمته على اختلاف وجهاتهم : فتُرجم لـه بين المحدثين ، وتُرجم لـه بين الفقهاء ، وذُكر في طبقات الصوفية ، وفي مختلف كتب التاريخ والتراجم ، وقد أفرده بعض العلماء بالترجمة . قال ابن العماد[1] : « وقد صُنّف في مناقبه ، وعدّ بعضهم ما جمع من خصال الخير ، فوجدها خمساً وعشرين فضيلة » . وممن صَنّف فيه كتاباً مستقلاً الحافظ ابن بشكوال في جزئين[2] ، وابن خَلِّكان جمع أخباره في جزئين أيضاً [3] . وذُكر في كتاب هدية العارفين[4] أن الإمام الذهبي صنف فيه كتاباً سماه « قضِّ نهارك بسيرة ابن المبارك » وقد فقدت هذه الكتب مع ما فقد من ثروة علمية ثمينة . وللشيخ أبي الوفاء المراغي رسالة عنه ، وللأستاذ علي الطنطاوي رسالة أخرى كذلك ، جمعا فيها بعض أخباره المشهورة .

ولقد كان كل جهدي في هذا البحث متوجهاً إلى رسم صورة كاملة لحياة هذا الرجل العظيم العلمية والعملية . ولذلك رجعت إلى جميع ما وصلت إليه يدي من المصادر الموجودة في

---

(١) شذرات الذهب (١ : ٢٩٦) .

(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي (٣ : ١٣٤٠) .

(٣) وفيات الأعيان (٢ : ٢٣٩) .

(٤) لإسماعيل باشا البغدادي .

المكتبات العامة والخاصة ، أتتبع أخباره في مَطْوِيِّ الكتب ، ومتفرق الأخبار ،وقد عشت مع هذا الرجل العظيم أكثر من سنة أكتب كل ما أعثر عليه من آثار وأخبار لها صلة بحياته ، ولم يكن الطريق معبداً سهلاً لإعطاء صورة صادقة شاملة عن حياته ، خاصة وإن بعض المصادر قد اقتصرت في ترجمته على سطور كطبقات ابن سعد مثلاً .

وعلى كل حال أرجو الله سبحانه أن أكون قد وُفِّقت في دراسة هذا الإمام القدوة ، وإبراز جوانب حياته المختلفة ونواحي العظمة فيها ، ثم في تقديمه إلى اخوتي في العقيدة ، كنموذج عملي لما ينبغي أن يكون عليه المسلم في هذا العصر وفي كل عصر .

والله َ أسأل أن يتقبل هذا الجهد المتواضع ، وأن يسدّد الخطا ، ويصحّح القصد ويصفّي النية ، ويرزقنا الاقتداء بأولئك الذين قال الله تعالى فيهم : « أولئك الذينَ هَدَى اللهُ فبهداهُمُ اقْتَدِهْ » .

محمد عثمان جمال

الفَصل الأوَّل

عَصرُ ابن المبارك

قبل أن نبدأ في الحديث عن هذا الإمام العظيم يجب علينا أن نعرض صورة موجزة للعصر الذي عاش فيه وما سبقه بقليل . فنعرض أولاً للحالة السياسية وأهم ما وقع فيها من أحداث ، ثم للحالة الاجتماعية وأبرز ما فيها من خصائص ، ثم للحالة العلمية والمستوى الرفيع الذي بلغه العلم في ذلك العصر ، وذلك لنتبين أيّ زمن عاش فيه ، وما كان يحمل ذلك العصر من سمات وخصائص .

الحالة السّياسيّة (١)

ولد ابن المبارك في سنة ١١٨ من الهجرة النبوية في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك ، وعاش إلى سنة ١٨١ هـ

(١) اعتمدت في هذا الفصل على : البداية والنهاية، وشذرات الذهب ، وتاريخ الاسلام السياسي ، وابو حنيفة ، ورجال الفكر والدعوة في الاسلام . وساعزو ما يمكن عزوه .

حيث توفي في خلافة هارون الرشيد الخليفة العباسي.فهو قد أدرك العهد الأموي في تحدره وانطوائه ، كما أدرك العهد العباسي في أوج قوته وأزهى أيامه .

ولما توفي هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥ هـ مات معه ملك بني أمية ، وأدبر أمر الجهاد في سبيل الله ، واضطرب أمرهم جداً ، وإن كانت قد تأخرت أيامهم بعده نحواً من سبع سنين ، ولكن في اختلاف وَهيْج ، ومازالوا كذلك حتى خرجت عليهم بنو العباس ، فاستلبوهم نعمتهم وملكهم ، وقتلوا منهم خلقاً وسلبوهم الخلافة(٢) .

ثم جاء بعد هشام الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وكان رجلاً فاسقاً متهتكاً ، صاحب خمور وفجور ، مجاهراً بالفواحش مصراً عليها ، منتهكاً محارم الله عز وجل ، لا يتحاشى من معصية ، ولا يستحي من أحد ، قبل أن يلي الخلافة وبعد أن وليها ، وقد وقعت بينه وبين هشام وحشة عظيمة بسبب فسقه ، وعزم مرة على خلعه ، ولكنه لم يتم ذلك وليته تم ، وقد قتل أخيراً بسبب فسقه وفجوره(٣) .

ثم جاء بعده يزيد بن عبد الملك الملقب بالناقص لنقصه الناس

---

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٩ : ٣٥٤) .

(٣) المرجع السابق (١٠ : ٣ و ٤) .

العشرات التي زادهم إياها الوليد بن يزيد ، وكان عادلاً ديّناً ، محباً للخير ، مبغضاً للشر ، قاصداً للحق(٤) .

ثم جاء بعده في سنة ١٢٧هـ أخوه إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك ، ثم تلاه مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، وكان شجاعاً بطلاً مقداماً ، حازم الرأي، ولكن من يَخذُلِ الله يخذل، ومن يهن الله فما له من مكرم .

وفي سنة ١٣٢هـ استولى العباسيون على مقاليد الخلافة ، وأصبح أبو العباس السفّاح أول خليفة عباسي ، وفي عهده هرب مروان بن محمد إلى مصر بعد أن انكسر جيشه ، ثم قتل وقتل معه أخ لعمر بن عبد العزيز .

ثم خلف السفاحَ أبو جعفر المنصور سنة ١٣٦هـ ، وقد استقرت في عهده الأمور ، وتوطد أمر الخلافة العباسية . وهو الذي أنشد بعد قتل أبي مسلم :

فألقتْ عصاها واستقربها النّوى كما قرّ عيناً بالإياب المسافر(٥)

وفي سنة ١٥٨هـ جاء المهدي بن المنصور ، ثم خلفه الهادي ابن المهدي في سنة ١٦٩هـ، ثم تولى الخلافة الرشيد في ليلة الجمعة للنصف من ربيع الأول لآخر سنة سبعين ومائة ، حيث توفي خليفة

---

(٤) البداية والنهاية (١٠ : ١٦) .

(٥) البيت لمعقر بن اوس بن حمار البارقي .

وهو الهادي ، وولي خليفة وهو الرشيد ، وولد خليفة وهو المأمون(٦) .

هؤلاء هم الحكام الذين عاصرهم الإمام عبد الله بن المبارك رضي الله عنه من الأمويين والعباسيين . والظاهرة الأولى في قيام الدولة في هذا العصر أنها ما كانت تقوم على أساس الشورى بين المسلمين ، ولا على أساس اختيار الأصلح ، وهنا ننقل كلمة للأستاذ الجليل محمد أبو زهرة عن قيام الدولة الأموية ، قال(٧) : « والظاهرة الأولى في قيام الدولة الأموية أنها قامت بعد سلطان الخلفاء الأربعة ، وقد كان الخليفة يختار من بين الممتازين من المسلمين ؛ بترشيح من الخليفة الذي يسبقه كما كان الأمر في خلافة عمر ، أو من غير ترشيح كما كان الأمر في خلافة أبي بكر وعلي ، أو بأمر وسط بينهما كما كان الأمر في اختيار عثمان رضي الله عنه ، فلما جاءت الدولة الأموية صارت الخلافة ملكاً عضوضاً ، وإذا كان مؤسس هذه الدولة قد ارتضته طائفة كبيرة من المسلمين خليفة ، فبقية من حملوا ذلك الاسم من بعده لم يكن من حقهم أن يحسبوا أنهم ولوا أمر المسلمين باختيار حر من جماهير المسلمين ، ولذلك كانت الاضطرابات والانتفاضات تتخلل عصور الدولة الأموية ، فإن سكنت ففي الظاهر والقلوب تغلي بنيران الحقد » .

---

(٦) البداية والنهاية (١٠ : ١٥٨) .

(٧) ابو حنيفة ص ٧٩ .

وقد ورثت الدولة العباسية الحكم الوراثي من الدولة الأموية ، وقلدتها في أسس الحكم ومناهجه ، ولذلك كانت البلاد مسرحاً للفتن والاضطرابات والمحاولات الكثيرة التي تهدف لقلب نظام الحكم :

فقد قام بعد الحسين بن علي رضي الله عنه حفيده زيد بن علي بن الحسين ، خرج على هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي ، و ُقتل و ُصلب سنة ١٢٢هـ(٨) .

وفي عام ١٤٤هـ ثار محمد بن عبد الله ذو النفس الزكية في المدينة ، ثم خرج أخوه إبراهيم بن عبد الله بالبصرة ، وخرج معه كثير من العلماء والقراء منهم : هُشَيم ، وأبو خالد الأحمر ، وعيسى بن يونس ، وعباد بن العوام ، ويزيد بن هارون ، وأبو حنيفة ، وكان يجاهر في أمره ويحث الناس على الخروج معه، كما كان مالك يحث الناس على الخروج مع أخيه محمد . وقد جهز المنصور لحرب الأول أربعة آلاف فقتلوه وبعثوا برأسه إلى المنصور ، وجهز لحرب الثاني خمسة آلاف وكان بينهما وقعات قتل فيها خلق عظيم ، ثم ُقتل إبراهيم و ُبعث برأسه أيضاً إلى المنصور(٩) .

---

(٨) رجال الفكر والدعوة في الاسلام للندوي ص ٧٤ .

(٩) انظر شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (١ : ٢١٤) .

ولم يكن الأمر مقتصراً على الشيعة وحدهم، فهؤلاء الخوارج يتزعمهم الضحّاك بن قيس الخارجي الذي ظهر في عام ١٢٨هـ ، وقتل متولي البصرة والموصل واستولى عليها ، وكثرت جموعه ، وأغار على البلاد وكانت فتنة هائلة[١٠] .

وفي عام ١٣٠هـ كانت فتنة الإباضية من الخوارج الذين كفّروا علياً وأكثر الصحابة ، وكان داعيتهم في هذه الفتنة عبد الله ابن يحيى الكندي[١١] .

وفي عام ١٥٣ هـ غلبت الخوارج الإباضية على إفريقية ، وهزموا عسكرها ، وقتلوا متوليها[١٢] .

وقد أهمَّ المنصورَ أمرُ الخوارج فجهز جيشاً في خمسين ألف فارس ، وأنفق على ذلك الجيش ثلاثة وستين ألف ألف ، فهزم الخوارج وقتل كبارهم وذلك في عام ١٥٤هـ[١٣] .

وهذه خراسان بلد ابن المبارك تظهر فيها الراوندية في سنة ١٤١هـ وهم قوم خراسانيون على رأي أبي مسلم صاحب الدعوة، يقولون بتناسخ الأرواح ، وأن ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم

---

(١٠) شذرات الذهب (١ : ١٧٤) .

(١١) المرجع السابق (١ : ١٧٧) .

(١٢) المرجع السابق (١ : ٢٣٤) .

(١٣) المرجع السابق (١ : ٢٣٦) .

المنصور ، وأن الهيثم بن معاوية جبريل ... فيحاربهم العسكر مع معن بن زائدة ويضعون فيهم السيف[١٤] .

وفي سنة ١٥٠هـ خرجت أهل خراسان على المنصور مع الأمير (أستاذ سيس) حتى اجتمع له فيما قيل ثلاثمائة ألف مقاتل ما بين فارس وراجل ، واستولى على أكثر خراسان ، وعظم الخطب ، وكانت فتنة عظيمة قتل فيها سبعون ألفاً ، وانهزم أستاذ سيس في طائفة إلى جبل . وكانت هذه الوقعة في سنة ١٥١هـ[١٥] .

كل هذه الفتن والثورات حدثت في عصر ابن المبارك ، فإذا أضفنا إليها الحروب الكثيرة مع مروان بن محمد ، ثم مع عبد الله ابن علي الذي دعا إلى نفسه بالشام ، ثم العصبية بين القيسية واليمانية التي كانت تثور بالشام في كل وقت ، ثم الحروب التي كانت تقوم بين المسلمين والروم بين كل فترة وأخرى[١٦] علمنا أي عصر سياسي كان يعيش فيه إمامنا ابن المبارك الذي شارك في حروب المسلمين مع الروم .

ولا بأس بعد كل ما تقدم من أن نطلق على هذا العصر اسم عصر الاضطرابات والفتن والثورات والحروب .

---

(١٤) شذرات الذهب (١ : ٢٠٩) .

(١٥) المرجع السابق (١ : ٢٢٥) .

(١٦) انظر هذه الحروب في المرجع السابق .

الحَالةالاجتِماعِيَّة

لقد أدرك ابن المبارك ـ كما سبق أن بينا ـ العهد الأموي في آخر أيامه . وإن أبرز سمة يتميز بهـا ذلك العصر الأموي العصبية العربية الشديدة التي تطاير شررها (فلقد كان في الأمويين نزعة عربية شديدة ، وقد أحيوا بها شيئاً كثيراً من تراث العرب قبل الاسلام ، وهذا التراث قد يكون فيه المحمود الذي لا يذم . ولكنهم غلوا غلواً شديداً وصلوا به إلى درجة التعصب على غير العرب وهضم حقوقهم ، وهم في الشرع سواء مع سائر المسلمين ، فإن النـاس جميعاً سواء في الاسلام لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ، ولكن أوقع الأمويون بالموالي ظلماً شديداً حتى لقد حرموهم حقوقهم في غنائم الجيش إذا غزوا ، وخالفوا بذلك شرعة الله التي شرعها في الغنائم)[١٧] .

وقد اشتد احتقار العرب لهؤلاء الموالي والاستهانة بهـم فسموا غير العربي أعجمياً ، وابن العربي من الأمة هجيناً ، حتى إن بعض هؤلاء الموالي (اعتقدوا أن اعتناقهم الاسلام لم يسوّ بينهم وبين العرب . ولا غرو فإن المسلمين من غير العرب قـد ألحقوا بعد اعتناقهم الاسلام ببعض القبائل العربية ، ليكونوا موالي لتلك القبائل . ونظـر العرب الذين كانوا لا يحترمون

---

(١٧) أبو حنيفة لمحمد أبو زهرة ص ٨٠ .

سوى مهنة الحرب إلى هؤلاء الموالي نظرة الاحتقار ؛ لامتهانهم طبقة العمال الذين نشأ منهم هؤلاء الموالي) [١٨] .

ولا شك أن هذه النزعة القومية العنيفة جاهلية المصدر لايعترف بها الاسلام دين المساواة ، ولا تقرها شريعة الله التي لا تقيم لغير الإيمان بالله والعمل الصالح وزناً ، ولا تحسب للدم والعِرق حساباً ، إنما الجنسية التي يعترف بها الاسلام ويراها للناس هي تلك الجنسية الربانية ، التي يتساوى فيها العربي والروماني والفارسي وسائر الأجناس والألوان ، فلا فضل لإنسان على آخر إلا بإيمان راسخ أو عمل نافع . ولقد جمع الاسلام في عصره الأول في صف واحد بين أبي بكر القرشي ، وسلمان الفارسي ، وصهيب الرومي ، وبلال الحبشي ، تجمعهم رابطة الإيمان بالله وحده ، وتشدهم أخوة الاسلام التي لا تفرق بين جنس وجنس ، ولا تميز بين لون ولون ، فالكل إخوة في الله ، وإن أكرمهم عند الله أتقاهم لله ، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح ، الناس كلهم لآدم وآدم من تراب . ولذلك كان المجتمع الاسلامي الأول مجتمعاً مفتوحاً لجميع الأجناس والأقوام والألوان واللغات ، انصهرت جميعها في بوتقته، وتمازجت وكوّنت ذلك المجتمع المتراص المتكاتف الذي كان

(١٨) تاريخ الاسلام السياسي (٢ : ١٢) .

كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر • تلك هي طبيعة الاسلام وهذه نظرته ، وإن الله ليرفع بالإيمان والعلم أقواماً ويضع بالكفر والجهل آخرين • وليس لغير ذلك في نظر الاسلام وزن ولا حساب •

ولقد كان طبعياً أن تقابل هذه العصبية العربية العنيفة الممقوتة بعصبية أخرى فارسية من بعض الموالي ، وأن تنتشر دعوة الشعوبية في تحقير العرب وذكر مثالبهم ، بَيْد أن هذه النزعة التي حاربها الأمويون قد تحوّلت إلى دعاية ضد بني أمية ، وجعلت الموالي يسهمون في تقويض حكم الأمويين •

وقامت الدولة العباسية على أنقاض الدولة الأموية ، وخلفتها في أسس الحكم ومناهجه ، ولكن مع ظهور العباسيين اختفت تلك الحياة العربية والتقاليد العربية ، وانتشرت التقاليد العجمية ، وعادات الموالي ، وسرت في الدولة الروح العجمية ، وأصيبت بعللها وعيوبها •

هذه سمة بارزة كانت تلوح في سماء ذلك العصر الذي نشأ فيه الإمام عبد الله بن المبارك رضي الله عنه • ولعله كان يشعر بوطأة تلك النعرة الجاهلية لأنه كان من الموالي الذين رفعهم علمهم وتقواهم ، فأغناهم عن الانتساب إلى أشرف القبائل وأعلى الأحساب •

وثمة سمة أخرى كانت بارزة في ذلك العصر سواء الأموي والعباسي وهي : وجود ترف وفساد من جهة ؛ يقابل ذلك دين

وخلق من جهة أخرى ، وذلك أن بعض الحكام في ذلك العصر قد تشبهوا بالملوك ، وتباهوا ببنـاء القصور ، وأسباب التـرف والإسراف ، وقد أصبح بيت المال الذي أعدّ لمصالح الأمة ملكاً خاصاً لهم خاضعاً لشهواتهم وتصرفاتهم ، وأحاطت ببعض الخلفاء ثلة مـن الشعراء المحترفين ، والندماء المتزلفين المتملقين ، تنفق عليهم أموال الصدقات بسخاء ، وتغدق عليهم الهدايا والهبات . ولم تكن الدولة العباسية تختلف في ذلك عن الدولة الأموية ، ولكنها تميزت عنها بشيء واحد وهو أن الدولة الأموية كانت عليها مسحة العروبة ، محافظة على التقاليد العربية ، بينما سرت في الدولة العباسية روح الحضارة العجمية وأصيبت بعيوبها .

وقد أثرت سياسة الدولة وحياة رجال الحكم المترفة تأثيرها الطبعي في حياة الناس وميولهم ومقاييسهم للسعادة والشرف ، فنشأت في المسلمين طبقة مترفة تشبه المترفين في الأمم القديمة ، أغرقت في التنعم ، وأقبلت على اللهو والبذخ وتبذير الأموال في الحلال والحرام ، وشاع الغنـاء في حواضر الدولة الاسلامية ، وأصبحت بغـداد منتجع أصحاب المجون والمغنين والشعراء . وذلك لأن تأثير حياة الحاكمين وسياستهم في اتجاه الأمة وميولها وأذواقها وأخلاقها أمر معروف شائع في المجتمعات قديماً وحديثاً . وقد حدث الطبـري في تاريخه في حوادث سنـة ٩٦ فقال : « كان الوليد صاحب بناء واتخاذ المصانع والضياع ، وكان الناس

يلتقون في زمانه فيسأل بعضهم بعضاً عن البناء والمصانع ، فولي سليمان فكان صاحب نكاح وطعام ، فكان الناس يسأل بعضهم بعضاً عن التزويج والجواري ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل : ما وراءك الليلة ؟ وكم تحفظ من القرآن ؟ ومتى تختم ؟ ومتى ختمت ؟ وما تصوم من الشهر ؟ » .

وبجانب هذه المدنية المائجة ، والحياة الباذخة ، والسرف والترف ، نرى رجالاً صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، قد انقطعوا إلى الدعوة إلى الله ، وتزكية النفوس ، ونشر العلوم الدينية ، والعكوف على التعلم والتعليم ، وثاروا على حياة المادة والترف وإغراءاتها وزخارفها ، فكانوا جزراً بشرية في بحر المادية المائج ، يأوي إليها الغرقى والتائهون . وقد أقاموا بجنب الحياة المترفة حياة زاهدة ، تقوم على الإيمان وتقدير القيم الروحية والخلقية ، تفوق في سلطانها على القلوب الحياة الباذخة في كثير من الأحيان ، وكثيراً ما كان يتضاءل الخليفة والأمير أمام عالم كبير أو محدّث جليل ، كما حدث للرشيد أعظم ملوك الأرض مع الإمام ابن المبارك رضي الله عنه ، عندما كان في الرقة ،مما سنفصله فيما بعد . وقد ظهرت هذه الحياة الدينية بوضوح في بغداد ، فكانت إلى جانب ما فيها من لهو ومجون مَحَجة [19] لرواد العلم ، ومنتجعاً لأصحاب الإيمان واليقين .

---

(١٩) المَحَجة : بفتحتين : جادة الطريق .

ومن الإنصاف أن نذكر أن معظم الشعب ـ رغم تلك الحياة المادية ـ كان يسوده الصلاح ، وذلك أن هذا العصر من العصور التي شهد لها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخير والبركة . ولذلك كان للعلماء العاملين والدعاة المخلصين مكانة عظيمة في نفوس الناس ، وقد كان لبعض هؤلاء الأئمة العظام مواقف مجيدة أمام الحكام أدّوا فيها حق النصيحة ، وحذروهم من سطوة الله ، وتبرأوا من الجور الفاشي . كالذي كان من الأوزاعي وسفيان الثوري وابن أبي ذئب عند المنصور ، وصالح بن عبد الجليل عند المهدي ، وابن السمّاك والفضيل بن عياض عند الرشيد .

وقد كان الإمام عبد الله بن المبارك واحداً من هؤلاء الأئمة الذين زهدوا في حطام الدنيا رغم إقبالها عليهم ، وابتعدوا عن أصحاب الحكم والسلطان ، وانقطعوا إلى الاشتغال بالدعوة ونشر العلم والنصح لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، فكان لهم في تقوية الإيمان وتطبيب النفوس أطيب الأثر[٢٠] .

---

(٢٠) انظر رجال الفكر والدعوة في الاسلام لأبي الحسن الندوي ص ٢٤ وما بعدها وص ٦٠ وما بعدها .

الحالة العلميّة[21]

كان عصر ابن المبارك الذي عاش فيه من أزهى العصور العلمية ، فقد ازدهرت فيه أنواع العلوم من حديث وفقه وأدب ، ونبغ فيه أئمة عظام أمثال الأوزاعي والثوري ومالك وأبي حنيفة ، وجميع هؤلاء من الأئمة المتبوعين .

وقد كان جُلّ اعتماد العلماء في صدر الاسلام في طلبهم للعلم على التلقّي والمشافهة ، وكانت الحافظة هي المرجع الأول ، ولذلك كان لزاماً على العالم والمتعلم إذا أراد النبوغ أن يرحل في طلب العلم واستماع الحديث ، وكان يقال : « لا ثقة بعِلم من لم يرحل » . وقد أخذ ابن المبارك مـن قوة الحافظة ، وكثرة الرحلات لاستماع الحديث بأوفى نصيب .

وكان بجوار هؤلاء الأئمة الأعلام أولئـك الذين ورثوا حضارات الأمم التي افتتحها المسلمون ، فكانوا يزوّدون العربية ببعض علم هذه الأمم ، إما فيما يدلونه مـن آراء أو أرسال[22] الفكر التي يترجمونها من اللسان الفارسي وغيره ، وقد ابتدأت

---

(٢١) اعتمدت في معظم هذا الفصل على كتاب (أبو حنيفة) ص ٧٨ ــ ٩٠ .

(٢٢) أصل معنى (أرسال) : الجماعات ، واستعملت هنـا بمعنى النظريات المديدة التي أدخلت على الفكر الاسلامي .

الترجمة في العصر الأموي وآتت أكلها في العصر العباسي ، ولقد كان لاتساع حركة الترجمة التي نقلت أرسال الفكر اليوناني والفارسي والهندي تأثير في الفكر الاسلامي ، يختلف ذلك التأثير على حسب قوة العقل والدين عند من نال مـــن هذه الفلسفة : فمن الناس من كانت لهم عقول مستقيمة وإيمان صادق ، فكانوا بقوة عقولهم وقوة إيمانهم يسيطرون على ما يرد إليهم من أفكار فتهضمها نفوسهم ، ويستفيدون منها نماء في تفكيرهم ومداركهم ورياضة في عقولهم . ومنهم من لاتقوى نفوسهم على احتمالها ، فتضطرب عقولهم عند ورودها بين قديمها وجديدها ، فتكون في فوضى فكرية لا استقرار فيها . ولذلك رأينا قوماً بعضهم شعراء وبعضهم كتاب وبعضهم ينتسبون للعلم ، قد غزتهم تلك الأفكار ، فلم تقو على هضمها عقولهم فاضطربوا وصاروا حائرين .

وفي هذه الحقبة اتجه العلماء في آخر العصر الأموي إلى التدوين ، وأخذت العلوم الدينية والعربية تتميز ، وصار كل علم له علماء قد اختصوا به ، يتفنون فيه ويضبطون قواعده ، لذلك أخذ الفقهـــاء والمحدثون في تدوين علومهم : فكان علماء الحجاز يجمعون فتاوى عبد الله بن عمر وعائشة وابن عباس ومن جاء بعدهم من كبار التابعين في المدينة ، وينظرون فيها ويستنبطون منها ويفرّعون عليها . كما كان العراقيون يجمعون فتاوى عبد الله ابن مسعود وقضايا علي وفتاواه وقضايا شريح وغيره من قضاة

الكوفة ، ثم يستخرجون منها ويستنبطون • فلما جاء العصر العباسي اتسعت آفاق التدوين في الحديث مرتباً ترتيباً فقهياً (ولم ينتصف القرن الثاني حتى كانت حركة الجمع والتدوين أنشط وأقوى ، وكان ممن سبق إليها من رجال هذا القرن : ابن شهاب الزهري (م ١٣٤ هـ) وابن جريج المكي (م ١٥٠ هـ) وابن إسحق (م ١٥١ هـ) ومعمر اليمني (م ١٥٣ هـ) وسعيد بن أبي عروبة البصري (م ١٥٦ هـ) والربيع بن صبيح (م ١٦٠ هـ) وسفيان الثوري (م ١٦١ هـ) ومالك بن أنس (م ١٧٩ هـ) والليث بن سعد (م ١٧٥ هـ) وابن المبارك (م ١٨١ هـ) ثم تتابع الناس)[٢٣] •

وعلى ذلك يكون ابن المبارك في جملة من نال شرف السبق إلى تدوين الآثار والأخبار •

والعصر كان بالإضافة إلى ذلك عصر مناظرات وجدل ؛ فمناظرات شديدة اللجب قوية الأثر بين الفرق المختلفة ، وبين الشيعة والجماعة ، وبين الخوارج وغيرهم ، وبين أهل الأهواء جملة ، وبين المعتزلة والمدافعين عن الآراء الاسلامية والعقيدة السليمة القويمة •• كما كان ذلك العصر مستراداً لأفكار ومذاهب تدس بين المسلمين في الخفاء ؛ لتفسد عقيدتهم ، أو لتحيرهم في أمور دينهم ، وتلبّس عليهم حقه السائغ القويم

(٢٣) رجال الفكر والدعوة في الاسلام ص ٨٤ .

بأمور يصعب على العقل ازدرادها [٢٤] ، أو لايعرف العقل البشري حقيقة كنهها ؛ مثل البحث في القضاء والقدر وإرادة الإنسان أهي حرة فيكون التكليف معقولاً والجزاء مقبولاً ؟ أم أن الإنسان ليس له إرادة حرة فيبحث عن حكمة التكليف وداعيته وغايته ؟ وكانت هذه المجادلات تثار بين المسلمين بتدبير خفي وترتيب محكم ليضطربوا في فهم دينهم ، وليجد خصوم الاسلام منفذاً ينالون منه ، وليستطيعوا أن يقيموا المحاجزات بين دينهم وتأثير الاسلام في المعتنقين له [٢٥] .

ولقد وجد بجوار هؤلاء زنادقة كانوا يعلنون آراء مفسدة للجماعة الاسلامية ويتناجون بأمور هادمة للاسلام . ومنهم من كانوا يريدون نقض الحكم الاسلامي وإحياء الحكم الفارسي القديم ، كما حدث من المقنع الخراساني الذي خرج على الدولة العباسية في عهد المهدي .

هذه هي الاتجاهات العلمية والمنازع الفكرية التي كانت بارزة في عصر ابن المبارك ، ومنها يظهر أن ذلك العصر كان عصراً ذهبياً بالنسبة للعلم وكثرة العلماء فيه ، فقد حوى من الأئمة العدد

---

(٢٤) ازدرادها : أي فهمها وهضمها ، يقال : ازدرد اللقمة : أي بلعهـا وابتلعها .

(٢٥) انظر مثلاً ما كان يذكره النصارى فيما بينهم للدس بين المسلمين في ص ٨٤ من كتاب « ابو حنيفة » لابي زهرة .

الضخم في كل علم ، كونوا حركة علمية قوية لم يشهد لها تاريخ العلم مثيلاً • وذلك بالإضافة إلى حركة الترجمة النشيطة وحركة التدوين الواسعة للعلوم الدينية من حديث وفقه •

هذه هي سمات العصر الذي نشأ فيه ابن المبارك • ولنتجه إلى ذكر كلمة موجزة عن صلة العلم بالموالي ؛ حيث كاد أن يكون وقفاً عليهم في فترة من الزمن ، ثم تتكلم باختصار عن المدينة التي نشأ فيها ، وذلك تتميماً للعصر ، وتوضيحاً للبيئة التي عاش فيها •

العِلْمُ والمَوالي (٢٦)

لقد تحققت أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن العلم سيكون في أبناء فارس ، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لو كان العلم معلّقاً بالثريا لتناوله ناس من أولاد فارس »(٢٧) وفي رواية عن أبي هريرة أيضاً بلفظ : « لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من

---

(٢٦) المولى في الأصل تطلق على (المُعتِق والمُعتَق) ولما كان أكثر المعتَقين غير عرب غلبت على العجم . كما في المُغرِب للمطرّزي (٢ : ٢٦٣) .
واستعمالها هنا جاء على هذا التغليب .

(٢٧) رواه الإمام أحمد .

هؤلاء [٢٨] وأشار لفارس » • قال في معجم البلدان : العرب إذا ذكرت المشرق كله قالوا : فارس ، فـعـنى في الحديث أهل خراسان دخلوا في الاسلام رغبـة ؛ ومنهـم العلماء والنبلاء والمحدثون والمتعبدون • وإذا حررت المحدثين من كل بلد وجدت نصفهم من خراسان وجلّ رواة الرجال منها ، وأما أهل فارس فكنار خمدت لم يبق لهم بقية بذكر ولا شرف[٢٩] •

فليس غريباً أن يكون ابن المبارك العالم الفذ من الموالي وهم حملة العلم في ذلك العصر ، فأكثر فقهاء الأمصار في عصر التابعين وتابعيهم كانوا من الموالي وهو الاسم الذي أطلقه المؤرخون على غير العرب • ولقد كان الموالي في ذلك الوقت قبلة في كل علم ، ومرجعاً في كل فن ؛ حتى في أخص علوم العرب في علم العربية تبرق أسماء أعجمية تدين لها اللغة العربية ويدين لها العرب أمثال: سيبويه صاحب الكتـاب ، والفيروزأبادي صاحب القاموس ، وغيرهم من الأئمة الأعلام • ولقد خرج من الموالي من الأعيان وعلماء الدين والأئمة رجال عظام لا يحصرهم العدّ ولا يحصيهم الحساب ، وحسبك أن تعلم أن من هؤلاء الأئمة الجبال في العلم والذين اقترنت أسماؤهم بالعلوم الاسلامية أمثال : البخاري ،

---

(٢٨) رواه الشيخان (البخاري ومسلم) •

(٢٩) فيض القدير للمناوي (٥ : ٣٢٢) •

ومسلم ، والترمذي ، وإسحاق بن راهويه ، وأبي حنيفة ، وأبي حامد الغزالي ، والجويني إمام الحرمين ، والحاكم النيسابوري ، وغيرهم من أهل الحديث والفقه • ومن أمثال : الأزهري ، والجوهري ، والفارابي ، والهروي ، وعبد القاهر الجرجاني ، وأبي القاسم الزمخشري ، وغيرهم من أهل الأدب والنظم والنثر الذين يفوت حصرهم ويعجز الحاسب عن عدهم •

ولقد أتى على العلم حين من الدهر أصبح الموالي هم حملته وأساتذته في كل بلد حتى لا يكاد يذكر غيرهم في هذا الميدان • وفي ذلك يقول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : « لما مات العبادلة : عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمرو بن العاص صار الفقه في جميع البلدان إلى الموالي ؛ ففقيه مكة عطاء ، وفقيه اليمن طاووس ، وفقيه اليمامة يحيى بن أبي كثير ، وفقيه البصرة الحسن البصري ، وفقيه الكوفة إبراهيم النخعي ، وفقيه الشام مكحول ، وفقيه خراسان عطاء الخراساني » (٣٠) •

هذه مكانة الموالي في العلم ، وابن المبارك واحد من أئمة الموالي العظام الذين تزعموا الحركة العلمية في عصرهم ، وتسلموا زمام التعليم والتحديث في ذلك الوقت • ومعظم الكتاب على أن

---

(٣٠) معجم البلدان لياقوت الحموي (٣ : ٤١٢ ـ ٤١٣) •

سبب اندفاع الموالي وراء العلم،وانصرافهم إلى الدرس والتحصيل حتى النبوغ والعبقرية ، هو أن الموالي شعروا باحتقار العرب لهم في وقت اشتدت فيه العصبية العربية ، وتناثرت شظاياها في عصر بني أمية ، مما أوجد في نفوسهم مركب النقص ، فاتخذوا من العلم وسيلة إلى الشرف ليقفوا في صف العرب ، ولينالوا حظاً من الاحترام والإجلال في قلوب الناس ؛ وقد أوصلهم العلم إلى ما يريدون ولا عجب فالعلم يرفع بيتاً لا عماد له .

ويبدو لي أن هذا القول إن صدق على البعض فلا يمكن أن يصدق على كل من لمع نجمه في سماء العلم والمعرفة من موالي، ولا يمكن أن نسلم أن اندفاع هؤلاء الذين دخلوا في الاسلام رغبة ، وقال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثه المتفق عليه : « لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء » لا يمكن أن يكون اندفاعهم – وهم من عرفتَ – طلباً للشرف والمجد ، وحباً في الجاه والاحترام ، والتماساً لجلب أنظار الناس ، وإنه لمن ظلم التاريخ أن نجعل ذلك غرضهم الوحيد وغايتهم الأساسية ، وأن نغفل عن قصدهم الطيب الذي هو خدمة دين الاسلام العظيم وقرآنه الخالد وسنته المشرفة ، ولا يمنع هذا من أن يكون ذلك من جملة الأسباب الكثيرة التي دفعتهم إلى العلم .

وقد ذكر الأستاذ الجليل الشيخ محمد أبو زهرة السبب العلمي في أن العلم كان جُلّه في الموالي في ذلك العصر ، ونحن

نثبت ذلك هنا لفائدته . قال[٣١] : لقد تضافرت عدة أسباب فجعلت العلم للموالي في ذلك العصر منها :

(أ) ـ أن العرب في عصر الدولة الأموية كانت لهم السيادة والسلطان وكان عليهم الحرب والنزال ، فشغلهم كل ذلك عن العكوف على الدرس والاستقصاء والبحث والتعمق ، والموالي رأوا فراغاً فأزجوه بالمدارسة والتنقيب والاطلاع والتمحيص ، ورأوا أنهم فقدوا السلطان فأرادوا أن ينالوا الشرف عن طريق آخر وهو المعرفة والعلم . والحرمان قد يؤدي إلى الكمال وكبرى الغايات وجلائل الأعمال ، وذلك ما كان بالنسبة لهؤلاء الموالي فقد سيطروا على الفكر العربي الاسلامي وإن كان للعرب الغلب المادي .

(ب) ـ أن الصحابة استكثروا من الموالي ، فكان هؤلاء لهم ملازمين يصاحبونهم في غدوهم ورواحهم ، فيأخذون عنهم ما عرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا انتهى عصر الصحابة كان أولئك حملة العلم للعصر الذي يليه ، ولذلك كان أكثر التابعين منهم .

(ج) ـ أن أولئك الموالي ينتسبون إلى أمم عريقة ذات ثقافات وعلم ، فكان لهذا تأثير في تكوّن أفكارهم ، وتوجيه

---

(٣١) أبو حنيفة ص ١٦ .

أذهانهم ، بل معتقداتهم أحياناً ؛ فكان النزوع إلى العلم فيهم يقارب الجِبِـلَّة والطبيعة .

(د) ـ أن العرب لم يكونوا أهل صناعات ، والعلم إذا تفرغ له الانسان صار كأنه صناعة له ، قال ابن خلدون من كلام طويل له في هذا المقام : « ثم صارت هذه العلوم كلها ملكات محتاجة إلى التعلم ، فاندرجت في جملة الصنائع . وقد كنا قدمنا أن الصنائع من منتحل الحضر ، وأن العرب[٣٢] أبعد الناس عنها . فصارت العلوم لذلك حضرية ، وبعد عنها العرب ، والحضر لذلك العهد العجم ، أو من في معناهم من الموالي وأهل الحواضر » .

مَدينَتُه (مَرْو) والحالة العِلميّة فيها

ولد ابن المبارك ونشأ في مرو أشهر مدن خراسان ، وهي مرو العظمى وتسمى مرو الشاهجان ، والنسبة إليها مَرْوَزِي على غير قياس، والثوب مَرْوي على القياس. ومرو بالعربية : الحجارة البيض التي يقتدح بها النـــار ؛ إلا أن هذا عربي ومرو ما زالت عجمية ، وقد زارها ياقوت صاحب معجم البلدان ولم يرَ بها شيئاً من هذه الحجارة . وأما الشاهجان : فهي فارسية معناها « نفس

(٣٢) يريد ابن خلدون بالعرب الأعراب .

السلطان » لأن الـ (جان) هي النفس أو الروح و (الشاه) هو السلطان ؛ وسميت بذلك لجلالتها عندهم(٣٣) .

ومرو هذه هي مدينة العلم والعلماء ، وفيها من المكتبات العلمية مالا يوجد في مدينـة غيرها ، وقد أخرجت مـن الأعيان وعلماء الدين والأئمة الأعلام مالم تخرج مدينة مثلهم ، وحسبك أن تعلم أن من هذه المدينة : إمام أهل السنة الإمام أحمد بن محمد ابن حنبل رضي الله عنه ، ومنها الإمام المحدث الفقيه الورع الزاهد سفيان بن سعيد الثوري رضي الله عنه ، ومنها أيضاً الإمام العلم إسحاق بن راهويه ، وغير هؤلاء من الأئمة والأعيان . وإليها ينسب أبو بكر القفال وحيد زمانه فقهاً وعلماً وهو أحد أركان مذهب الشافعي رضي الله عنه ، وأبو إسحاق المروزي أحد أئمة الفقهاء الشافعية .

وأهل مرو كما هو معلوم من الفرس أصحاب المدينـة

---

(٣٣) المروان : بـلدان بخراسان إحداهما هذه . والأخرى يقال لها : (مرو الروذ) ومعنى المرو : الحجـارة البيض التي يقتدح بها النار . والروذ هو بالفارسية النهر ؛ فكأنها (مرو النهر) وهي مدينة قريبة من مرو الشاهجان بينهما خمسة أيام . وهي على نهر عظيم فلهذا سميت بذلك . وهي صغيرة بالنسبة إلى مرو الأخرى . خرج منها خلق من أهل الفضل ينسبون : مَرْوَرُّوذِي ومَرُّوذِي .

القديمة ، والحضارة الرفيعة ، وهم من جملة الموالي الذين حملوا مشاعل العلم ومنارات الهداية ، وتزعموا الحركة العلمية في عصر ابن المبارك لأسباب بيناها قبل قليل • وقد سبق أن ابن المبارك كان أحد الأئمـة الذين قادوا الحركة العلمية في عصرهم حتى أصبح واحد خراسان •

وقد كان في أهل مرو ـ المدينة التي عاش فيها ابن المبارك ـ كثير من الصفات الحميدة والمزايا الخلقية السامية • وفيهم يقول ياقوت صاحب معجم البلدان بعـد أن أقام فيها مدة طويلة : (وأقمت بها ثلاثة أعوام فلم أجد بها عيباً إلا ما يعتري أهلها من العرق المديني[٣٤] • ولولا ما عرا من ورود التتر إلى تلك البلاد وخرابها لما فارقتها إلى الممات ، لما في أهلها من الرفد ولين الجانب وحسن العشرة وكثرة كتب الأصول المتقنة بها • فإني فارقتها وفيها عشر خزائن للوقف لم أر في الدنيـا مثلها كثرة وجودة • منها خزانتان في الجامع إحداها يقال لها : العزيزية فيها اثنا عشر

---

(٣٤) العرق المديني : نسبة إلى المدينة المنورة لكثرته بها . وهو بثرة تظهر في سطح الجلد تنفجر عن عرق يخرج شيئاً فشيئاً ثم يسقط كما في حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح ص ٥١ .

فهو شبيه بالحبة التي كانت تظهر على أبناء مدينـة حلب دون غيرهم .

ألف مجلداً أو ما يقاربها ، والأخرى يقال لها الكمالية . وكانت سهلة التناول لا يفارق منزلي منها مائتا مجلد ، وأكثره بغير رهن ، تكون قيمتها مائتي دينار ، فكنت أرتع فيها وأقتبس من فوائدها . وأنساني حبها كل بلد وألهاني عن الأهل والولد . وأكثر فوائد هذا الكتاب ـ يعني معجم البلدان ـ وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن ، ولما خرجت عنها جعلت أترنم بقول بعضهم :

ولمـا تزايَلْنا عن الشِّعب وانثنى
مشرِّقُ ركب مُصْعِدٍ ومغرِّبِ
تيقنت أن لا دارَ من بعـد عالجٍ
تَسُر وأن لا خَلّةً بعـد زينبٍ

وبقول الآخر :

ليـالٍ بمرو الشاهجانِ وشملُنا
جميعٌ سقاكِ اللهُ صوبَ عِهادِ
سرقناكِ من ريب الزمان وصَرفه
وعينُ النـوى مكحولةٌ بسهادِ
تنبه صَرفُ الدهر فاستحدث النوى
وصيّرنا شتّى بكلِّ بـلادِ (٣٥)

---

(٣٥) انظر معجم البلدان لياقوت الحموي (٨ : ٣٣ ـ ٣٤) .

هذه مدينة ابن المبارك التي نشأ فيهـا . ولعله تأثر تأثراً كبيراً في أخلاقه بتلك الصفات الأخلاقية النبيلة التي كانت موجودة في أهل بلده ، من رقة ولطف ، ولين جانب ، وحسن عشرة ، كما تأثر في علمه أيضاً بذلك العصر العلمي الزاهر وبتلك البيئة العلمية وما حوته من كتب وعلماء .

وبذلك نكون قد وفينا العصر حقه من البحث في نواحيه السياسية والاجتماعية والعلمية . فلنبدأ في ترجمة هذا الإمام الفذ رضي الله عنه وأرضاه .

* * *

الفصل الثاني

سيرة ابن المبارك

تمهيـد

أسقط الاسلام الأنساب في تقدير الأشخاص ، فليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني الأرضية من حساب في ميزان الله عز وجل ؛ إنما هنالك ميزان واحد تتحدد به القيم ، ويعرف به فضل الناس : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » [1] إنه ميزان الله المبرأ من شوائب الهوى والاضطراب ، فالكريم حقاً هو الكريم عنـد الله ، وهو يزن النـاس عن علم وعن خبرة بالقيم والموازين . وقد جاء الاسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس والعصبية للأرض والعصبية للقبيلة ، ليقيم نظامه الانساني العالمي في ظل راية واحدة ، راية الله إله الجميع ورب العالمين ، لا راية الوطنيـة ، ولا راية القومية ، ولا راية الجنس ؛ فكلها

---

(١) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

رايات لا يعرفهـا الاسلام دين المساواة بين النـاس • ولذلك فليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى • وأكرم الناس عند الله أكثرهم تمسكاً بكتاب الله وسنة رسوله الكريم ، وأشدهم دفاعاً عن شرعه ودينه • وأحبهم إلى الله أنفعهم للناس • وقد أعدّ الله الجنة لمن أطاعه ولو كان عبداً حبشياً ، وأعدّ النار لمن عصاه ولو كان شريفاً قرشياً • وقد وضع الاسلام أبا لهب وذمه وهو عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورفع سلمان الفارسي وجعله من آل بيت النبوة • وقد قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم لابنته وفلذة كبده : « لا أغني عنك من الله شيئاً » (٢) •

فليس في الاسلام مجـال للفخـر بالأحساب والأنساب ، والتعاظم بالآباء والأجداد • فالرب واحد ، والأب واحد ، والمنشأ واحد ، والمصير واحد ، وإن كان لانسان أن يفخر بشيء ؛ فأول ما يفخر به العلم الراسخ ، والعمل المفيد ، والخلق الرفيع •

لعمرك ما الانسان إلا ابن دينـه
فلا تترك التقوى اتكالاً على النسب
لقد رفع الاسلامُ سلمانَ فارسٍ
كما وضع الشركُ الحسيبَ أبا لهب

---

(٢) أخرجه البخاري في التفسير وفي الوصايا •

اسْمُهُ وَنَسَبُهُ

بعد هذا التمهيد الموجز نقول : إن ابن المبارك واحد من أولئك العصاميين العظـام الذين رفعهم علمهم وتقواهم وعملهم النافع المفيد ، فكانت نسبته إلى العلم والشرف والجهاد إن انتسب الناس إلى الآباء والأجداد . فهو من الموالي الذين لم يكن لهم أعمدة من النسب ، ولكن كان لهم مـن شرف العلم والعمل ما أغناهم عن الانتساب إلى أشرف القبائل . وقد رأيتَ فيما سبق مكانة الموالي في العلم حتى كاد أن يكون وقفاً عليهم في ذلك العصر الذي عاش فيه ابن المبارك .

أما اسم ابن المبارك : فقد اقتصرت بعض كتب التراجم (٣) على نسبته إلى أبيـه . وارتفعت بعضها (٤) بنسبه إلى جده ؛ فقالت: هو عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي التميمي مولاهم، أبو عبد الرحمن المروزي . وهو من تابعي التابعين ، فقد كان

---

(٣) مثل : تاريخ بغداد ، والعبر في اخبار من غبر ، والجواهر المضية ، والبداية والنهاية ، وشذرات الذهب .

(٤) انظر : تهذيب الأسماء واللغـات للنووي (١ : ٢٨٥) وتذكرة الحفاظ للذهبي (١ : ٢٥٣) وتهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني (٥ : ٣٨٣) ووفيات الأعيان لابن خلكان (٢ : ٢٣٧) والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي (٢ : ٢٠٣) .

مولى لبني حنظلة ، كما كان مولى لبني عبد شمس من بني سعد تميم . وقد لقبته بعض كتب التراجم [٥] (شاهنشاه) [٦] ومعناها ملك الملوك وذلك تعظيماً لمقامه وإجلالاً لعلمه .

وفي المدهش لابن الجوزي : المسمَّون بعبد الله بن المبارك ستة : أحدهم مروزي وهو هذا ، والثاني خراساني ، والثالث بخاري ، والرابع جوهري ، والباقيان من أهل بغداد [٧] .

وقد أجمعت المصادر على أن أم عبدالله بن المبارك خُوارزمية، وعلى أن أباه كان تركياً ، وكان عبداً لرجل من التجار من همذان من بني حنظلة [٨] ، وكان رجلاً تقياً صالحاً ، كثير الانقطاع للعبادة ، محباً للخلوة ، شديد التورع . وقد حفظ لنا التاريخ من ورعه حديثاً عجباً :

---

(٥) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨ : ١٦٢) .

(٦) ورد النهي عن التسمية بذلك ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن أخنع اسم عند الله عز وجل رجل يسمى ملك الأملاك) متفق عليه ، قال سفيان بن عيينة : ملك الأملاك مثل شاهنشاه ، وذلك لأن ملك الملوك هو الله وحده ولا يوصف غيره بذلك .

(٧) الأعلام للزركلي (٤ : ٢٥٦) .

(٨) تاريخ بغداد للبغدادي (١ : ١٥٣) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي (١ : ٢٥٣) والبداية والنهاية لابن كثير (١٠ : ١٧٧) ، وتهذيب التهذيب للعسقلاني (٥ : ٣٨٤) ووفيات الأعيان لابن خلكان (٢ : ٢٣٧) .

يحكى عن مبارك أبي عبد الله أنه كان يعمل في بستان لمولاه وأقام فيه زماناً ، ثم إن مولاه صاحب البستان جاءه يوماً وقال له :

ــ أريد رماناً حلواً ، فمضى إلى بعض الشجر وأحضر منها رماناً فكسره فوجده حامضاً ، فحرد عليه وقال :

أطلب الحلو فتحضر لي الحامض ؟ هــات حلواً • فمضى وقطع من شجرة أخرى فلما كسره وجده أيضاً حامضاً ، فاشتد حرده عليه ، وفعل ذلك مرة ثالثة فذاقه فوجده أيضاً حامضاً ، فقال له بعد ذلك :

أنت ما تعرف الحلو من الحامض ؟

ــ فقال : لا •

ــ فقال : وكيف ذلك ؟

ــ فقال : لأني ما أكلت منه شيئاً حتى أعرفه •

ــ فقال : ولمَ لمْ تأكل ؟

ــ قال : لأنك ما أذنت لي بالأكل منه !!

فعجب من ذلك صاحب البستان ، وكشف عن ذلك فوجده حقاً ، فعظم في عينه ، وزاد قدره عنده ، وكانت له بنت خطبت كثيراً ، فقال له :

ــ يا مبارك ، من ترى تزوّج هذه البنت ؟

ـ فقال : أهل الجاهلية كانوا يزوجون للحسب ، واليهود للمال ، والنصارى للجمال ، وهذه الأمة للدين[٩] .

ـ فأعجبه عقله ، وذهب فأخبر به أمها وقال لها :

ما أرى لهذه البنت زوجاً غير مبارك .

فتزوجها فجاءت بعبد الله بن المبارك [١٠] ، فتمت عليه بركة أبيه وأنبته الله نباتاً صالحاً ورباه على عينه .

ومن هذه القصة العجيبة يبدو أن أسرة ابن المبارك تقية صالحة ورعة ديّنــة ، فكأنه ورث التقوى والصلاح والورع والصدق والاستقامة عن أبيه ، فكان شبيهاً به في دينه وخُلقه كما كان شبيهاً به في شكله وخَلْقِه . فقد ورد في تاريخ بغداد[١١] عن محمد بن عبد العزيز بن أبي رزمة قال : سمعت عبد الله بن المبارك يقول : نظر أبو حنيفة إلى أبي فقال : « أدّتْ أمه إليك الأمانة » وذلك لأنه كان أشبه الناس بعبد الله .

---

(٩) وإلى هذه الخصال الأربع أشار الحديث الشريف : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » . متفق عليه .

(١٠) وفيات الأعيان لابن خلكان (٢ : ٢٣٧) ، وشذرات الذهب لابن العماد (١ : ٢٩٦) ، ومرآة الجنان لليافعي (١ : ٣٧٩) .

(١١) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٣) .

هذه أسرة ابن المبارك رضي الله عنه ، وهـذه مكانتها في التقوى والصلاح والورع والعبادة . أما مكانتها في العلم فإن إهمال المراجع التي رجعنا إليها ذلك على كثرة تلك المراجع ، يدلنا على أنه لم يكن لها شأن يذكر في العلم ، ونحن لا نعرف عن أبيه إلا ما ذكرنا ، ولا نعرف عن جده إلا اسمه ، إلا أنه قد ورد مـا يفيد أن عبدالله بن المبارك قد روى عن أبيه عن عطاء في البيوع[١٢]. ولا نعرف عن أولاده إلا أنه كان له ولد فمات[١٣] ولم يترك بعده أولاداً[١٤] .

مَولِـدُهُ

ترددت بعض المصادر[١٥] في السنة التي ولد فيها ابن المبارك بين ثمان عشرة ومائة أو بعدها بعام ، وقيل سنة عشر ومائة[١٦] . ولعل سبب هذا التردد ما رواه الخطيب البغدادي[١٧] عن ابن

---

(١٢) تهذيب التهذيب للعسقلاني (٥ : ٣٨٦) .

(١٣) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٨٧ .

(١٤) معرفة علوم الحديث للحاكم ص ٥٢ .

(١٥) مثل : تذكرة الحفـاظ (١ : ٣٥٣) وتاريخ بغـداد (١٠ : ١٥٤) .

(١٦) النجوم الزاهرة (٢ : ١٠٣) .

(١٧) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٤) .

المبارك قال : ذاكرني عبد الله بن إدريس السنّ فقال : ابن كم أنت ؟ فقلت : إن العجم لا يكادون يحفظون ذلك ، ولكن أذكر أني لبست السواد وأنا صغير عندما خرج أبو مسلم . قال : فقال لي : وقد ابتليت بلبس السواد ؟ قلت : إني كنت أصغر من ذلك ، كان أبو مسلم أخذ الناس كلهم بلبس السواد الصغار والكبار . ومن المعروف أن هذا كان في أول عهد الدولة العباسية حيث اتخذوا السواد شعارهم . وألزموا الرعية كباراً وصغاراً لبسه ، فإذا عرفنا أن الدولة العباسية وجدت سنة اثنتين وثلاثين ومائة أمكننا أن نجزم بعدم صحة كون ولادته سنة عشر ومائة .

ولكن أكثر المصادر[18] على أنه ولد سنة ثمان عشرة ومائة كما قال الإمام أحمد بن حنبل وغير واحد . وهذا ما نجزم به لأن جميع المصادر المذكورة حتى التي ترددت في سنة ولادته على أنه مات وله ثلاث وستون سنة ، وعلى أنه مات سنة إحدى وثمانين ومائة . وتقابل سنة مولده التي هي ١١٨هـ السنة ٧٢٦ من التاريخ الميلادي[19] .

وقد كان مولده في مدينة مرو[20] أشهر مدن خراسان ،

---

(١٨) مثل: تهذيب التهذيب (٥: ٣٨٦) وطبقات ابن سعد (٧: ٣٧٢) والبداية والنهاية (١٠ : ١٧٧) ووفيات الأعيان (٢ : ٢٣٩) وتهذيب الأسماء واللغات (١ : ٢٨٦) والجواهر المضية (١ : ٢٨١) والفوائد البهية (ص ١٠٣) وسير أعلام النبلاء (٦ : ٢٤٥) .

(١٩) معجم المؤلفين

(٢٠) وفيات الأعيان (٢ : ٢٣٩) .

وهي مرو العظمى وتسمى مرو الشاهجان • وقد سبق الكلام عن مكانة هذه المدينة في العلم ، وعن كثرة العلماء فيها ، وعن أخلاق أهلها ، وعما حوته مكتباتها من نفيس الكتب •

نشـأتـه

نشأ الإمام عبد الله بن المبارك رضي الله عنه بمرو أعظم مدن خراسان مسقط رأسه وتربى بها ، ومرو كما سبق مدينة العلم والعلماء ، وقد قضى فيها عشرين سنة من عمره أو تزيد ، فإنه أول ما خرج في طلب العلم سنة إحدى وأربعين ومائة[21] • ولم تبين المصادر التي رجعنا إليها حياة أبيه وحاله ، ولكن يستنبط منهـا ما يشير إلى أن والده لم يكن من أهل الغنى واليَسَار ، وذلك أنه كان يعمل ناطوراً في بستان لرجل من همذان • ثم يبدو أنه اشتغل في التجارة بعد ذلك، فعن أبي تميلة قال : كان أبي والمبارك والد عبد الله تاجرين[22] • وقد كان تقياً صالحاً ورعاً صادقاً كما يبدو ذلك واضحاً في قصته مع صاحب البستان •

أما أمه فهي ابنة صاحب البستان ذلك الرجل الذي أعطى

---

(٢١) تهذيب التهذيب للعسقلاني (٥ : ٣٨٤) وتاريخ بغداد للبغدادي (١٠ : ١٦٨).

(٢٢) تهذيب التهذيب (١١ : ٢٩٤) في ترجمة ابي تميلة .

ابنته لمولاه على فقره لصلاحه وتقواه، ومنعها عن خطابها الكثيرين ذوي الحسب والجاه . فمن هذا يتبين أنه نشأ في بيت مسلم بين أبوين تقيين صالحين .

وقد كان ابن المبارك في أول نشأته يتردد على الكتاب[٢٣] يتلقى هناك بعض العلوم ، وقد بدت عليه مخايل النبوغ وملامح الذكاء منذ صغره ، شهد بذلك أصدقاؤه الذين كانوا معه في ذلك الوقت ، فقد أورد الخطيب البغدادي[٢٤] قصة عن صديق لابن المبارك تشهد أنه كان آية في الحفظ واستمساك الذاكرة ، قال : كنا غلماناً في الكتاب فمررت أنا وابن المبارك ورجل يخطب ، فخطب خطبة طويلة ، فلما فرغ قال لي ابن المبارك : قد حفظتها . فسمعه رجل من القوم فقال : هاتها . فأعادها عليه ابن المبارك وقد حفظها .

ولكن يبدو أن ابن المبارك انقطع عن التعلم بعد فترة طفولته في الكتاب ، وأقبل على حياة اللهو والشباب وقتل الوقت في العود والطنبور مع الأصدقاء والإخوان . يدل على ذلك ما جاء في الفوائد البهية[٢٥] أن أبا حنيفة نظر إليه يوماً وسأله عن بدء أموره ، فقال:

---

(٢٣) الكتاب : بالضم والتشديد الموضع الذي يتعلم فيه الأولاد الكتابة ، وهو مفرد وجمعه : الكتاتيب . وقراءة المفرد بفتح الكاف خطأ شائع .

(٢٤) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٥) .

(٢٥) للإمام اللكنوي (ص ١٠٣) .

كنت جالساً معإخواني في البستان فأكلنا وشربنا إلى الليل، وكنت مولعاً بضرب العود والطنبور ، ونمت سحراً فرأيت في منامي طائراً فوق رأسي على شجرة يقول : « ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشعَ قلوبُهُم لذكرِ اللهِ وما نزل من الحق » ؟! قلت : بلى ، فاتنبهت وكسرت عودي وخرقت ماكان عندي ، فكان أول زهدي • وقد أشار إلى هذه القصة أيضاً علي القاري في ذيل الجواهر المضية • والحسن النعماني في تعليقه على الجواهر المضية أيضاً • ووجدت شبيهاً لهذه القصة في كتاب كنوز الأولياء[٢٦] وقد جاء فيه : «قيل إن سبب إنابته أنه كان في حال شبابه عاشقاً لامرأة ، وهي أيضاً عاشقة له ، فغلب عليه شوقه حتى لم يبق له قرار ليلاً ونهاراً من إفراط حبه • وفي ليلة من ليالي الشتاء أرسل إليها ••• وتكالما بالحالة والحيرة ، فإذا مؤذن أذن للفجر فنظر الله قلبيهما بالهداية» • والقصة موجودة هناك بطولها • ثم إنه تاب واشتغل بتحصيل العلم والعمل به •

ويؤيد ذلك ان ابن المبارك تأخر خروجه إلى طلب العلم حتى أصبحت سنه ثلاثاً وعشرين سنة ؛ وذلك أنه أول ما خرج سنة إحدى وأربعين ومائة • والمعروف أن علماء السلف ما كانوا

---

(٢٦) لأبي الليث الزيلي (ص ٨٤) مخطوط رقمه في الظاهرية (عام ٣٩٧٢) •

يتأخرون في طلب العلم إلى مثل هذه السن. وقد روى الذهبي[٢٧] أنه طلب العلم وهو ابن عشرين سنة .

وعلى كل حال فقد كان إقبال ابن المبارك على العلم نادر المثال، فقد تثقف بأنواع الثقافات في عصره، من حديث وفقه ونحو وأدب وشعر وغير ذلك من العلوم . وكان مع هذا العلم يحترف التجارة طول حياته ، ولعله أخذ هذه الحرفة عن أبيه فقد كان تاجراً كما سبق ، أو عن أستاذه أبي حنيفة حيث تعلم منه العلم والتجارة[٢٨]. ولقد تاجر وربح وكان من أعظم التجار وذلك لأنه كان يجل العلم من أن يجعله وسيلة للتكسب ، ويربأ بنفسه عن قبول عطايا الحكام وهبات الموسرين كما ستجده مفصلاً فيما بعد .

وفاتهُ وَعمرُه

كان الإمام ابن المبارك رضي الله عنه قد خرج في غزوة ، فلما انصرف من الغزو وصل إلى بلدة « هِيت » فتوفي بها سنة إحدى وثمانين ومائة ، وله من العمر ثلاث وستون سنة ، ودفن فيها وقبره هناك ظاهر يزار ، وكانت وفاته في رمضان . هذا

---

(٢٧) سير أعلام النبلاء مصور مخطوط ـ المجمع ـ (٦:٢٤٥) .

(٢٨) انظر العبر في أخبار من غبر (ص ٢٨٠) . وشذرات الذهب (١ : ١٩٧) .

ما اتفقت عليه جميع كتب التراجم التي رجعنا إليها[٢٩] ولم يشك في ذلك إلا ابن خلكان[٣٠] فقد جاء بروايتين : إحداهما توافق ما قدمنا • والأخرى أوردها بصيغة الشك بقوله : (وقيل سنة اثنتين وثمانين ومائة) ؛ ولذلك لا يعتد بها • ومما يؤيد ذلك أيضاً ما جاء في تاريخ دمشق[٣١] أن أحمد بن حنبل سأل الحسن بن الربيع عن سنة وفاة ابن المبارك فقال : سنة إحدى وثمانين ، أي ومائة •

أما اليوم الذي مات فيه من رمضان فما رأيت من تعرض له إلا الخطيب البغدادي ؛ فقد ساق روايتين : الأولى أنه مات لثلاث عشرة خلت من رمضان • والرواية الثانية عن الحسن بن الربيع قال : شهدت موت ابن المبارك ، مات سنة إحدى وثمانين ومائة في رمضان لعشر مضين منه ، مات سحراً ودفناه بهيت • وسألت ابن المبارك قبل أن يموت ــ يعني عن عمره ــ قال : أنا ابن

---

(٢٩) وذلك مثل : الطبقات الكبرى ، والعبر ، وتهذيب التهذيب ، وتذكرة الحفاظ ، وتهذيب الأسماء واللغات ، ومرآة الجنان ، وشذرات الذهب ، والفهرست ، والجواهر المضية ، والبداية والنهاية ، والنجوم الزاهرة ، والفوائد البهية ، وتاريخ البخاري •

(٣٠) وفيات الأعيان (٢ : ٢٣٩) •

(٣١) لابن عساكر (١ : ٤٤) •

ثلاث وستين[٣٢]. ولعل هذه الرواية الثانية أقرب للصحة لأنها ممن حضر الوفاة وشارك في الدفن .

وبذلك يكون قد جمع الله لابن المبارك في وفاته الخير من أطرافه : فقد توفاه الله بعد أفضل عمل وهو الغزو والجهاد في سبيل الله ، وفي أفضل شهر وهو شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ، وفي أفضل ساعة وهي ساعة السحر .

وقد كانت وفاته بالتاريخ الميلادي سنة ٧٩٧[٣٣] .

وفي بلدة هيت التي توفي فيها ابن المبارك يقول صاحب معجم البلدان [٣٤] : بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار ، ذات نخل كثير وخيرات واسعة ، وبها قبر عبد الله بن المبارك رحمه الله .

وقد توفي في العام نفسه الحسن بن قحطبة أحد أكابر الأمراء ، وحمزة بن مالك الذي ولي إمرة خراسان أيام الرشيد ، وخلف بن خليفة شيخ الحسن بن عرفة ، ومفضل بن فضالة الذي ولي قضاء

---

(٣٢) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٨) .

(٣٣) معجم المؤلفين لكحالة (٦ : ١٠٦) .

(٣٤) ياقوت الحموي (٨ : ٤٨٦) .

مصر مرتين وكان ثقة د ّيناً ، ويعقوب التائب العابد الكوفي[٣٥] .
كما توفي في العام نفسه أيضاً محدث الشام ومفتي أهـل حمص إسماعيل بن عياش[٣٦] .

وسنعقد في آخر البحث فصلاً خاصاً بوفاة ابن المبارك رضي الله عنه ، وما حدث فيها ، وما رثاه به العلماء والأئمة من نثروشعر، وذلك لنختم البحث بخاتمة حيـاة ابن المبـارك رحمه الله ورضي عنه وأرضاه .

---

(٣٥) البداية والنهاية (١٠ : ١٧٧) .
وليعقوب التائب هذا قصة عجيبة نثبتها هنا للفائدة . قـال علي بن الموفق : عن منصور بن عمار قال : خرجت ذات ليلة وأناأظن أني قد أصبحت، فإذا علي ليل، فجلست إلى باب صغير،وإذا شاب يبكي وهو يقول : « وعزتك وجلالك ما أردت بمعصيتك مخالفتـك ، ولكن سولت لي نفسي ، وغلبتني شقوتي ، وغرني سترك المرخي علي ؛ فالآن من عذابك من يستنقذني ؟ وبحبل من اتصل إن أنت قطعت حبلك عني ؟ واسوأتاه على ما مضى من أيامي في معصية ربي! ياويلي كم أتوب وكم أعود !! قـد حان لي أن أستحي مـن ربي عز وجل » قال منصور : فقلت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ، وقودها الناس والحجارة ، عليهـا ملائكة غلاظ شداد ، لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون مايؤمرون » قـال : فسمعت صوتاً واضطراباً شديداً ، فذهبت لحاجتي فلما رجعت مررت بذلك الباب فإذا جنازة موضوعة . فسألت عنه فإذا ذاك الفتى قد مات من هذه الآية . وترجمة يعقوب التائب هذا في البداية والنهاية . رحمه الله ورضي عنه ورزقنا الخشية منه ؛ حتى لانتجرأ على معصية ولا نتخلف عن طاعة .

(٣٦) مرآة الجنان لليافعي (١ : ٣٧٩) .

الفصل الثالث

حياة ابن المبارك العلمية

طلب العلم

لقد تضافرت كل الأسباب والمهيئات لتجعل من ابن المبارك عالماً فذاً وإماماً حجة ، يحتل مكان الصدارة العلمية مع جملة الأئمة الأعلام الذين أشرق بهم تاريخ العلم الاسلامي ، وقامت على جهودهم أسس النهضة العلمية في ذلك العصر ، فقد كان له من قوة الحافظة ـ التي هي أداة العلم الأساسية في ذلك الوقت ـ ما مكنه من حفظ خطبة طويلة بمجرد سماعها من قائلها في حال صغره ، ومن الجلد والصبر على تحمل المشاق في سبيل طلب العلم ، ما جعله يرحل الى البلدان ويجوب الآفاق ، ينهل من كل ينبوع ثر ، ويغترف من كل بحر زاخر . وقد ساعده في ذلك مهنته التجارية فأكثر من الأسفار ، يلتقي بعظام الأئمة ، يستخرج من عقولهم كنوز العلم وجواهر المعرفة . وقد اتفقت جميع المصادر على أنه كان طلاّباً للعلم نادر المثال ، رحل الى جميع الأقطار التي كانت معروفة بالنشاط العلمي في ذلك العصر : (وقد خرج عبد الله الى العراق

أول ما خرج سنة احدى وأربعين ومائة) كما يقول عبدان بن عثمان[1]. ومن ذلك الوقت لم يفتر عن السفر من أجل طلب العلم وفي ذلك يقول عنه الذهبي[2]: (السفّار ، صاحب الرحلات الشاسعة...فإنه من صباه ما فتر عن السفر)؛ فقد رحل الى جميع الأمصار التي كان يحج اليها شداة العلم من أقصى الآفاق ، فمن اليمن في أقصى الجنوب الى الشام في أقصى الشمال الى ما بين هذين القطرين من الحجاز والبصرة والكوفة ومصر[3] . وفيه يقول عبد الرحمن بن أبي حاتم : سمعت أبي يقول : كان ابن المبارك ربع الدنيا بالرحلة في طلب الحديث ، لم يدع اليمن ولا مصر ولا الشام ولا الجزيرة ولا البصرة ولا الكوفة[4].ويقول أبو أسامة : ما رأيت رجلاً أطلب للعلم في الآفاق من ابن المبارك[5]. ويقول زكريا بن عدي : رأيت ابن المبارك في النوم فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي برحلتي في الحديث [6].ويشهد له الإمام

---

(١) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٨) .

(٢) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٣) .

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٢٨٦) .

(٤) تقدمة الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي ص ٢٦٤ .

(٥) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٤) .

(٦) الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي ص ٩٠ .

أحمد بن حنبل إمام أهل السنة بأنه كان وحيد زمانه في ذلك، يقول: لم يكن في زمن ابن المبارك أطلب للعلم منه ، رحل الى اليمن ومصر والشام والبصرة والكوفة ، وكان من رواة العلم ، وكان أهل ذاك، كتب عن الصغار والكبار ، كتب عن عبد الرحمن بن مهدي وكتب عن الفزاري وجمع أمر عظيماً (٧) .

وقد رويت عنه الغرائب والعجائب في هذا الموضوع ، فقد رحل مرة من بلدته مرو الى بلاد الري ليسمع كلمة للحسن البصري: روى الخطيب البغدادي بسنده الى هارون بن المغيرة عن اسماعيل ابن مسلم عن الحسن قال : لا تشترِ مودة ألف رجل بعداوة رجل واحد .

قال هارون : قدم عليّ ابن المبارك فجاء إليّ وهو على الرحل فسألني عن هذا الحديث ، فحدثته ، فقال : ماوضعت رحلي من مرو الا لهذا الحديث(٨) .

فهو يسافر من بلدته مرو الى هارون بن المغيرة في بلاد الري، والمسافة بينهما تقارب الألف كيلو متراً أو تزيد يضرب آباط الابل ويقطع الفيافي والقفار في الليالي والهواجر ؛ ليسمع هذه الكلمة

---

(٧) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٤) .

(٨) الرحلة في طلب الحديث (ص : ١٥٦) .

الواحدة ... فرضي الله عنه ما أشد طلبه للعلم ، وما أشد حرصه عليه ! وبه وبأمثاله حفظ الله الاسلام وعلومه :

هم الرجال وعيب أن يقال لمن
لم يتصف بمعالي وصفهم رجل

وقد اندفع في جميع هذه الرحلات يكتب عن كل عالم فذ وعن كل شيخ ثقة ، حتى بلغ عدد من حمل عنه من الشيوخ أربعة آلاف ، فقد روى العباس بن مصعب في تاريخه ، عن ابراهيم بن اسحاق ، عن ابن المبارك ، قال : حملت عن أربعة آلاف شيخ ، فرويت عن ألف منهم . ثم قال العباس بن مصعب : وقع لي من شيوخه ثمانمائة[9] . وهذا يدل على أن العدد كان حقيقياً لا خيالياً وهمياً . وروي عن ابن المبارك أنه قال : دوّخت العلماء ، وعاينت الرجال بالشامات والعراقين والحجاز، فلم أجد الأدب الا مع ثلاثة: ابن عون غريزته الأدب، وعبد العزيز بن أبي روّاد متكلف الأدب، ووهب المكي كأنه ولد مع أدب[10] .

وقد كان ينشد العلم حيث رآه ويأخذه حيث وجده ، لا يمنعه من ذلك مانع ، كتب عمن هو فوقه ، وكتب عمن هو مثله ، وتجاوز

---

(٩) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٥) .

(١٠) أدب الإملاء والاستملاء لابن السمعاني ص ٢ . والمقصود بالعراقين : الكوفة والبصرة .

ذلك حتى كتب العلم عمن هو أصغر منه [11] . وقد روي أنه مات ابن له فعزّاه مجوسي فقال : ينبغي للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد أسبوع . فقال ابن المبارك : اكتبوا هذه [12] . وقد بلغ به ولعه بكتابة العلم مبلغاً جعل الناس يعجبون منه ، فقد قيل له مرة : كم تكتب ؟ فقال : لعل الكلمة التي أنتفع بها لم أكتبها بعد[13] .

وعابه قوم على كثرة طلبه للحديث فقالوا له : الى متى تسمع ؟ فقال : الى الممات [14].

وقد كان لكثرة ما يكتب كما قال الأعرابي : لايترك نقارة الا انتقرها،ولا نماصة الا اتمصها،وإنه لملقفةالكلمة الشرود[15].

---

(11) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٣) .

(12) فيض القدير للمناوي (٣ : ٢٣٠) . وهذه الكلمة يوضح معناها ما جاء في « تنبيه المغترين » (ص : ١٦٦) أن ابن المبارك رحمه الله كان يقول : « من أصيب بمصيبة ، فليفعل في اليوم الأول ما يفعله في اليوم الخامس من مصيبته » أي من ضحك واكل وغير ذلك لأنه علامة التسليم لأمر الله والرضا بالقضاء والقدر .

(13) تقدمة الجرح والتعديل (ص : ٢٨٠) .

(14) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١ : ٧٤) .

(15) القلائد من فرائد الفوائد (ص : ٨٠) .

وكان يقول : الحبر في الثياب خَلوق العلماء [١٦] .

ولعل سبب هذا الاهتمام الشديد بالكتابة أنـه كان جُل ّ اعتماده عليها ، ومعظم فائدته منها ، فقد حد ّث السندي بن أبي هارون قال : كنت أختلف مع ابن المبارك الى المشايخ فربما قلت له : يا أبا عبد الرحمن ممن نستفيد ؟ فيقول : من كتبنا [١٧] .

وقد كان منهوماً لايشبع من كتابة الحديث وطلبه حتى ان أساتذته ليعجبون منه ، فهو يخدمهم ويكرمهم ويلاطفهم ثم يستفيد من علمهم وحديثهم ، ومن طريف ذلك ما روى عيسى بن يونس ـ أحد أساتذته ـ قال : كنا بأرض الروم أنا وابن المبارك ، وربما استحييت من خدمة ابن المبارك لي ، يأخذ بركابي ، فاذا نزلنا قدم لنا الخبيص[١٨] ، فيلقمني ويقعد فيسألني عن الحديث ويكتب ،

---

(١٦) ادب الإملاء والاستملاء ص ١٤٩ . ومن الطريف في هذا المعنى : ما حكي عن عبيد الله بن سليمان انه رأى على بعض ثيابه اثر صفرة ، فأخذ من مداد الدواة فطلاه به ، ثم قال : المداد بنا احسـن من الزعفران ، وانشد :

إنمـا الزعفـران عطـر العذارى ومـداد الدوي عطـر الرجال

انظر ادب الدنيا والدين ص ٥٦ .

(١٧) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨ : ١٥٦) .

(١٨) الخبيص : طعام يصنع من التمر والسمن .

فأقول : يا شيخ ــ من صنعه وبره بي ــ لله أبوك أما آن لك أن تشبع ؟ فيقول : ومن يشبع من هذا الشأن[19]؟.

وكان يرى الجلوس مع العالم فرصة لاستفادة العلم ، فهو يحاول بمختلف الوسائل أن يستخرج العلم من العالم الذي يجالسه، فيسمع كلامه وربما سمع ما لم يسمعه من قبل.وقد رُوي أن ابن المبارك قال : كنت مع محمد بن النضر الحارثي في سفينة فقلت : بأي شيء أستخرج منه الكلام ؟ فقلت له : ما تقول في الصوم في السفر ؟ فقال : انما هي المبادرة يا ابن أخي ، فجاءني والله بفتياغير فتيا ابراهيم والشعبي [20] . بل ربما كان يحتال ويبذل أقصى ما يستطيع من جهد ومال ليصل الى عالم فيسمع من حديثه ، ويغترف من علمه ، فعن عبدة بن سليمان قال : قال ابن المبارك : كان الربيع بن أنس مختفياً عند حائك فأتيته فجهدت أن يأذن لي عليه فأبى ، فأعطيته أربعين درهماً فأذن لي ، فدخلت عليه فسمعت منه أربعين حديثاً ، ثم عدت فجهدت أن يأذن لي عليه فأبى فتركته [21] .

ورغم كل ذلك فما كان يكتفي بكثرة الأسفار ، والكتابة عن الشيوخ ، بل كان يطيل الجلوس في بيته يشتغل بكتب الحديث ،

---

(١٩) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٧٨ .

(٢٠) العقد الفريد لابن عبد ربه (٢ : ٨٦) .

(٢١) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٦٤ .

ولا يشعر بالضيق والوحشة لأنه كان يحس أنه جالس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته ، فعن نعيم بن حماد قال : كان عبد الله بن المبارك يكثر الجلوس في بيته، فقيل له: ألا تستوحش؟ فقال : كيف أستوحش وأنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؟ (٢٢) . وروي أنه قيل له : انك تكثر الجلوس وحدك؟ فغضب وقال : أنا وحدي ؟! أنا مع الأنبياء والأولياء والحكماء والنبي وأصحابه ، ثم أنشد هذه الأبيات :

ولي جلساءٌ ما أمَلُّ حديثَهم
ألِبّاءُ مأمونون غيباً ومشهدا
إذا ما اجتمعنا كان حسن حديثهم
معيناً على دفع الهموم مُؤَيِّدا
يفيدونني من علمهم علم ما مضى
وعقلاً وتأديباً ورأياً مسدّدا
بلا رِقْبة أخشى ولا سوء عشرةٍ
ولا أتقي منهم لساناً ولا يدا
فإن قلت : أحياءٌ فلست بكاذبٍ
وإن قلت: أمواتٌ فلست مفنّدا (٢٣)

---

(٢٢) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٤) .

(٢٣) شرح عبيد الله بن عبد الكافي على « المضنون به على غير أهله » لمعز الدين الزنجاني ص ٥ ، وقد نسب في ص ٤ هذه الأبيات لمحمد بن زياد الأعرابي .

وقد ظل ابن المبارك يطلب ويدأب ، حتى طارت شهرته ، وذاع صيته ، وملأ اسمه القلوب والأسماع ، فإذا ماشوهد ملأ الأبصار أيضاً ، لم يترك طلب العلم طول حياته ، وكان يقول : لا يزال المرء عالماً ما طلب العلم فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل[٢٤] • وكان كلما أتى أستاذاً من أساتذته أعجب به وأنزله المنزلة اللائقة بمثله ، فعن أحمد بن سنان قال : بلغني أن ابن المبارك أتى حماد ابن زيد في أول الأمر ، فنظر اليه فأعجبه فقال له : من أين أنت ؟ قال : من أهل خراسان ، قال : من أيّ خراسان ؟ قال : من مرو ، قال : تعرف رجلاً يقال له عبد الله بن المبارك ؟ قال : نعم ، قال : مافعل ؟ قال هو الذي تخاطب ، فسلم عليه ورحب به وحسن الذي بينهم[٢٥] • ولما أتى ابن المبارك ابن جريج واستنطقه فسمع كلامه قال له : أين نشأت ؟ قال: بخراسان ، قال:ما ظننت خراسان تخرج مثلك ، وأمكنه من كتبه[٢٦] •

هكذا كان طلب ابن المبارك رضي الله عنه للعلم ، وهكذا كان اقباله عليه •

وإن اول ما يجب أن ننتبه اليه انه طلب العلم لله وحده وابتغاء مرضاته ، ولم يطلبه ليجاري به العلماء ، ولا ليماري به السفهاء ، ولا ليشار اليه بالبنان ، ولا ليكسب به الدرهم

---

(٢٤) إحياء علوم الدين (١ : ٥٩) •

(٢٥) تقدمة الجرح والتعديل ص١٦٧ وتاريخ بغداد (١٠: ١٥٤) •

(٢٦) تقدمة الجرح والتعديل (ص : ٢٦٤) •

والدينار ، فقد كان كما يقول الخطيب البغدادي[٢٧] : «من الربانيين في العلم » ، فهو لا يطلبه إلا لوجه الله ولا يأخذه إلا ممن يحدث لله أيضاً .

ومن عجيب ما روي عنه ما رواه عبد الرحمن الأحول قال : سمعت ابن المبارك يقول : لما أردت أن أرتحل من عند معمر بعثت اليه بوصيف وألف درهم ، فلما شددت متاعي لأرتحل جاءني شاب من أصحاب الحديث فذكر لي حديثاً عن معمر لم أسمعه ، فقال لي : سله قبل أن ترتحل ،فقلت : لاآتي الشيخ بعدما وصلته ، أسألهُ فيحدثني به على غير ما كان يحدثني به قبل أن أصله ، فارتحلَ وما سأله عنه [٢٨] ، يريد أن معمراً كان يحدثه حِسْبةً لوجه الله تعالى ، فلعله بعد الصلة إنما يحدثه لأجلها ، فلذلك ارتحل ولم يسأله عن الحديث ، مع العلم أنه كان يقطع البلاد ويتحمل المشاق لسماع الحديث .

من أجل ذلك نفع الله الناس بعلم ابن المبارك وبارك له فيه، فكان من الطائفة الطيبة من الأرض التي قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير .

تنوّع ثقافته

ابن المبارك أصدق من يمثل ثقافة ذلك العصر العلمي الزاهر فقد كان دائرة معارف واسعة ، وموسوعة علمية ضخمة ، فلا تكاد

---

(٢٧) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٢) .

(٢٨) تقدمة الجرح والتعديل (ص ٢٧٧) .

تجد علماً من العلوم المنتشرة في ذلك الوقت الا وترى ابن المبارك قد بلغ فيه الذروة وأصبح مرجعاً يرجع اليه الباحثون في ذلك العلم ، ولا أرى كلمة تقال في هذا المقام أصدق من كلمة العِجْلي، فقد قال في ابن المبارك : « وكان جامعاً للعلم »[٢٩]. وقد حَدّث العباس بن مصعب قال : جمع عبد الله بن المبارك الحديث والفقه والعربية وأيام الناس والشجاعة والتجارة والسخاء والمحبة عند الفرق[٣٠] . وقال فيه أبو داود الطيالسي : ما رأيت أجمع من عبدالله بن المبارك[٣١] فقد كان محدثاً فقيهاً أديباً شاعراً لغوياً فصيحاً. يقصده المتعلمون فيجدون عنده مالايجدون عند غيره . وهذا المعتمر بن سليمان يقول : ما رأيت مثل ابن المبارك ، نصيب عنده الشيء الذي لايصاب عند أحد[٣٢] . ومن أجل ذلك كان ينظر اليه كثير من الناس على أنه أفضل من عرفه ذلك العصر ، وأجل من عرفه العلم في تلك الأيام . قال شعبة : ماقدم علينا مثله[٣٣] .

---

(٢٩) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٥) وتهذيب الأسماء واللغات للنووي (١ : ٢٨٥) .

(٣٠) المرجعان السابقان .

(٣١) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٦٤ .

(٣٢) المرجع السابق ص ٢٦٣ .

(٣٣) تهذيب التهذيب (٥ : ٣٨٤) .

وقال شعيب بن حرب : ما لقي ابن المبارك رجل الا زين ، والمراد أفضل منه [٣٤]. وكان كثيراً ما يجتمع أصحابه وتلاميذه يتذاكرون أنواع ما جمعه من العلوم وأبواب ما يتحلّى به من صفات الخير ، فعن الحسن بن عيسى بن ماسرجس قال : اجتمع جماعة من أصحاب ابن المبارك فقالوا : عدوا خصال ابن المبارك من أبواب الخير ، فقالوا : جمع العلم والفقه والأدب والنحو واللغة ، والزهد والشجاعة ، والشعر والفصاحة ، والورع والانصاف ، وقيام الليل والعبادة ، والحج والغزو والفروسية ، وترك الكلام فيما لايعنيه ، والشدة في رأيه ، وقلّة الخلاف على أصحابه [٣٥].

مكانته العلميّة

لاعجب اذن بعد ماعرفنا من سعة ثقافة ابن المبارك وتشعبها، وشمولها لأنواع العلوم والمعارف وبلوغه الغاية في كل ذلك ، مع تقوى وورع وصلاح ، وزهد وتواضع وكرم أخلاق ، وفروسية وشجاعة وجهاد في سبيل الله ، لاعجب بعد هذا كله أن تُصدَّرَ به المجالس ، وأن يحج اليه طلاب العلم والمعرفة من كل فج عميق ، وأن يكون ثناؤه على كل لسان . ولو أننا ذهبنا نستعرض هنا كل

---

(٣٤) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٦) .

(٣٥) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٤) وتهذيب الأسماء واللغات (١ : ٢٨٥) .

ما قيل في هذا الامام العظيم من كلمات الثناء والمديح لطال بنا الحديث ، ولكننا نشير الى أن أهل العلم كانوا يرون فيه الرجل الفذ والعالم الضخم النادر المثال ، حتى كان يعتبر واحداً من ثلاثة أئمة عظام لم تخرج خراسان مثلهم . يقول محمد بن عبد الوهاب الفراء : ماأخرجت خراسان مثل هؤلاء الثلاثة : ابن المبارك ، والنضر بن شميل ، ويحيى بن يحيى [٣٦] . بل كان يعتبر رجل خراسان الفرد وعالمها الوحيد ، فعن ابن أبي رزمة قال : قال لي شعبة : عرفت ابن المبارك ؟ قلت : نعم ، قال : ما قدم علينا من ناحيتكم مثله[٣٧] . بل كان يعتبره البعض واحد الدنيا وعالم الأرض في ذلك الوقت، فقد حدث معاذ بن خالد قال: تعرفت الى اسماعيل ابن عياش بعبد الله بن المبارك ، فقال اسماعيل بن عياش : ما على وجه الأرض مثل عبد الله بن المبارك [٣٨] ، وقال شعيب بن حرب: مالقي ابن المبارك مثل نفسه [٣٩] ، وقال : مالقي ابن المبارك رجلاً الا وابن المبارك أفضل منه [٤٠] .

---

(٣٦) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٥) .

(٣٧) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٦٥ .

(٣٨) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٧) .

(٣٩) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٤) .

(٤٠) تهذيب التهذيب (٥ : ٣٨٤) .

ولم لا يكون ابن المبارك رضي الله عنه كذلك ؟ وهو عالم المشرق والمغرب وما بينهما كما شهد له غير واحد من الأئمة ؟! فعن عبد الله بن سنان قال : قدم ابن المبارك مكة وأنا بها ، فلما خرج شيّعه سفيان بن عيينة والفضيل بن عياض وودعاه ، فقال أحدهما: هذا فقيه أهل المشرق ،فقال الآخر :وفقيه أهل المغرب[٤١]. وعن عبد الرحمن بن أبي جميل قال : قلنا لابن المبارك : يا عالم المشرق حدثنا . فسمعنا سفيان فقال : ويحكم ! عالم المشرق والمغرب وما بينهما [٤٢] .

وان اماماً كهذا الامام في العلم والعمل لهو أهل أن يتخذه الناس اماماً يقتدون بهداه علماً وعملاً ، وفهماً وسلوكاً . وهذا ما كان في الواقع ، قال أسود بن سالم : كان ابن المبارك اماماً يقتدى به وهو من أثبت الناس في السنة[٤٣] . وعن عبيد الله بن جناد قال : سمعت العمري يقول : ما رأيت في دهرنا أحداً يصلح لهذا الأمر الا رجلاً أتاني الى منزلي ، فأقام عندي ثلاثاً يسألني عن غير ما يسألني عنه أهل هذا الدهر ، فصيح اللسان الا أن اللغة شرقية ، يكنى أبا عبد الرحمن ، معه غلام يقال له سفير ، فقلنا له:

---

(٤١) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٦) .

(٤٢) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٢٨٦) .

(٤٣) المرجع السابق .

هذا عبد الله بن المبارك ، فقال : هكذا ينبغي ، ان كان معي أحد يصلح لهذا الأمر فذاك • قال عبيد : يعني الاقتداء بالعلم [٤٤] •

ولعل سبب هذا الاعجاب الشديد الذي جعل ألسنة تفصح عن مكانة هذا الامام ، وتلهج بالثناء عليه ، وتعترف بأنه واحد عصره وفريد دهره ، هو ثقافته المتنوعة ، وعلمه الجم ، وخصاله الخيرة العديدة • حتى ما يستطيع أحد أن يجد فيه مغمزاً ، ولا أن يرى فيه ثغرة كبيرة أو صغيرة ، يقول شعيب بن حرب : كنا نأتي ابن المبارك نحفظ عنه ، فما تستطيع أن تعلق عليه بشيء[٤٥] • وبالجملة فقد أجمع العلماء على قبوله وجلالته وامامته وعدله كما يقول أبو عمر بن عبد البر[٤٦] • وخير مابيّن مكانة ابن المبارك ما قاله النّسائي في وصفه اذ يقول : لا نعلم في عصر ابن المبارك أجلّ من ابن المبارك ، ولا أعلى منه ، ولا أجمع لكل خصلة محمودة منه [٤٧] •

---

(٤٤) حلية الأولياء (٨ : ١٦٢) •

(٤٥) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٢٨٦) •

(٤٦) البداية والنهاية (١٠ : ١٧٩) •

(٤٧) تهذيب التهذيب (٥ : ٣٧٨) •

ابن المبارك المحدِّث

على الرغم من ثقافة ابن المبارك المتنوعة ، وتشعب نواحي التفوق العلمي فيه ، مما يجعله شخصية علمية بأوسع ما في تلك الكلمة من معان ، وموسوعة علمية ودائرة معارف واسعة ، على الرغم من كل هذا فان شهرته كانت في بعض العلوم أكثر منها في بعضها الآخر ، فابن المبارك المحدث أبرز من ابن المبارك الفقيه ، وابن المبارك الفقيه أبرز من ابن المبارك الشاعر الأديب واللغوي النحوي •

وان ناحية الحديث تحتل مكان الصدارة من شهرة ابن المبارك ومن ثقافته ، وقد أطالت كتب التراجم والرجال في ابراز امتياز ابن المبارك في الحديث خاصة ، فذكرت مكانته الرفيعة عند العلماء واتفاقهم على تعديله وجلالته ، وذكرتْ من تَلَقّى عنهم من الشيوخ الكثيرين الذين بلغ عددهم أربعة آلاف شيخ كما يروى عنه ، كما ذكرت من تلقّى عنه أيضاً مما سنعرفه في مكانه •

وسنولي مكانته في الحديث أهمية خاصة لشهرته به ، وسنتحدث عن اتفاق الأئمة على توثيقه وسعة علمه مما جعلهم يقدمون قوله على أقوال غيره ، ثم عن حافظته العجيبة وسعة محفوظاته ، ثم عن حذقه ومهارته في هذا الفن ، ومعرفته بالآثار والرواة وحالهم في العدالة والضبط ، مما جعل الأئمة يعتمدون

على جرحه وتعديله ويتناقلون أقواله في ذلك ، ثم نورد أمثلة تدل على هذا الحذق والمهارة ، ثم نذكر بعض شيوخه وتلاميذه ، ونختم البحث بأمثلة من مروياته ونماذج منها .

اتّفاق الأئمة على توثيقه وامامته

ان أول ما يلفت النظر في شخصية ابن المبارك الحديثيةاتفاق علماء الجرح والتعديل على أنه : رجل صالح ، ثقة ، ثبت في الحديث ، وعلى أنه إمام المسلمين وسيد من ساداتهم ؛ وهذا قلما يتفق لأحد .

قال العِجْلي : عبد الله بن المبارك خراساني ، ثقة ، ثَبْت في الحديث ، رجل صالح ، وكان جامعاً للعلم (٤٨) . وقال يحيى بن معين فيه : كان كيِّساً ، متثبتاً ، ثقة ، وكان عالماً صحيح الحديث (٤٩) . وحسبك أن تعلم أنه روى له الجماعة (٥٠) ، فهو أحد رجال البخاري ، وشهرة البخاري في التشدد والمبالغة في التثبت من حفظ الرجال وعدالتهم أعرف من أن تتحدث عنها . وقد قال فيه عبد الرحمن بن يوسف بن خراش : عبد الله بن المبارك مروزيّ ثقة (٥١) . وفي سِيَر أعلام النبلاء : وحديثه حجة

(٤٨) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٥) .

(٤٩) تهذيب التهذيب (٥ : ٣٨٥) .

(٥٠) الفوائد البهية ص ١٠٣ .

(٥١) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٨) .

بالاجماع ، وهو في المسانيد والاصول[٥٢]. وقال يحيى بن معين ـ وقد ذكر عنده ابن المبارك ـ : سيد من سادات المسلمين ، وجاءه مرة رجل فقال : يا أبا زكريا من كان أثبت في معمر : عبد الرزاق أو عبد الله بن المبارك ؟ وكان متكئاً فاستوى جالساً وقال : كان ابن المبارك خيراً من عبد الرزاق ومن أهل قريته ، ثم قال: تضم عبدالرزاق الى عبدالله ؟![٥٣]. وكان أبو وهب محمد بن مزاحم يقول : العجب ممن يسمع الحديث عن ابن المبارك عن رجل ثم يأتي ذلك الرجل حتى يحدثه به[٥٤] .

وقد بلغ من ثقتهم به أنهم اتهموا كل من يغمز ابن المبارك بشيء ، وشكّوا في دين من ينتقص منه شيئاً ، وهذا قلّما اتفق لأحد غيره ، يقول أسود بن سالم : كان ابن المبارك اماماً يقتدى به ، كان من أثبت الناس في السنة ، اذا رأيت رجلاً يغمز ابن المبارك فاتهمه على الاسلام[٥٥].

وكان عبد الرحمن بن مهدي يقول : الأئمة أربعة : سفيان الثوري ، ومالك بن أنس، وحماد بن زيد ، وابن المبارك . ويقول: كان ابن المبارك أعلم من سفيان الثوري .

---

(٥٢) مصور مخطوط (٦ : ٢٤٦) .

(٥٣) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٥) .

(٥٤) المرجع السابق (١٠ : ١٦٨) .

(٥٥) المرجع السابق (١٠ : ١٦٨) .

وقدم عبد الرحمن بن مهدي بغداد في بيع دار له ، فاجتمع اليه أصحاب الحديث، فقالوا له : جالست سفيان الثوري وسمعت منه وسمعت من عبد الله ؛ فأيهما أرجح ؟ فقال : ما تقولون لو أن سفيان جهد جهده على أن يكون يوماً مثل عبدالله لم يقدر(٥٦)؟!. ومن أقوال ابن مهدي أيضاً : مارأت عيناي مثل سفيان،ولا أقدّم على عبد الله بن المبارك أحداً (٥٧). ومن أقواله: ابن المبارك عندنا آدب من الثوري(٥٨).وكان أبو اسحاق الفَزَاري يقول:ابن المبارك امام المسلمين أجمعين . وحدث المسيب بن واضح قال : سمعت أبا اسحاق الفَزَاري يقول : ابن المبارك امام المسلمين . ورأيت أبا اسحاق الفزاري بين يدي ابن المبارك قاعداً يسائله (٥٩) ، مع العلم أن أبا اسحاق أكبر من ابن المبارك بعشرين سنة .

هكذا كان العلماء ونقدة المحدثين ينظرون الى ابن المبارك نظر الاعجاب ، ويطلقون عليه أسمى الألقاب العلمية ، التي ما كانت تطلق جزافاً على الناس ــ كما نشاهده في عصرنا ــ فهو: امام المسلمين أجمعين ، وهو امام يُقتدى به بل هو أمير المؤمنين في الحديث.

---

(٥٦) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦١) .

(٥٧) حلية الأولياء (٨ : ١٦٣) .

(٥٨) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٥) .

(٥٩) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٣) وتهذيب التهذيب (٥:٣٨٦).

قال أبو أسامة : ابن المبارك في أصحاب الحديث مثل أمير المؤمنين في الناس [٦٠] ، بل هو عالم أهل المشرق والمغرب وما بينهما ، كما صرح بذلك عدد من الأئمة الأعلام من أمثال سفيان والفضيل ، الذين ما كانوا يعرفون التزلف لأحد والثناء على أحد الا بالحق ، فهي كلمة صدق من قوم صادقين .

حَدَّث أن كان فضيل وسفيان ومَشْيَخَة جلوساً في المسجد الحرام ، فطلع ابن المبارك من الثنية ، فقال سفيان : هذا رجل أهل المشرق ، فقال فضيل : هذا رجل أهل المشرق والمغرب وما بينهما . وحَدَّث عبد الرحمن بن أبي جميل قال : كنا حول ابن المبارك بمكة فقلنا له : يا عالم المشرق حدثنا . وسفيان قريب منا فسمع ، فقال : ويحكم عالم المشرق والمغرب وما بينهما [٦١]. وهذه شهادة من رجلين ربانيين يشهدان بها وهما في أقدس بقعة في المسجد الحرام أن ابن المبارك أعلم أهل الأرض في ذلك العصر، وهما من أخبر الناس بابن المبارك وعلمه ، وقد تكرر منهما هذا الكلام مما يدل على أن ذلك لم يكن كلاماً يقال في مناسبة من المناسبات ربما يرجع عنه قائله ، فهذا رجل يأتي سفيان الثوري فيسأله عن مسألة ، فيقول له سفيان :

---

(٦٠) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٦) . وأبو أسامة هذا هو حماد ابن أسامة الكوفي .

(٦١) المرجع السابق (١٠ : ١٦٢) .

ـ من أين أنت ؟

ـ قال من أهل المشرق •

ـ قال : أو ليس عندكم أعلم أهل المشرق ؟

ـ قال : ومن هو يا أبا عبد الله ؟

ـ قال : عبد الله بن المبارك •

ـ قال : وهو أعلم أهل المشرق ؟!

ـ قال : نعم وأهل المغرب (٦٢) •

ولا نجد سبباً معقولاً لكل هذا الاطراء والثناء والتقدير لعلمه حتى من معاصريه الا أنه بلغ من العلم ما لم يبلغه غيره ، وعرف منه ما لم يعرف سواه ، وقد انتهت اليه ثقافات عصره حتى ليُدرك عنده الشيء الذي لايُدرك عند غيره ، وهـذا واضح في أقوال الأئمة فيه • فهذا بن المديني يقول : نظرت فإذا الاسناد يدور على ستة ، ثم صار علم هـؤلاء الستة الى اثني عشر ، ثم انتهى علم الاثني عشر الى ستة: الى يحيى بن سعيد، وعبدالرحمن ابن مهدي ، ووكيع ، وعبـد الله بـن المبارك ، ويحيى بـن زكريا بن أبي زائـدة ، ويحيى بن آدم (٦٣) • ويقول ابن المديني

---

(٦٢) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٢) •

(٦٣) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٦٤ • وابن المديني الذي يقول هذا الكلام في ابن المبارك هو الإمام الذي يقول فيه البخاري : ما استصغرت نفسي بين يدي احد من العلماء إلا بين يدي ابن المديني.

أيضاً في مكان آخر: انتهى العلم الى رجلين: الى عبد الله بن المبارك، ثم من بعده إلى يحيى بن معين . وكان يقول : عبد الله بن المبارك هو أوسع علماً من عبد الرحمن بن مهدي ويحيى بن آدم . وكان يحيى بن معين ــ الذي انتهى إليه العلم بعد ابن المبارك ــ إذا ذكر أصحاب سفيان الثوري قال : هم خمسة : ابن المبارك .. وبدأهم به . وذُكر مرة عبد الله بن المبارك عنده ، فقال : كان عبد الله بن المبارك ــ رحمه الله ــ كيِّساً متثبتاً ثقة ، وكان عالماً صحيح الحديث ، وكانت كتبه التي حدث بها عشرين ألفاً أو واحداً وعشرين ألفاً(٦٤) .

وإن رجلاً هذه مكانته في العلم وهذا مبلغه منه ، ليس غريباً أن يُقدَّم قوله على قول غيره . وقد سبق أن ذكرنا قول يحيى ابن معين عندما سئل عن عبد الرزاق وابن المبارك ، فقال : كان ابن المبارك خيراً من عبد الرزاق ومن أهل قريته، ثم قال مستنكراً: تضم عبد الرزاق إلى عبد الله ؟!. وحدّث جعفر بن أبي عثمان الطيالسي قال : قلت ليحيى بن معين :

ــ إذا اختلف يحيى القطان ووكيع ؟

ــ قال : القول قول يحيى .

---

(٦٤) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٤) ويريد بـ « كتبه » الأجزاء التي كتبها عن شيوخه المحدثين ، والجزء عند المحدثين يعدل الرسالة الصغيرة في عرفنا اليوم .

ـ قلت إذا اختلف عبد الرحمن ويحيى ؟

ـ قال : يحتاج من يفضل بينهما .

ـ قلت : أبو نعيم وعبد الرحمن ؟

ـ قال : يحتاج من يفضل بينهما .

ـ قلت : الأشجعي ؟

ـ قال : مات الأشجعي ومات حديثه معه .

ـ قلت : ابن المبارك ؟

ـ قال : ذاك أمير المؤمنين(٦٥) .

ذاك أمير المؤمنين ، هذا أكبر لقب عرفه المحدثون ، ولم يكن ابن المبارك أمير المؤمنين بمعنى الحاكم والسلطان ، ولكنه أمير المؤمنين في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولم يكن هذا الاعتراف قاصراً على يحيى بن معين فقط ، بل كان ينطق بذلك كل من عرف مكانة ابن المبارك في العلم ، فهذا إبراهيم الحربي يسأل : إذا اختلف أصحاب معمر فالقول قول من ؟ قال : القول قول ابن المبارك(٦٦) .

---

(٦٥) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٥) .

(٦٦) المرجع السابق.

وقد بلغ من حذق ابن المبارك في هذا الفن أن أصبح قوله مقدماً على سواه ، قال القواريري : لم يكن ابن مهدي يُقدِّم عليه وعلى مالك في الحديث أحداً[٦٧] .

حفظُه

وثاني ما يسترعي الانتباه أنه كان آية في قوة الحفظ ، واستمساك الذاكرة ، والحفظ بالنسبة للحديث وفي ذلك العهد خاصة آلة العلم الأولى التي تمكن العالم من الضبط ، وتوصله إلى النبوغ . وقد سبق ــ في الحديث عن نشأته ــ ما حدّث به صديق لابن المبارك عن حفظه للخطبة الطويلة ثم إعادتها عن ظهر قلب في حال صغره ، فقد كان يتمتع بحافظة نادرة حتى روي أنه قال : ما أودعت قلبي شيئاً قط فخانني[٦٨] ، وعن نعيم بن حماد أنه سمع عبد الله بن المبارك يقول : قال لي أبي : لئن وجدت كتبك لأحرقنها،فقلت له: وما عليَّ من ذلك وهو في صدري![٦٩].

أما عن طريقة حفظه للحديث فقد قال النضر بن مساور : قلت لعبد الله بن المبارك : يا أبا عبد الرحمن هل تحفظ الحديث؟

---

(٦٧) تهذيب التهذيب (٥ : ٣٨٥) .

(٦٨) الطبقات الكبرى للشعراني (١ : ٦٠) .

(٦٩) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٦) .

ــ يعني هل تحفظه حفظاً ــ قال : فتغير لونه وقال : ما تحفظت حديثاً قط إنما آخذ الكتاب فأنظر فيه فما أشتهيه علق بقلبي(٧٠).

هذا ما ورد عن قوة حفظه العجيبة ، أما عن سعة حفظه للحديث فليست هذه أقل عجباً من تلك وإليك الدليل :

حضر عبد الله بن المبارك عند حماد بن زيد مسلِّماً عليه ، فقال أصحاب الحديث لحماد بن زيد :

ــ يا أبا إسماعيل ، تسأل أبا عبد الرحمن ــ يعنون ابن المبارك ــ أن يحدثنا ؟

ــ فقال : يا أبا عبد الرحمن ، تحدثهم ؟ فإنهم قد سألوني .

ــ قال : سبحان الله يا أبا إسماعيل أحدث وأنت حاضر ؟!

ــ قال: أقسمت لتفعلنّ .

ــ فقال ابن المبارك : خذوا : حدثنا أبو إسماعيل حماد بن زيد .. وحدثهم مجلساً كاملاً ، فما حدث فيه بحرف إلا عن حماد بن زيد(٧١) .

وسنرى في منهجه العلمي أنه مع شدة هذا الحفظ والتثبت ، كان لايحدّث إلا من كتاب ، وذلك من تمام الدقة والضبط حرمة لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(٧٠) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٥) .

(٧١) المرجع السابق (١٠ : ١٥٥) .

حذقه ومهارته ومعرفته بالآثار والرواة

وثالث ما يسترعي النظر في ابن المبارك المحدث أنه كان إماماً جهبذاً نقاداً ذا نظر ثاقب، وصيرفياً ماهراً ذا ميزان دقيق، يميز بين صحيح الحديث وسقيمه ، ويفرق بين غثه وسمينه ، ولذلك كان مثابة للناس ، ومرجعاً يحتكم إليه أصحاب الحديث ، ويصدرون عن رأيه ، حتى كان يقال له : (الطبيب) لشدة معرفته بالحديث ، فعن فضالة التونسي قال : كنت أجالس أصحاب الحديث بالكوفة، وكانوا إذا تشاجروا في حديث قالوا : مروا بنا إلى هذا الطبيب حتى نسأله يعنون عبد الله بن المبارك [٧٢] . وكان يحيى بن آدم يقول : كنت إذا طلبت الدقيق من المسائل ، فلم أجده في كتب ابن المبارك ، أيست منه[٧٣] .

وذلك أن ابن المبارك كان طبيب الحديث وأمير المؤمنين فيه كما وصفه أئمة العلم ، وكان هذا يعرفه كل الناس في عصره ، حتى السلطان ، مع أن ابن المبارك كان أبعد الناس عن أبواب الحكام والسلاطين . فقد أخرج ابن عساكر عن ابن علية قال : أخذ هارون الرشيد زنديقاً فأمر بضرب عنقه ، فقال له الزنديق :

ــ لم تضرب عنقي ؟

---

(٧٢) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٦) .

(٧٣) المرجع السابق .

ـ قال له : أريح العباد منك .

ـ قال : فأين أنت من ألف حديث وضعتها على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كلها ، ما فيها حرف نطق به ؟

ـ قال لـه الرشيد : فأين أنت ياعدو الله من أبي إسحاق الفزَاري، وعبد الله بن المبارك ينخلانها فيخرجانها حرفا حرفاً[٧٤] . وقد قيل لابن المبارك مرة : هذه الأحاديث الموضوعة ؟ فقال : تعيش لها الجهابذة[٧٥] . وكأن ابن المبارك كان يعني نفسه فقد عاش لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يميز بين صحيحه وسقيمه ، وبين قويه وعليله ، حتى وصل إلى الغاية التي رأيت .

وسبب هذا الحذق الواسع وهذه المهارة النادرة أن ابن المبارك رضي الله عنه كان عارفاً برواة الآثار ونقلة الأخبار ، وما أصبح طبيباً للحديث وصيرفياً ماهراً فيه ، إلا بذلك العلم الغزير ، والنظر الثاقب ، والبصيرة النافذة ، مما جعل الأئمة يعتمدون على جرحه وتعديله وتصحيحه وتضعيفه ، والأمثلة على ذلك كثيرة جداً ننقل بعضها هنا لعلاقتها بموضوعنا .

---

(٧٤) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٢) . وقد وردت هذه القصة ايضاً في : معجم الأدباء لياقوت (١ : ٢١٢) وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٩٣ .

(٧٥) اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة للسيوطي (٢ : ٤٧٢) .

فمن معرفته بالرواة : ماورد عن هشام عن ابن عبيد الله الرازي قال : سألت ابن المبارك : من أروى الناس أو أحسن الناس رواية عن المغيرة ، أجرير ؟ قال : أبو عوانة . وقال ابن المبارك : مارأيت أحداً أروى للزهري من معمر ، إلا أن يونس كان آخذ للسند لأنه كان يكتب .

وقال ابن المبارك : لم أر رجلاً أفضل من يحيى بن أيوب . وقال عن إبراهيم بن طهمان والسكري ـ يعني أبا حمزة ـ : صحيحا الكتب . وقال : إذا اجتمع إسماعيل بن عياش وبقية فبقية أحب إليّ . وقال : إذا اختلف الناس في شعبة فكتاب غُندَر حكم فيما بينهم .

وعن سعيد بن صالح قال : رأيت ابن المبارك مَرّ على رجل بهمذان يحدث عن يزيد بن زُرَيع ، فقال : عن مثله فحدِّث .

وقال إبراهيم بن عيسى الطالقاني : قلت لابن المبارك : شهاب بنِ خراش ؟ فقال : ثقة .

وقال أحمد بن سعيد الدارمي : قال ابن المبارك : حديث الزهري عندنا كأخذ اليد .

هذه صور من تعديله للرجال ، وقد كان لا يترك الرجل حتى يتحقق من ضعفه ، ويتأكد من عدم قوته بشكل لا يبقى معه مجال للشك ، فعن نُعيم بن حماد قال : « كان ابن المبارك لا يترك حديث الرجل حتى يبلغه عنه الشيء الذي لا يستطيع أن يدفعه »

فهو لا يجرح إلا بعــد التأكد مما يقول فإذا قال جاء بكلام دقيق محرّر ، فعن الحسن بن عيسى بن ماسرجس قال : سمعت ابن المبارك يقول : لا يكتب عن جرير بن عبد الحميد حديث السري ابن إسماعيل ، وترك ابن المبارك حديثه .

وقال يحيى بن معين: سمعت ابن المبارك يغمز عمر بن هارون في سماعه من جعفر بن محمد ؛ وكان عمر يروي عنه ستين حديثاً أو نحو ذلك .

وقال الحسن بن عيسى : ترك ابن المبارك حديث أيوب بن خُوط ، وترك عمرو بن ثابت .

وعن نعيم بن حماد قال : رأيت ابن المبارك يقول : اطرح حديث محمد بن سالم .

وقال يحيى بن آدم لعبدالله بن المبارك: أيهما أحب إليك نصر ابن طريف أوعثمان البري ؟ قال : لا ذا ولا ذا .

فابن المبارك كما ترى دقيق في جرحه كما هــو دقيق في تعديله ، لا يجرح الشخص حتى يبلغه عنه مالايستطيع دفعــه . فإذا ظهر له الحق صدع به ، والحق لا يختلف عنده باختلاف الأشخاص ، فالحق حق مطلقاً والزيغ زيغ كائناً من كان الناطق به. ولذلك كان يقول : « دعوا ذكر الرجال عنــد الحجاج » كما أخرجه عنه الخطيب في « الفقيه والمتفقه »[٧٦] .

---

(٧٦) مقالات الكوثري ص ٣٢٥ .

وهذه المعرفة الواسعة في الرجال جعلته نافذ البصيرة ، يميز الحديث وينقده ، وينفي عنه الخبث إن وجد من أول نظرة .

ومن صور هذه المعرفة بالآثار ما يأتي من الأمثلة :

كان يحيى بن معين يقول في حديث قرة عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : « حذف السلام سنة »(٧٧) قال يحيى : كان عيسى بن يونس يرفعه . فقال له ابن المبارك : لا ترفعه ، فكان بعد لا يرفعه .

وعن قوقل بن مطهر قال : كان رجل بالكوفة يقال له حبيب المالكي ، وكان رجلاً له فضل وصحبة فذكرناه لابن المبارك فأثنينا عليه . قلت : عنده حديث غريب . قال : ما هو ؟ قلت : الأعمش عن زيد بن وهب ، قال : سألت حذيفة عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقال : إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لحسن ، ولكن ليس من السنة أن تخرج على المسلمين بالسيف . فقال : هذا حديث ليس بشيء . قلت له : إنه وإنه،فأبى،فلما أكثرت عليه في ثنائي قال : عافاه الله في كل شيء إلا في هذا الحديث ، كنا نستحسنه من حديث سفيان عن حبيب عن أبي البختري عن حذيفة.

وذُكر لابن المبارك حديث رواه حبيب بن خالد المالكي السابق ذكره ، فقال : ليس بشيء . فقيل له : إنه شيخ صالح . فقال : هو صالح في كل شيء إلا في هذا الحديث .

---

(٧٧) معناه : لا يمد ولا يعرب بل يسكن آخره .

وعن نعيم بن حماد قال : سمعت ابن المبارك ــ وذُكر عنده حديث سَلْم بن سالم ــ فقال : هذا من عقارب سلم .

وفي « الميزان »(٧٨) أنه كان يقول عن سلم هذا : اتق حيات سلم لا تلسعك .

وحدث إبراهيم بن عيسى الطالقاني قال : قلت لابن المبارك : أيصلي أحد عن أحد أو يصوم أحد عن أحد ؟ قال : الصدقة ليس فيها اختلاف . قلت : فالحديث الذي يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم : إن من البرّ بعد البر أن تصلي لهما مع صلاتك وتصوم لهما مع صيامك ...؟ قال : الحديث عمن ؟ قلت : عن شهاب بن خراش . قال : ثقة ، عمن ؟ قلت : عن الحجاج بن دينار . قال : ثقة ، عمن ؟ قلت : عن النبي صلى الله عليه وسلم . فقال : يا أبا إسحاق، بين الحجاج وبين النبي صلى الله عليه وسلم مفازة تقطع فيها أعناق المطي .

وهذا معناه أنه لا يقبل المراسيل .

وقد سئل مرةعن حديث : « عليكم بالقَرْع فإنه يزيد في الدماغ ، وعليكم بالعدس فإنه قدّس على لسان سبعين نبياً » فقال : ولا على لسان نبي واحد، إنه لمؤذ ينفخ(٧٩) .

---

(٧٨) ميزان الاعتدال (٢ : ١٨٥) .

(٧٩) المرجع السابق .

وكان يقول في أحاديث أبي بن كعب : « من قرأ سورة كذا فله كذا ، ومن قرأ سورة كذا فله كذا .. » : أظن الزنادقة وضعته[٨٠] .

هذه المهارة جعلت أئمة العلم في هذا الفن قديماً وحديثاً يتخذون منه مرجعاً يحتكم إليه ، يفزعون إليه عند الاختلاف في الحديث ، فيجدون عنده الجواب الشافي ، وجعلت عظماء الأئمة يقولون بقوله أمثال ابن مهدي وغيره :

فقد سئل عبد الرحمن بن مهدي عن يونس الأيلي فقال : كان ابن المبارك يقول : كتابه صحيح. قال عبد الرحمن بن مهدي: وأنا أقول : كتابه صحيح[٨١] . بل كان الإمام البخاري نفسه يعتمد أقواله ويقول بها ؛ ففي « تهذيب التهذيب »[٨٢] في ترجمة « أيوب بن خوط » قال البخاري : تركه ابن المبارك . وفي «تهذيب التهذيب»[٨٣] أيضاً في ترجمة «محمد بن سالم الهمْداني» قال البخاري : يتكلمون فيه ، وكان ابن المبارك ينهى عنه . وفيه أيضاً [٨٤] في ترجمة « محمد بن عبيد الله العَرْزمي » قال

---

(٨٠) تأويل مختلف الحديث ص ٨٦ .

(٨١) الأمثلة التي لم يسبق عزوها أخذت من كتاب تقدمة الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ص ٢٦٩ ــ ٢٧٤ .

(٨٢) تهذيب التهذيب (١ : ٤٠٢) .

(٨٣) المرجع السابق (٩ : ١٧٧) .

(٨٤) المرجع السابق (٩ : ٣٢٣) .

البخاري : تركه ابن المبارك ويحيى • ويحيى هذا هو الإمام الكبير يحيى بن سعيد القطان أحد أئمة الجرح والتعديل •

شيُوخـهُ

سبق أن أشرنا الى أن ابن المبارك كان كثير الأسفار طلاّباً للعلم ؛ يكتب العلم عن كل عالم ثقة ، كتب عمن تقدمه ، وعمن عاصره ، حتى كتب العلم عمن هو أصغر منه ، ولذلك كان شيوخه لايحصرهم العد • وقد سبق أن نقلنا ما رواه العباس بن مصعب في تاريخه عن ابراهيم بن اسحاق عن ابن المبارك أنه قال : حملت عن أربعة آلاف شيخ فرويت عن ألف منهم • ثم قول العباس بن مصعب : وقع لي من شيوخه ثمانمائة[٨٥] • وقد أطالت كتب الرجال في سرد أسماء من تلقى عنهم من التابعين وأتباع التابعين ، وأجمعت على أنهم لاينحصرون لكثرتهم • وبعضها يذكر من أساتذته شيوخاً يسقطهم البعض الآخر ، وأكثر مارود من شيوخه في تهذيب التهذيب ففيه[٨٦] أنه :

روى عن سليمان التيمي، وحـُميد الطويل، واسماعيل بن أبي خالد ، ويحيى بن سعيد الأنصاري ، وسعد بن سعيد الأنصاري ، وابراهيم بن أبيعبلة ، وأبي خلدة خالد بن دينار، وعاصم الأحول،

---

(٨٥) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٥) سبقت في بحث طلبه للعلم .

(٨٦) تهذيب التهذيب (٥ : ٣٨٣) .

وعبد الله بن عون ، وعبد الله بن عمر ، وعكرمة بن عمار ، وعيسى ابن طهمان ، وفطر بن خليفة ، ومحمد بن عجلان ، وموسى بن عقبة ، وابراهيم بن عقبة ، وسليمان الأعمش ، وهشام بن عروة ، وعن سفيان الثوري ، وشعبة ، والأوزاعي ، وابن جريج ، ومالك ابن أنس ، والليث بن سعد ، وابن أبي ذئب ، وابراهيم بن طهمان، وابراهيم بن نشيط،وأبي بردة بريد بن عبدالله بنأبي بردة،وحسين المعلم ، وحيوة بن شريح ، وخالد بن سعيد الأموي ، وخالد ابن عبد الرحمن بن بكر السلمي ، وزكريا بن اسحاق ، وزكريا بن أبي زائدة ، وسعيد بن أبيعروبة ، وسعيد بن أبيأيوب ، وأبيشجاع، وسعيد بن يزيد القتباني ، وسعيد بن إياس الجريري ، وسلام ابن أبي مطيع ، وصالح بن صالح بن حي ، وطلحة بن أبي سعيد ، وعبد الملك بن أبي سليمان ، وعمر بن ذر ، وعمر بن سعيد بن أبي حسين ، ومحمد بن عمر بن فروخ ، وعمر بن ميمون بن مهران ، وعوف الأعرابي ، ومحمد بن أبي حفصة ، ومعمر بن راشد ، وهشام بن حسان ، ووهيب بن الورد ، ويونس بن يزيد الأيلي، وأبي بكر بن عثمان بن سهل بن حنيف ، وخلق كثير ..

وجاء في غير تهذيب التهذيب أسماء بعض الشيوخ الذين لم يذكرهم وذلك مثل :

ابراهيم بن سعد ، وزهير بن معاوية ، وأبي عوانة الوضاح

ابن خالد[87] ، والربيع بن أنس ، وخالد بن مهران الحذاء[88] . وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، وسفيان بن عيينة، وحماد بن زيد ، وحماد بن سلمة ، ومسعر بن كدام ، وآخرين لاينحصرون [89] .

وأقدم شيخ لقيه هو الربيع بن أنس الخراساني تحمّل ودخل اليه السجن ، فسمع منه نحواً من أربعين حديثاً [90] .

تلاميذه [91]

ان تلاميذ ابن المبارك من الكثرة بحيث لا يحصرهم الحساب فقد حدّث عنه كثير من الناس حتى من أقرانه ومعاصريه ، بل حتى من شيوخه الذين كان يتلقى منهم العلم كسفيان الثوري وغيره من الأئمة . حتى قال عنه الذهبي [92] : حدّث عنه خلق

---

(٨٧) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٢) .

(٨٨) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٣) .

(٨٩) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٢٨٥) .

(٩٠) سير أعلام النبلاء ـ مصور مخطوط في المجمع ـ (٦ : ٢٤٥) .

(٩١) نقصد بهذا العنوان كل من له رواية عنه من العلماء . وقد يكون فيهم بعض أساتذته او معاصريه .

(٩٢) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٣) .

لا يحصَون من أهل الأقاليم فانه من صباه ما فتر عن السفر •
وقال فيه أيضاً ابن كثير[٩٣] : « وحدّث عنه خلائق من الناس » •
وقد أطالت الكتب في سرد من تلقى عن ابن المبارك كما أطالت من قبل في سرد من تلقى عنهم • فممن روى عنه من الأئمة والأعلام :

سفيان الثوري،ومعمر بن راشد،وأبو اسحاق الفزاري[٩٤]، وجعفر بن سليمان الضبعي ، وبقية بن الوليد ، وداود بن عبد الرحمن العطار ، وسفيان بن عيينة ، وأبو الأحوص ،والفضيل ابن عياض ، ومعمر بن سليمان[٩٥]،والوليد بن مسلم ، وأبو بكر ابن عياش ، وغيرهم من شيوخه وأقرانه •

وروى عنه مسلم بن ابراهيم ، وأبو أسامة الكوفي ، وأبو سلمة التبوذكي ، ونعيم بن حماد ، وعبد الرحمن بن مهدي ، ويحيى بن سعيد القطان ، واسحاق بن راهويه ، ويحيى بن معين ، وابراهيم بن اسحاق الطالقاني ، وأحمد بن محمد مردويه ، واسماعيل بن أبان الوراق ، وبشر بن محمد السختياني ، وحبان ابن موسى ، والحكم بن موسى ، وزكريا بن عدي ، وسعيد ابن

---

(٩٣) البداية والنهاية (١٠ : ١٧٧) .

(٩٤) وابو اسحاق الفزاري هذا اكبر من ابن المبارك بعشرين سنة او اكثر . كما في تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٧٦ .

(٩٥) في ادب الإملاء والاستملاء ص ١٥ عن معمر بن سليمان انه قال : كنت مع ابن المبارك فيملي علي واملي عليه .

سليمان ، وسعيد بن عمرو الأشعثي ، وسفيان بن عبد الملك المروزي[٩٦] ، وسلمة بن سليمان المروزي ، وسليمان بن صالح سلمويه ، وعبد الله بن عثمان عبدان ، وأبو بكر بن أبي شيبة ، وأخوه عثمان بن أبي شيبة ، وعبد الله بن عمر بن أبان الجعفي ، وعلي بن الحسن بن شقيق[٩٧] ، وعمرو بن عون، وعلي بن حجر، ومحمد بن الصلت الأسدي ، ومحمد بن عبد الرحمن بن سهم الأنطاكي ، وأبو كريب ، وأبو بكر بن أصرم ، ومنصور بن أبي مزاحم ، ومحمد بن مقاتل المروزي ، ويحيى بن أيوب المقابري ، وسويد بن نصر، وخلق كثير آخرهم الحسن بن داود البلخي[٩٨].

كما روى عنه أيضاً عبدالله بن وهب، ويحيى بن آدم، وعبدالرزاق ابن همام ، ومكي بن ابراهيم ، وموسى بن اسماعيل ، ويعمر ابن بشر ، وأبو النضر هاشم بن القاسم ، والحسن بن الربيع

---

(٩٦) وكان سلمة بن سليمان المروزي وراق ابن المبارك . وكان محمد بن اعين المروزي خادمه ، ومعاذ بن أسد المروزي كاتبه. كما في تقريب التهذيب .

(٩٧) قال فيه يحيى بن معين : ما قدم علينا من خراسان أفضل منه ، كان عالماً بابن المبارك ، وقد سمع منه الكتب مراراً . وقال العباس بن مصعب : كان جامعاً يعد من أحفظهم لكتب عبد الله . انظر تذكرة الحفاظ (١ : ٣٣٧) .

(٩٨) تهذيب التهذيب (٥ : ٣٨٤) .

البوراني ، والحسن بن عرفة ، ويعقوب الدورقي ، وابراهيم ابن مجشر[٩٩] .

وأحمد بن منيع ، وأحمد بن حنبل المروزي ، والحسن ابن عيسى بن ماسرجس والحسين بن الحسن المروزي[١٠٠].

وأبو داود الطيالسي ، ومحمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة، وخلائق غيرهم[١٠١].

وقد ورد أن الامام الشافعي روى عنه حديثاً في التعوذ من النحـــل[١٠٢] .

ولعل سبب كثرة تلاميذه ماقدمنا من أنه من صباه مافتر عن الأسفار الى جيمع الأمصار التي عرفت بالنشاط العلمي في ذلك العصر . وقد كان يحدث في كل مكان حل فيه ، وفي كل بلد سافر اليه ، حتى ولو كان ثغراً من الثغور ، لاينضب معينه ، ولا ينفد زاده ، لأنه كان كما يقول الامام أحمد بن حنبل[١٠٣] : « من رواة العلم وأهل ذلك ، وجمـــع أمراً عظيماً ، كان صاحب حديث ، حافظاً » .

---

(٩٩) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٣) .

(١٠٠) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٣) .

(١٠١) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٢٨٥) .

(١٠٢) مناقب الشافعي للبيهقي (٢ : ٣١٥).

(١٠٣) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٢٨٦) .

رِوَايَتُهُ عَنِ ابْنِ لَهِيعَة

عبد الله بن لَهِيعة هو الامام الكبير قاضي الديار المصرية وعالمها ومحدثها (١٠٤) . وقد روى عنه الثوري ، والأوزاعي ، وشعبة ، وابن المبارك ، وخلق ، وخرج له الترمذي وأبو داود وغيرهما (١٠٥) .

وقد اختلفت فيه أقوال أئمة الجرح والتعديل : فضعفه كثيرون منهم : كيحيى بن معين ، والليث بن سعد ، ويحيى بن سعيد ، والبخاري ، والنسائي ، وابن سعد وآخرون (١٠٦) . كما وثقه بعض الأئمة كأحمد وغيره ، وكان يقول فيه : من كان بمصر مثل ابن لهيعة في كثرة حديثه وضبطه واتقانه؟!(١٠٧) وكان الثوري يقول : عند ابن لهيعة الأصول وعندنا الفروع . ويقول : حججت حجاً لألقى ابن لهيعة . وكان ابن وهب يقول : حدثني ـ والله ـ الصادق البار عبد الله بن لهيعة ، وكان أحمد بن صالح يثني عليه ويقول : ابن لهيعة صحيح الكتاب ، وانما كان أخرج كتبه فأملى على الناس حتى كتبوا حديثه إملاءً ؛ فمن ضبط كان حديثه حسناً ، الا أنه كان يحضر من لا يحسن ولا يضبط

---

(١٠٤) تذكرة الحفاظ (١ : ٢١٩) .

(١٠٥) شذرات الذهب (١ : ٢٨٤) .

(١٠٦) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٢٨٤) .

(١٠٧) شذرات الذهب (١ : ٢٨٤) .

ولا يصحح،ثم لم يخرج بعد ذلك ابن لهيعة كتاباً ولم يُر له كتاب. وكان من أراد السماع منه استنسخ ممن كتب عنه وجاء فقرأ عليه. فمن وقع على نسخة صحيحة فحديثه صحيح . ومن كتب من نسخة لم تضبط جاء فيه خلل كثير[108] .

والذي يهمنا هنا رواية ابن المبارك عنه ، فقد قالوا في سبب ضعف ابن لهيعة أنه احترقت كتبه ، ورواية ابن المبارك عنه كانت قبل احتراقها ، وفي ذلك يقول الفلّاس[109] : من كتب عنه قبل احتراق كتبه مثل ابن المبارك وأبي المقرىء فسماعه أصح[110] ولكن يحيى بن معين يقول : هو ضعيف قبل أن تحترق كتبه وبعد احتراقها[111] .

وحتى على فرض ضعف ابن لهيعة قبل احتراق كتبه أيضاً ، فان رواية ابن المبارك عنه تبقى مستثناة من هذا الضعف . وفي ذلك يقول ابن مهدي : ما أعتد بشيء سمعته من حديث ابن لهيعة الا سماع ابن المبارك ونحوه[112] . ويقول

---

(108) تهذيب التهذيب (٥ : ٣٧٦) .

(109) الفلّاس : بفاء مفتوحة ولام مشددة ، نسبة الى بيع الفلوس . وهو عمرو بن بحر البصري سكن بغداد وتوفي سنة ٢٤٩هـ

(110) ميزان الاعتدال (٢ : ٦٤) .

(111) المرجع السابق .

(112) المرجع السابق .

عبد الغني بن سعيد الأزدي : إذا روى العبادلة عن ابن لهيعة فهو صحيح . والعبادلة هم : عبد الله بن المبارك ، وعبد الله بن وهب، وعبد الله المقرىء . وذكر الساجي وغيره مثله (١١٣) .

ولعل سبب استثناء رواية ابن المبارك ومن معه من الضعف ، هو أنهم كانوا لا يكتفون بمجرد السماع من ابن لهيعة ، بل كانوا يتتبعون الأصول ، وعن هذا يقول أبو زرعة : سماع الأوائل والأواخر منه سواء ، الا ابن المبارك وابن وهب كانا يتتبعان أصوله ، وليس ممن يحتج به (١١٤) . ومما يؤكد ذلك أن ابن المبارك نفسه كان يرى ضعف ابن لهيعة وذلك أنه سمع رجلاً يذكره فقال : قد أراب ابن لهيعة (١١٥) .

أَصَحُّ الأَسَانِيدِ عِنْدَهُ

قال ابن المبارك والعجلي : أرجح الأسانيد وأحسنها سفيان الثوري ، عن منصور ، عن ابراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله ابن مسعود . وكذلك رجحها النسائي (١١٦) .

وهذا أحسن الأسانيد وأرجحها عند ابن المبارك على الاطلاق،

---

(١١٣) تهذيب التهذيب (٥ : ٣٧٣) .

(١١٤) ميزان الاعتدال (٢ : ٦٤) .

(١١٥) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢١٧ .

(١١٦) تدريب الراوي (١ : ٨٢) .

وقد رأيت أن العجلي والنسائي يقولان بقوله أيضاً ، وكذلك فقد « وافقه الحاكم على أنه أصح الأسانيد الى ابن مسعود [١١٧] » • وقال أحمد بن عبد الله : انه أحسن اسناد الكوفة [١١٨] •

وكان ابن المبارك يفضل أحاديث أهل مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم على غيرها من البلدان، فيقول: « حديث أهل المدينة أصح ، واسنادهم أقرب » [١١٩] •

نماذج من مروياته

بعد أن عرفنا مكانة ابن المبارك الرفيعة في الحديث ، وعرفنا ما يتمتع به من حافظة عجيبة ، وذاكرة نادرة ، ثم عرفنا بعد ذلك من سعة حفظه للحديث ، ما مكنه من أن يحدث مجلساً كاملاً لايحدث فيه الا عن حماد بن زيد ، وذلك عندما طلب أصحاب الحديث من حماد بن زيد أن يسأل ابن المبارك أن يحدثهم • بعد ذلك يمكننا أن نعرض نماذج مما رواه ابن المبارك رضي الله عنه من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك لنأخذ صورة — ولو مصغرة — عن مروياته •

وفيما يلي بعض مروياته نختارها من حلية الأولياء نسوقها بسندها :

---

(١١٧) تدريب الراوي (١ : ٨٤) •

(١١٨) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٢٢٢) •

(١١٩) تدريب الراوي ١/٨٥ •

١ ــ حدثنا أحمد بن جعفر بن معد ، حدثنا يحيى بن مطرف، حدثنا مسلم بن ابراهيم ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، عن موسى ابن عقبة ، عن سالم بن عبد الله بن عمر ، عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ظلم شبراً من الأرض خنق بــه يوم القيامة » [١٢٠] .

٢ ــ حدثنا جعفر بن عمر ، حدثنا ابو حصين ، حدثنا يحيى الحمّاني ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، عن سليمان التيمي ، عن أنس بن مالك قال : « عطس رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم فشمّت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدهما ولم يشمّت[١٢١] الآخر،وقال:ان هذا قال: الحمد لله ولم تقل أنت: الحمد لله»[١٢٢] .

٣ ــ حدثنا طلحة بن أحمد بن حسن العوفي، حدثنا محمد بن علوية المصيّصي،حدثنا يوسف بن سعيد بن مسلم ، حدثنا عبدالله ابن موسى ، حدثنا ابن المبارك ، عن سليمان التيمي ، عن أنس

---

(١٢٠) لم أجده بمثل هذا اللفظ ، وقد روي عن كثيرين من الصحابة ، ولفظ الشيخين : « من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين » عن عائشة لا عن ابن عمر .

(١٢١) تشميت العاطس سنة إذا حمد الله ، وهو أن يقال له: « يرحمك الله » ويجيب هــو : « يهديكم الله ويصلح بالكم » أي : شأنكم .

(١٢٢) متفق عليه . وفي الحديث : فقــال الذي لم يشمته : عطس فلان فشمته وعطست فلم تشمتني ؟ فقال : هذا حمد الله تعالى وانك لم تحمد الله تعالى .

ابن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « رأيت ليلة أسري بي رجالاً تقطع ألسنتهم بمقاريض من نار ، فقلت : من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : هؤلاء خطباء من أمتك يأمرون الناس بما لا يفعلون »(١٢٣) .

٤ ــ حدثنا أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن حمزة ، حدثنا ابراهيم بن هاشم ، حدثنا أحمد بن حنبل ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، أخبرنا حميد ، عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فاذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، واستقبلوا قبلتنا ، وصلّوا جماعتنا ، وأكلوا ذبيحتنا، حرمت علينا دماؤهم وأموالهم الا بحقها ، لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين »(١٢٤) .

٥ ــ حدثنا جعفر بن محمد بن عمرو ، حدثنا أبو حصين ، حدثنا يحيى بن عبد الحميد ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، عن عبد الله بن سعيد بن أبي هند ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ »(١٢٥) .

---

(١٢٣) رواه ابن أبي الدنيا وابن حبان والحاكم والبيهقي ــ وألفاظهم متقاربة ــ عن أنس .

(١٢٤) رواه البخاري عن أنس .

(١٢٥) متفق عليه .

٦ ـ حدثنا أبو بكر بن خلاد ، حدثنا الحارث بن أبي أسامة، حدثنا النضر قال : حدثنا عبد الله بن المبارك ، عن أبي بكر بن أبي مريم ، حدثنا ضمرة بن حبيب ، عن شداد بن أوس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الكَيِّسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت،والفاجر من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله »(١٢٦).

٧ ـ حدثنا أبو بكر الطلحي ، حدثنا الحسن بن جعفر القتات، حدثنا عبد الله بن الصالح ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، حدثنا يحيى بن عبيد الله قال : سمعت أبي يقول : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما رأيت مثل الجنة نام طالبها ، ولا رأيت مثل النار نام هاربها »(١٢٧) .

٨ ـ حدثنا أبو اسحاق بن حمزة ، وعلي بن هارون ، وعبد الله بن محمد بن أحمد ، قالوا : حدثنا جعفر الفريابي ، حدثنا ابراهيم ، عن عثمان بن زياد ، حدثنا ابن المبارك ، عن مالك بن أنس ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله

---

(١٢٦) رواه الامام أحمد .

(١٢٧) رواه الترمذي عن أبي هريرة ، وضعفه بيحيى بن عبيد الله المذكور في سند ابن المبارك ؛ لكن رواه الطبراني في الأوسط عن أنس بإسناد حسن .

تعالى لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا مالم تعطه أحداً من خلقك ؟! فيقول : أنا أعطيكم أفضل من ذلك أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم » (١٢٨) .

٩ ــ حدثنا أبواسحاق بن حمزة ، أخبرنا أبوالقاسم البغوي ــ املاءً ــ والقاسم بن يحيى قالا : حدثنا الحسن بن عيسى ، حدثنا ابن المبارك ، عن يونس ، عن الزهري ، عن سعيد بن المسيب أن أبا هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يدخل الجنة من أمتي زمرة هم سبعون ألفاً ، تضيء وجوههم اضاءة القمر ليلة البدر . فقال أبو هريرة : فقام عكاشة الأسدي فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم ، قال : اللهم اجعله منهم . ثم قام رجل من الأنصار فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال : سبقك بها عكاشة » (١٢٩) .

---

(١٢٨) متفق عليه .

(١٢٩) متفق عليه ، وعكاشة : بضم أوله وتشديد الكاف وتخفيفها أيضاً ، وهو ابن مِحصن : بكسر الميم . وعكاشة من السابقين الأولين ، شهد بدراً وأبلى فيها بلاء حسناً ، ثم شهد أحداً والخندق وسائر المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستشهد في قتال المرتدين في زمن أبي بكر رضي الله عنه . وله اربع وأربعون سنة رضي الله عنه .

١٠ ــ حدثنا جعفر بن محمد ، حدثنا أبو حصين ، حدثنا يحيى بن عبد الحميد ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، عن عبد الله بن عقبة ، حدثني يزيد بن أبي حبيب ، أن أبا الخير حدثه ، أن عقبة ابن عاصم حدثه أن النبي صلى الله عليه وسلم صلّى على قتلى أحد بعد ثمان سنين كالمودع للأحياء والمودع للأموات ، ثم قال : « إني من بين أيديكم فَرَط [١٣٠] ، وأنا عليكم شهيد ، وان موعدكم الحوض ، واني لأنظر اليه في مقامي هذا ، واني لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدي ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها » .

قال عقبة : وكان آخر نظرة نظرتها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم [١٣١] .

ابن المبارك الفقيه

مكانته في الفقه

لم يكن ابن المبارك محدثاً فحسب ، بل كان فقيهاً أيضاً ،

---

(١٣٠) الفرط : بفتح الفاء والراء : الذي يتقدم الواردين فيهيء لهم ما يحتاجون . وهو هنا : المتقدم للثواب والشفاعة . ومنه قيل للطفل الميت : « اللهم اجعله لنا فرطا » أي أجراً يتقدمنا حتى نرد عليه .

(١٣١) متفق عليه .

وقد ذكره ابن النديم في الفهرست بين فقهاء المحدثين • وقد رأيتَ مكانته في الحديث ، أما مكانته في الفقه فما كانت تقل عن مكانة معاصريه من الأئمة والأفذاذ ، واذا كان قد ذُكر في طبقات المحدثين، فقد ذكر أيضاً في طبقات الفقهاء وتُرجم له ، وفي أي مكان يذكر فيه ابن المبارك أول ما يقال فيه: أنه جمع الحديث والفقه والعربية•• فكما كان محدثاً من الطراز الأول كان فقيهاً من الطراز الأول • فهذا الحافظ ابن حجر يقول[١٣٢] : عبد الله بن المبارك ثقة ثبت فقيه • وهذا سفيان بن عيينة يقول : لقد كان فقيهاً عالماً [١٣٣] • وفي البداية والنهاية [١٣٤] : وكان موصوفاً بالحفظ والفقه • وقد سبق قول عبد الرحمن بن مهدي[١٣٥] : « الأئمة أربعة : سفيان الثوري ، ومالك بن أنس ، وحماد بن زيد ، وابن المبارك » وابن مهدي هذا هو الذي يقول فيه أيوب بن المتوكل : كنا اذا أردنا أن ننظر الى الدين والدنيا ذهبنا الى دار عبدالرحمن بن مهدي[١٣٦] • ان ابن مهدي الذي يعد ابن المبارك في صف سفيان ومالك وحماد لا يقول هذا الكلام الا عن خبرة ومعرفة • فقد جالس الجميع وأخذ عنهم ، وعرف مقام كل واحد منهم ، بل كان يفضّل ابن

---

(١٣٢) تقريب التهذيب (١ : ٤٤٥) .

(١٣٣) تهذيب التهذيب (٥ : ٣٨٥) .

(١٣٤) البداية والنهاية (١٠ : ١٧٧) .

(١٣٥) في بحث (ابن المبارك المحدث) .

(١٣٦) تذكرة الحفاظ (١ : ٣٠٢) .

المبارك على سفيان الثوري كما سبق أن نقلنا ذلك عنه [١٣٧] .
كما نقلنا قول سفيان نفسه في أن ابن المبارك عالم المشرق والمغرب، واذا عرفنا أن هذه شهادة أستاذ لتلميذه، أمكننا أن نتصور ماكان عليه ابن المبارك من العلم ، وما وصل اليه من النبوغ ، وقد بلغ من سمو مكانته في الفقه أن أصبح فقيه العرب بعد سفيان الثوري ، فقد حدث محمد بن المعتمر بن سليمان قال : قلت لأبي: يا أبتِ مَنْ فقيه العرب ؟ قال : سفيان الثوري . فلما مات سفيان قلت : يا أبتِ من فقيه العرب ؟ قال : عبد الله بن المبارك [١٣٨] .
بل كان ينظر إليه البعض على أنه أفقه الناس جميعاً في ذلك العصر، فعن إبراهيم بن شماس قال : رأيت أفقه الناس ، وأورع الناس وأحفظ الناس ، فأما أفقه الناس فعبد الله بن المبارك ، وأما أورع الناس ففضيل بن عياض،وأما أحفظ الناس فوكيع بن الجراح [١٣٩].
وعن عبد الله بن سنان قال : قدم ابن المبارك مكة وأنا بها ، فلما خرج شيّعه سفيان بن عيينة والفضيل بن عياض وودعاه ، فقال أحدهما : هذا فقيه أهل المشرق ، فقال الآخر : وفقيه أهل المغرب [١٤٠] .

---

(١٣٧) انظر صفحة ٧٢ من هذا الكتاب .

(١٣٨) تقدمة الجرح والتعديل ص ١٦٢ وحلية الأولياء (٨ : ١٦٣) .

(١٣٩) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٤) .

(١٤٠) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٦) .

وقد تهيأ لابن المبارك مالم يتهيأ حتى لكبار الأئمة المتبوعين المشهورين ، وذلك أنه بلغ من علو منزلته ، ورفعة شأنه ، وشهرة عدالته ، التي شهد بها الكبير والصغير ، أنه لم يوجد له منتقص ، فقد قال أبو عمر : لا أعلم أحداً من الفقهاء سلم أن يقال فيه شيء إلا عبد الله بن المبارك[١٤١] .

شيوخه في الفقه

جالس ابن المبارك كثيراً من الشيوخ ، وروى عن كثيرين ، وأبرز شيوخه في الفقه ثلاثة من كبار الأئمة وهم : سفيان الثوري، ومالك بن أنس ، وأبو حنيفة ، فقد جاء في بعض الروايات أنه تفقه على سفيان الثوري ، ومالك بن أنس وروى عنه الموطأ [١٤٢] ، وجاء في بعضها الآخر أنه تفقه بأبي حنيفة وأخذ عنه علمه[١٤٣] . ولذلك سنذكر نبذة عن كل واحد من هؤلاء وعن صلته بإمامنا ابن المبارك ، وذلك لنعرف أهم الموارد التي استقى منها ثقافته الفقهية .

---

(١٤١) الجواهر المضية (١ : ٢٨٢) .

(١٤٢) وفيات الأعيان (٢ : ٢٣٧) . وشذرات الذهب (١ : ٢٩٦) . ومرآة الجنان « ١ : ٣٧٩ » .

(١٤٣) النجوم الزاهرة (٢ : ١٠٣) .

١ ـ سُفيَانُ الثّوري

هو الإمام الجامع لأنواع المحاسن ، وهو من تابعي التابعين ، وقد اتفق العلماء على وصفه بالبراعة في العلم بالحديث والفقه والورع والزهد وخشونة العيش والقول بالحق وغير ذلك من المحاسن[١٤٤] . روى عنه ابن المبارك وتفقه عليه ، وكان يقول : لولا أن الله تعالى أعانني بأبي حنيفة وسفيان كنت كسائر الناس[١٤٥] .

وكان ابن المبارك يعترف بعلمه وفضله ، ويشهد بتقدمه وبراعته ، ومن أقواله فيه : لا أعلم على وجه الأرض أعلم من سفيان[١٤٦] ، ويقول : كتبت عن ألف ومائة شيخ ما فيهم أفضل من سفيان[١٤٧] ، وكان يقول : كنت أقعد إلى سفيان الثوري ، فيحدث ، فأقول : ما بقي من علمه شيء إلا وقد سمعته ، ثم أقعد عنده مجلساً آخر فيحدث فأقول : ما سمعت من علمه شيئاً[١٤٨] . ويقول : كنت إذا أعياني الشيء أتيت سفيان أسأله فكأنما اغتمسه

---

(١٤٤) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٢٢٢) .

(١٤٥) قواعد في علوم الحديث ص ٣١٠ ـ ٣١١ .

(١٤٦) تذكرة الحفاظ (١ : ١٩١) .

(١٤٧) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٢٢٢) ، وتذكرة الحفاظ (١ : ١٩١) .

(١٤٨) تقدمة الجرح والتعديل ص ١١٥ .

من بحر ، وما نُعت لي أحد فرأيته إلا وجدته دون نعته إلا سفيان الثوري[١٤٩] . وقد قيل له مرة : من أئمة الناس ؟ فقال : سفيان وذووه[١٥٠] .

وكما كان يذكر من سعةعلمه ، ووفور فضله ، كان يذكر من عبادته وتشعّب ثقافته فيقول : كنت إذا شئت رأيت الثوري مصلياً ، وإن شئت رأيته محدّثاً ، وإن شئت رأيته في غامض الفقه[١٥١] .

٢ ـ مَالكُ بن أَنَس

هو الإمام الحافظ فقيه الأمة ، شيخ الاسلام ، وإمام دار الهجرة ، وأحد أئمة المذاهب المتبوعة ، وهو من تابعي التابعين ، وقد أجمعت طوائف العلماء على إمامته وجلالته وعظم سيادته ، والإذعان له في الحفظ والتثبت[١٥٢] . وقد قال الإمام الشافعي فيه : إذا ذكر العلماء فمالك النجم[١٥٣] .

---

(١٤٩) تقدمة الجرح والتعديل ص ٥٧ .

(١٥٠) حلية الأولياء (٨ : ١٦٨) .

(١٥١) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٢٢٣) .

(١٥٢) تذكرة الحفاظ (١ : ١٩٣) ، وتهذيب الأسماء واللغات (٢ : ٥٧) .

(١٥٣) تذكرة الحفاظ (٢ : ١٩٤) .

روى عنه ابن المبارك كتاب « الموطّأ » وتفقه عليه وأخذ من علمه كما بينا ذلك قبل قليل ، وقد ذكر ابن فرحون ترجمة ابن المبارك بين المالكية في كتابه « الديباج المذهّب في معرفة أعيان المذهب »(١٥٤) .

ويبدو أنه كان للإمام مالك مكانة عظيمة عند ابن المبارك ، حتى ليقول الشعر في مدحه والثناء عليه ، فمن قوله في وصف هيبته ووقاره :

يأبى الجوابَ فما يُراجَع هيبةً فالسائلون نواكس الأذقان
هَدْيُ الوقارِ وعز سلطانِ التقى
فهو المهيبُ وليس ذا سلطان (١٥٥)

وقد حكى عنه ابن المبارك من عظيم الصبر ، وعظيم الإجلال لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مايدهش العقل ، قال : كنت عند مالك فلدغته عقرب ست عشرة لدغة،فتغير لونه وتصبّر، ولم يقطع الحديث ، فلما فرغ سألته فقال : صبرت إجلالاً لحديث المصطفى صلى الله عليه وسلم(١٥٦) .

---

(١٥٤) الديباج المذهب ص ١٣١ .

(١٥٥) العقد الفريد (٢ : ٧٥ و ٢٧٢) . ونسبهما ابن فرحون في « الديباج المذهب » ص ٢٤ الى سفيان الثوري ، ونسبهما السيوطي في «تنوير الحوالك»ص٤ إلى «شاعر» فالله أعلم.

(١٥٦) فيض القدير (٣ : ٢٥٣) .

وقد حزن ابن المبارك لوفاة مالك رضي الله عنه ، وقال الشعر النفيس في رثائه ، مبيناً فضله الجم ، وعلمه الغزير ، فمن رثائه له قوله فيه :

صَموتٌ إذا ماالصمت زيّنَ أهلَه
وفتّـاقُ أبكـارِ الكـلامِ المختَّم
وعى ماوعى القرآنُ مـن كل حكمة
ونيطت له الآداب باللحم والدمِ[157]

وبالمقابل فقد كانت مكانة ابن المبارك عظيمة أيضاً عند مالك، وكان مالك يعترف بفقهه وعلمه ويسميه فقيه خراسان ، ويحترمه ويتزحزح له من مجلسه ، فعن يحيى بن يحيى الأندلسي قال : كنا في مجلس مالك ، فاستؤذن لابن المبارك فأذن له ، فرأينا مالكاً تزحزح له في مجلسه ، ثم أقعده بلصقه[158] ، ولم أره تزحزح لأحد في مجلسه غيره ، فكان القارىء يقرأ على مالك ، فربما مرّ بشيء فيسأله مالك : ما عندكم في هذا ؟ فكـان عبد الله يجيب بالخفاء . ثم قام فخرج ، فأعجب مالك بأدبه ، ثم قال لنا : هذا ابن المبارك فقيه خراسان[159] .

---

(١٥٧) العقد الفريد (٢ : ٧٦) وورد أيضاً في : عيون الأخبار (٢ : ١٧٧) .

(١٥٨) وهذا احترام كبير من الإمام الذي كان يهابه الأمراء ؛ حتى إن أحدهم ليرى المشي حافياً راجلاً من المدينة إلى مكة أهون عليه من المشي إلى باب مالك . انظر « مناقب الشافعي » ١/١٠٢ .

(١٥٩) تهذيب التهذيب (٥ : ٣٨٦) .

٣ ـ أبُوحَنيفَة

هو الإمام البارع النعمان بن ثابت بن زوطي ، إمام أصحاب الرأي ، وفقيه أهل العراق ، وأحد الأئمة المتبوعين ، كان في زمنه أربعة من الصحابة : أنس بن مالك ، وعبد الله بن أبي أوفى ، وسهل بن سعد ، وأبو الطفيل ، ولم يأخذ عن أحد منهم[١٦٠] . وهو الذي قال فيه الإمام الشافعي : الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة [١٦١] .

تفقه عليه ابن المبارك ، وأخذ عنه علماً جماً ، وإن الناظر في ترجمة ابن المبارك ليبدو له أنه كان من كبار تلامذته ، وأنه استفاد منه مالم يستفد من غيره ، ولذلك عده بعض العلماء في أول تلامذته ، فقد قال ابن حجر الهيتمي[١٦٢] ــ وهو يتحدث عن فضل أبي حنيفة ومكانته ــ : « وتلمذ له كبار من المشايخ الأئمة المجتهدين ، والعلماء الراسخين ، كالإمام الجليل المجمع على جلالته وبراعته وتقدمه وزهده عبد الله بن المبارك » ثم ذكر بعده عدداً من تلامذته . وقد ورد ذكره في كتاب (الجواهر المضية في طبقات الحنفية) وفي ذيله أيضاً ، وتُرجم له في كل من الكتابين ، وقد ذكر له صاحب الجواهر بعض المسائل الفقهية ، كان يفتي فيها برأي أبي حنيفة سنورد بعضها قريباً .

---

(١٦٠) تهذيب الأسماء واللغات (٢ : ٢١٦) .

(١٦١) تذكرة الحفاظ (١ : ١٦٠).

(١٦٢) الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ص ٦ .

وقد كان ابن المبارك شديد الإعجاب بعلم أستاذه أبي حنيفة، وعقله وتقواه ، ولذلك كان لايفتأ يذكر أبا حنيفة وفقهه وورعه ، وعقله وزهده ، وينافح عنه ويرد عنه أقوال المتحاملين والشانئين ، حتى قال يحيى بن معين : ما سمعت أحداً يصف أبا حنيفة ويذكره بمثل ما كان ابن المبارك يصفه ويذكره به من الخير(١٦٣) . وذلك أنه كان كثير التحدث عن أبي حنيفة ، فمن أقواله في فقهه :

« ما رأيت في الفقه مثل أبي حنيفة ، وما رأيت أحداً قط تكلم في الفقه أحسن من أبي حنيفة »(١٦٤) ، « كان أفقه الناس ، مارأيت في الفقه مثله » (١٦٥).وكان يقول : دخلت الكوفة فسألت علماءها وقلت : من أعلم الناس في بلدتكم هذه ؟ فقالوا كلهم : الإمام أبو حنيفة(١٦٦) .

وكان يقول في عقله : ما رأيت رجلاً أعقل منه(١٦٧) .

---

(١٦٣) الخيرات الحسان ص ٤١ .

(١٦٤) تهذيب الأسماء واللغات (٢ : ٢٢٠) .

(١٦٥) الخيرات الحسان ص ٢٩ ، وإنهاء السكن ص ٧٦ .

(١٦٦) إنهاء السكن ص ٧٦.

(١٦٧) الخيرات الحسان ص ٤١ .

ويقول في ورعه وثباته على الحق : ما رأيت أورع من أبي حنيفة ، قد جرب بالسياط والأموال[١٦٨] .

ويقول في زهده وتقواه وبعده عن الدنيا : قدمت الكوفة فسألت عن أزهد أهلها فقالوا : أبو حنيفة ... ما رأيت أحداً أورع منه ، ماتقدرون أن تقولوا في رجل عرضت عليه الأموال العظيمة فنبذها ، وضرب بالسياط ، فعَبَدَ على السراء والضراء ، ولم يدخل فيما كان غيره يطلبه ويتمناه ؟! [١٦٩] .

من هذه الأقوال المتعددة نعرف أن ابن المبارك كان يدرك فضل أبي حنيفة ويقدره حق قدره ، ويعترف بفضله عليه وأخذه الكثير من علمه ، فهو يقول : لولا أن الله تعالى أعانني بأبي حنيفة وسفيان كنت كسائر الناس [١٧٠] . بل يصل به الاعتراف بفضله عليه أن يقول : تعلمت ما عندي من الفقه منه[١٧١] .

وإن معرفة ابن المبارك الحقيقية لأبي حنيفة وعلمه ، وصلته الوثيقة به ، وأخذه العلم عنه ، كل ذلك جعل من ابن المبارك أكبر المناصرين لأبي حنيفة والمدافعين عنه ضد المتحاملين عليه ، والمتهمين

---

(١٦٨) تهذيب الأسماء واللغات (٢ : ٢٢١) .

(١٦٩) الخيرات الحسان ص ٣٩ .

(١٧٠) إنهاء السكن ص ٧٦ .

(١٧١) الخيرات الحسان ص ٣٣ .

له بما ليس فيه ، فقد ذُكر أبو حنيفة مرة عند ابن المبارك فقال : أتذكرون رجلاً عرضت عليه الدنيا بحذافيرها ففر منها ، وما خالط الظَلَمة مع سؤالهم له في ذلك وإلحاحهم عليه وتهديده إن لم يفعل ، وما قبل منهم شيئاً قط وإن قلّ (١٧٢) . وقال ابن المبارك مرة : كان أبو حنيفة آية . فقيل له : في الخير أم في الشر ؟ فقال : اسكت ياهذا، يقال: آية في الخير وغاية في الشر! ثم تلا: « وجعلنا ابن مريم وأمه آية » (١٧٣) .

وكان مع بعض أصحابه بالقادسية فجاءه رجل من أهل الكوفة فوقع في أبي حنيفة ، فقال له ابن المبارك: « ويحك أتقع في رجل صلى خمساً وأربعين سنة خمس صلوات على وضوء واحد ، وكان يجمع القرآن في ركعتين في ليــلة ، وتعلمت الفقه الذي عندي منه » (١٧٤) .

. وعن ابن المبارك أنه كان يحدث الناس فقال : حدثني النعمان ابن ثابت ، فقيل له : من تعني ؟ فقال : أبا حنيفة مخ العلم . فأمسك بعضهم عن أن يكتب ذلك الإملاء ، فسكت ابن المبارك هنيهة ثم قال : أيها الناس ما أسوأ أدبكم وأجهلكم بالأئمة ،

---

(١٧٢) الخيرات الحسان ص ٦ .

(١٧٣) تهذيب الأسماء واللغات (٢ : ٢١٩) .

(١٧٤) تاريخ بغداد ٣٥٥/١٣ .

وما أقلّ معرفتكم بالعلم وأهله ، ليس أحد أحقّ أن يُقتدى به من أبي حنيفة ؛ لأنه كان إماماً تقياً ، ورعاً عالماً ، فقيهاً ، كشف العلم كشفاً لم يكشفه أحد ببصر وفهم وفطنة وتقى ، ثم حلف أن لا يحدثهم شهراً (١٧٥) . وكان يقول : إن كان أحد ينبغي له أن يقول برأيه ؛ فأبو حنيفة ينبغي له أن يقول برأيه ، ويقول : إذا اجتمع سفيان وأبو حنيفة فمن يقوم لهما على فتيا (١٧٦) .

، فابن المبارك كما رأيت يدافع عن أستاذه دفاع عارف بعلمه ومكانته وفضله ، حتى يصل به الأمر إلى الغضب والامتناع عن التحديث من أجله ، وقد كان المتحاملون على أبي حنيفة يتهمونه بأنه لا يعرف الحديث ، فإذا بابن المبارك يقيم الدليل على خبرته بالحديث وعلله . ففي « الاختيار » (١٧٧) ، أن أبا حنيفة يقول بجواز بيع الرُّطَب بالرطب وبالتمر ، وقول الصاحبين أنه لايجوز واستدلا بجواب النبي صلى الله عليه وسلم لما سئل عن ذلك بقوله: « أَوَ يَنقص إذا جفّ ؟ قالوا : نعم . قال : لا إذن » . ورد أبو حنيفة الاستدلال بهذا الحديث لضعفه وأن مداره على زيد ابن أبي عياش . فيقول عبد الله بن المبارك تعليقاً على ذلك : كيف يقال: إنّ أبا حنيفة لا يعرف الحديث وقد عرف مثل هذا الإسناد؟!

---

(١٧٥) الخيرات الحسان ص ٢٩ .

(١٧٦) تاريخ بغداد (١٣ : ٣٤٣) .

(١٧٧) الاختيار (٢ : ٣٢) .

وكذلك كانوا يتهمونه بالقول بخلق القرآن،فإذا بابن المبارك يقيم الحجة على كذب ذلك فيقول : ذكر جَهْم" في مجلس أبي حنيفة فقال : ما يقول ؟ قالوا : يقول القرآن مخلوق ، فقال : «كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا» . وكان ابن المبارك يقسم ويقول : والله مامات أبو حنيفة وهو يقول بخلق القرآن ولا يدين الله به[١٧٨] . وقيل لابن المبارك : فلان يتكلم في ابي حنيفة ، فأنشد :

حَسَدوكَ إذا ما فَضّلكَ الله بما فُضِّلَتْ به النجباء.[١٧٩]

وروي عن عبد الله بن المبارك أنه قال : قدمت الشام على الأوزاعي فرأيته ببيروت ، فقال لي : ياخراساني من هذا المبتدع الذي خرج بالكوفة يكنى أبا حنيفة ؟ فرجعت إلى بيتي فأقبلت على كتب أبي حنيفة ، فأخرجت منها مسائل من جياد المسائل ، وبقيت في ذلك ثلاثة أيام ، فجئت اليوم الثالث ــ وهو مؤذن مسجدهم وإمامهم ، والكتاب في يدي ــ فقال : أي شيء هذا الكتاب ؟ فناولته ، فنظر في مسألة منها وقّعْتُ عليها : قال النعمان فما زال قائماً بعد ما أذن حتى قرأ صدراً من الكتاب ، ثم وضع

---

(١٧٨) من تعليق العلامة الشيخ زاهد الكوثري على كتاب « الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة » لابن قتيبة الدينوري ص ٥٩ .

(١٧٩) الخيرات الحسان ص ٤٤ .

الكتاب في كمه ، ثم أقام وصلى ، ثـم أخرج الكتاب حتى أتى عليها . فقال لي : ياخراساني من النعمان بن ثابت هذا ؟ قلت : شيخ لقيته بالعراق ، فقال : هذا نبيل في المشايخ ، اذهب فاستكثر منه ، قلت : هذا أبو حنيفة الذي نهيت عنه[١٨٠] .

وكان هذا الدفاع من ابن المبارك دفاع المنصف الذي عرف الحق وجهله الناس ، فقد عرفه ابن المبارك أفقهَ الناس ، وأورعَ الناس ، وأعقلَ الناس ، وأزهدَ الناس ، وأبصرهم بالعـلم ، وأنفذهم نظراً ، وأدقهم فهماً ، وأسدهم رأياً ، ولذلك كان أحياناً يفتي برأي أبي حنيفة إذا سئل . وإليك بعض الأمثلة :

ــ قال ابن وهب : سئل عبد الله بن المبارك عن أكل لحم العَـقْـعَق[١٨١] ، فقال : كرهه أبو حنيفة[١٨٢] .

---

(١٨٠) تاريخ بغداد (١٣ : ٣٣٨) .

قلت : وفي تاريخ بغداد في ترجمـة أبي حنيفة أقوال كثيرة لابن المبارك في ذم أبي حنيفة رضي الله عنه ، والتبرؤ منه ، والطعن في اجتهاده ، وعلمه ، ورأيه ، وحديثه ، ولكن هذه الأقوال مثل أقوال كثير من الأئمة غير ابن المبارك التي ساقها الخطيب في الطعن في أبي حنيفة ، وقد أسرف في ذلك عفا الله عنه ، فإن لأبي حنيفة بحاراً من الفضائل يغرق فيها كل ما قيل فيه ، وقد أشبع غير واحد من الأئمة الكلام في الرد عليه إشباعاً بالغاً .

(١٨١) العقعق : اتفق الشافعية والحنابلة على تحريم أكله ، والمراد من قوله « كرهه ابو حنيفة » الكراهة التحريمية .

(١٨٢) الجواهر المضية (١ : ٢٨١) .

ـ وسئل عن وقت العشاء الآخرة فذكر عن أبي حنيفة : حتى يصبح[١٨٣] .

ـ وقد كان ابن المبارك إذا تردد في مسألة سأل عنها أبا حنيفة ، فقد سأله عن درهمين لرجل اختلطا بدرهم لآخر ، ثم ضاع منهما اثنان لا يعلم من أيهما . فقال : الدرهم الباقي لهما أثلاثا[١٨٤] .

ـ وسأله عمن وقع في قدر طبيخه طائر فمات ، فقال لأصحابه : ماترون ؟ فرووا له عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه يهراق المرق ويغسل اللحم ويؤكل . فقال : هذا إن وقع في حال سكونها ، فإن وقع في حال غليانها ألقي اللحم . فقال له ابن المبارك : لمَ ؟ قال : لوصول النجس إلى باطنه بخلاف الأول لأنه إنما وصل إلى ظاهره فقط ، فأعجبه ذلك[١٨٥] .

ويظهر مما ذكرنا أن ابن المبارك كانت صلته بأبي حنيفة قوية وطويلة ،وأنه أخذ عنه فقهاً واسعاً لم يأخذ مثله عن غيره ممن تفقه عليهم،وربما سمع منه المسألة ولم يسمعها أصحابه المشهورون فيكتبونها عنه عن أبي حنيفة .

---

(١٨٣) الجواهر المضية .

(١٨٤) الخيرات الحسان ص ٤٤ .

(١٨٥) المرجع السابق ص ٤٧ .

حدّث أبو سليمان قال : سمعت ابن المبارك يقول : سألت أبا حنيفة رضي الله عنه عن الرجل يبعث بزكاة ماله من بلد إلى بلد آخر ، فقال : لا بأس بأن يبعثها من بلد إلى بلد آخر لذي قرابته ، فحدثت بهذا محمد بن الحسن فقال : هذا حسن ، وهذا قول أبي حنيفة وليس لنا في هذا سماع عن أبي حنيفة رضي الله عنه .

قال أبو سليمان : فكتبه عني محمد بن الحسن عن ابن المبارك عن أبي حنيفة(١٨٦) .

قال إسحاق بن راهويه: عمدت إلى كتب عبد الله بن المبارك، واستخرجت منها ما يوافق رأي أبي حنيفة من الأحاديث ، فبلغت نحواً من ثلاثمائة حديث(١٨٧) .

وقد أطلنا بعض الشيء في بحث صلته بأبي حنيفة لان صلته به كانت أوثق وأطول ، وتفقهه عليه كان أكثر وأظهر كما رأيت .

بَعضُ آرائـهِ في الفِـقهِ

كانت الصبغة العامة للفقه في عصر ابن المبارك أنه كان يعتمد على الاجتهاد والرأي الحر ، فكل عالم كان يفتي بما يهديه إليه اجتهاده ، بعد البحث والنظر ، فإذا تبين له فيما بعد خطؤه رجع

---

(١٨٦) الجواهر المضية (١ : ٢٨١) .

(١٨٧) الورع ص ٧٤ .

عنه إلى الصواب ، وله الأجر على كل حال ، إن أخطأ فله أجر الاجتهاد ، وإن أصاب فله أجر الاجتهاد وأجر الإصابة • وقد كان الإمام ابن المبارك واحداً من أولئك الأئمة المجتهدين والعلماء الراسخين الذين ضمهم ذلك العصر العلمي الزاهر ، وقد سبق قول أبي إسحاق الفزاري : ابن المبارك إمام المسلمين أجمعين • وقول أسود بن سالم : كان ابن المبارك إماماً يقتدى به• كما سبق وصف العلماء له بفقيه العرب ، وفقيه أهل المشرق والمغرب •

وقد جمع ذلك العصر عدداً من الأئمة الأعلام : كالإمام مالك ابن أنس ، والإمام أبي حنيفة ، والإمام سفيان الثوري ، والإمام الليث بن سعد ، والإمام الأوزاعي وغيرهم من فقهاء ذلك العصر ، وقد كان ابن المبارك يعد مع هؤلاء الجبال في العلم والأئمة فيه •

وأكثر من نقل عنه آراءه الفقهية الإمام الترمذي في كتابه السنن • وفيما يلي نورد طرفاً من آرائه الفقهية التي حكاها عنه الفقهاء ، مرتبة حسب الأبواب الفقهية ، مع ذكر من قال بقوله في أغلب الأحيان ، ومع ذكر من قال بغير قوله أحياناً •

بابُ الطّهَارَة

الاستنجاء :

الاستنجاء بالحجارة يجزىء وإن لم يستنج بالماء إذا أنقى أثر الغائط والبول •

وهو قول أكثر أهل العلم من الصحابة ومن بعدهم ، وبه يقول الثوري والشافعي وأحمد وإسحاق[188] .

يستحب الاستنجاء بالماء وهو أفضل .

وعليه العمل عند أهل العلم ، وبه يقول الثوري والشافعي وأحمد وإسحاق[189] .

البول في مكان الغسل :

قال ابن المبارك : قد وسّع في البول في المغتسل إذا جرى فيه الماء[190] .

المضمضة والاستنشاق :

إذا تركهما في الوضوء حتى صلى أعاد الصلاة ، وذلك في الوضوء والجنابة سواء .

وبه يقول ابن أبي ليلى وأحمد وإسحاق[191] .

---

(١٨٨) سنن الترمذي (١ : ٢٨) طبع بحمص بإشراف عزت عبيد الدعاس .

(١٨٩) المرجع السابق (١ : ٣١) .

(١٩٠) المرجع السابق (١ : ٣٣) . والمغتسل : هو المكان الذي يغتسل فيه .

(١٩١) المرجع السابق (١ : ٣٨) .

مسح الراس :

مسح الرأس مرة واحدة .

والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من الصحابة ومن بعدهم ، وبه يقول جعفر بن محمد ، وسفيان الثوري ، والشافعي، وأحمد وإسحاق[١٩٢] .

المسح على العمامة :

لا يجوز الاقتصار على مسح العمامة في الوضوء ؛ إلا أن يمسح برأسه مع العمامة ، لأن الله فرض المسح على الرأس ، والحديث في العمامة محتمل التأويل ، فلا يترك المتيقن للمحتمل ، والمسح على العمامة ليس بمسح على الرأس .

وهو قول سفيان الثوري ، ومالك بن أنس ، والشافعي ، وإليه ذهب أيضاً أبو حنيفة[١٩٣] .

إذا زاد في الوضوء على الثلاث :

قال ابن المبارك : لا آمن إذا زاد في الوضوء على الثلاث أن يأثم[١٩٤] .

---

(١٩٢) سنن الترمذي (١ : ٤٤) . والمشهور من مذهب الإمام الشافعي أنه يستحب مسح الرأس ثلاثاً .

(١٩٣) نيل الأوطار للشوكاني (١ : ١٨٣) .

(١٩٤) سنن الترمذي (١ : ٥٢) .

الشك في الحدث :

قال ابن المبارك : إذا شك في الحدث فإنه لايجب عليه الوضوء حتى يستيقن استيقاناً يقدر أن يحلف عليه[١٩٥] .

النـوم :

لا يجب على النائم الوضوء إذا نام قاعداً أو قائماً حتى ينام مضطجعاً .

وهو قول الثوري وأحمد . وسئل عبد الله بن المبارك عمن نام قاعداً معتمداً ؟ فقال : لا وضوء عليه [١٩٦] .

القيء والرعاف :

يرى ابن المبارك الوضوء من القيء والرعاف .

وهو قول سفيان الثوري وأحمد وإسحاق[١٩٧].

المسح على الخفين :

ـ مشروعية المسح .

قال ابن المبارك : ليس في المسح على الخفين عن الصحابة اختلاف[١٩٨] .

---

(١٩٥) سنن الترمذي (١ : ٨١) .

(١٩٦) المرجع السابق (١ : ٨٣) .

(١٩٧) المرجع السابق (١ : ٩٦) .

(١٩٨) نيل الأوطار (١ : ١٩٦) .

ـ مدة المسح :

يمسح المقيم يوماً وليلة ، والمسافر ثلاثة أيام ولياليهن .

وهو قول أكثر العلماء مثل سفيان الثوري والشافعي وأحمد وإسحاق [199] .

ـ محل المسح :

يمسح ظهور الخفين وبطونهما . وذهب إلى ذلك مالك والشافعي وأصحابهما والزهري ، وروي عن سعد بن أبي وقاص وعمر بن عبد العزيز [200] .

المسح على الجوربين :

يمسح على الجوربين وإن لم تكن نعلين إذا كانا ثخينين .

وهو قول غير واحد من أهل العلم . وبه يقول سفيان الثوري والشافعي وأحمد وإسحاق [201] .

---

(١٩٩) سنن الترمذي (١ : ١٠٨) .

(٢٠٠) نيل الأوطار (١ : ٢٠٤) .

(٢٠١) سنن الترمذي (١ : ١١٢) . وقال النووي في المجموع (١/٤٩٩) : الصحيح من مذهب الشافعي أن الجورب إن كان صفيقاً ــ قوياً متيناً ــ يمكن متابعة المشي عليه جاز المسح عليه وإلا فلا .

المستحاضة :

المستحاضة إذا جاوزت أيام أقرائها اغتسلت وتوضأت لكل صلاة •

وبه يقول الثوري ومالك والشافعي[٢٠٢] •

الجنب والحائض :

لا تقرأ الحائض ولا الجنب من القرآن شيئاً إلا طرف الآية والحرف ونحو ذلك ، ويرخّص للجنب والحائض في التسبيح والتهليل •

وهو قول أكثر أهل العلم مثل الثوري والشافعي وأحمد وإسحاق[٢٠٣] •

الصلاة بثوب عليه دم :

إذا كان الدم أكثر من قدر الدرهم أعاد الصلاة •

وهو قول الثوري[٢٠٤] •

النفساء :

أجمع أهل العلم على أن النفساء تدع الصلاة أربعين يوماً ؛

---

(٢٠٢) سنن الترمذي (١ : ١٤٦) •

(٢٠٣) المرجع السابق (١ : ١٥٨) •

(٢٠٤) المرجع السابق (١ : ١٦٨) •

إلا أن ترى الطهر قبل ذلك فإنها تغتسل وتصلي ، فإذا رأت الدم بعد الأربعين فإن أكثر أهل العلم قالوا : لا تدع الصلاة بعد الأربعين.

وهو قول أكثر الفقهاء . وبه يقول الثوري ، والشافعي ، وأحمد ، وإسحاق(٢٠٥) .

التيمم :

التيمم ضربة للوجه وضربة لليدين إلى المرفقين .

وبه يقول الثوري ومالك والشافعي(٢٠٦) .

باب الصلاة

تارك الصلاة (٢٠٧) :

لا خلاف بين المسلمين في كفر من ترك الصلاة منكراً لوجوبها،

---

(٢٠٥) سنن الترمذي (١ : ١٧٠) ، ونسبة هذا القول للإمام الشافعي استغربها النووي في المجموع وقال (٢ : ٥٢٢) : حكى ابو عيسى الترمذي في جامعه عن الشافعي انه قال : اكثره اربعون يوماً ، وهذا عجيب ، والمعروف في المذهب ان اكثره ستون يوماً .

(٢٠٦) سنن الترمذي (١ : ١٧٨) .

(٢٠٧) انظر البحث مفصلاً في نيل الأوطار (١ : ٣١٥) ، والكبائر للذهبي ، وجامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي .

إلا أن يكون قريب عهد بالاسلام ، أو لم يخالط المسلمين مدة يبلغه فيها وجوب الصلاة . وإن كان تركها تكاسلاً مع اعتقاده لوجوبها كما هو حال كثير من الناس من مسلمي هذا الزمان ، فقد اختلف الأئمة في ذلك .

ـ فذهب عبد الله بن المبارك إلى أنه يكفر .

وهو قول إبراهيم النخعي ، وأيوب السختياني ، وأحمد ابن حنبل ، وإسحاق بن راهويه ، وهو وجه لبعض أصحاب الشافعي ، وهو مروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

وهؤلاء جعلوا ترك الصلاة كفراً تمسكاً بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة » وبقوله : « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر » وبغير ذلك من الأحاديث الكثيرة .

ـ وذهب الشافعي ومالك والجمهور إلى أنه لايكفر وإنما يفسق ، فإن تاب وإلاقتِل حداً بالسيف .

ـ وذهب أبو حنيفة وجماعة من أهل الكوفة والمزني صاحب الشافعي إلى أنه يعزّر بالحبس حتى يصلي .

ولكل من المذاهب أدلته ، وقد رجّح الشوكاني أنه كافر يقتل لأن الأحاديث قد صحت أن الشارع سمّى تارك الصلاة بذلك الاسم .

وقد سردنا آراء الأئمة في حكم هذه المسألة ؛ ليعلم تاركو الصلاة أنهم على خطر عظيم ، حتى على رأي أرحم الأئمة بهم ، لعل حجاب الغفلة واللامبالاة ينكشف عن بصائرهم فيعاودون النظر في أمر دينهم ، ويعلمون أن الصلاة التي ينظر إليها بعض عميان البصائر كرمز للجمود والرجعية، هي عمود الدين، والحقيقة الأولى من حقائق الاسلام •

النوم قبل صلاة العشاء :

قال ابن المبارك : أكثر الأحاديث على الكراهية •

وعلى ذلك أكثر أهل العلم • والعلة في الكراهية : لئلايذهب النوم بصاحبه ويستغرقه ، فتفوته الصلاة أو وقتها المستحب ، أو يترخص الناس في ذلك فينامون عن إقامة جماعتها[٢٠٨] •

الفاظ الاقامة :

ألفاظ الإقامة مثل الأذان مع زيادة (قد قامت الصلاة) مرتين •

وهو قول الحنفية والثوري وأهل الكوفة[٢٠٩] •

---

(٢٠٨) نيل الأوطار (٢ : ١٥) •

(٢٠٩) المرجع السابق (٢ : ٤٣) •

حكم تكرار الجماعة في المسجد :

إذا أرادوا الصلاة في مسجد قد صُلِّيَ فيه جماعة يصلون فرادى .

وبه يقول سفيان ومالك والشافعي(٢١٠) .

الصلاة خلف الصف :

يجزئه إذا صلى خلف الصف وحده .

وهو قول الثوري والشافعي(٢١١) .

---

(٢١٠) نيل الأوطار (٢ : ١٦١) ، وحكم تكرار الجماعة في المسجد الواحد جائز عند الشافعية من غير كراهة إذا كان المسجد مطروقاً ــ كالأموي مثلاً ــ أو ليس له إمام راتب ، أو له وضاق المسجد عن الجميع . وعند الحنفية : يجوز تكرار الجماعة من غير كراهة بشرط الا تكون الثانية مثل الأولى في هيئتها ، فلو تغير مكان وقوف الإمام الثاني عن مكان الأول ، أو صليت الأولى في المحراب والثانية في مكان آخر لكفى وارتفعت الكراهة . وهذا كله إذا كان تكرار الجماعة في مسجد الحي ــ وهو ماله إمام وجماعة معينون ــ أما في مساجد الطرق التي يدخل عليها كل مار فجائز كيفما كان دون كراهة ، كما في الفقه على المذاهب الأربعة .

(٢١١) سنن الترمذي (١ : ٣٠٥) . وصلاته صحيحة مع الكراهة عند الشافعية كما في المجموع (٤ : ٢٩٨) .

بسم الله الرحمن الرحيم :

هي آية من الفاتحة ومن كل سورة غير براءة .

وذهب إلى هذا القول ابن عباس ، وابن عمر ، وابن الزبير ، ومكحول ، وطاووس ، وعطاء ، وطائفة[٢١٢] .

قراءة الفاتحة في الصلاة :

لا تجزىء صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب .

والعمل عليه عند أكثر أهل العلم من الصحابة : منهم عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وجابر بن عبد الله ، وعمران بن حصين ، وغيرهم .

وبه يقول الشافعي وأحمد وإسحاق[٢١٣] .

رفع اليدين عند الركوع :

قال ابن المبارك : قد ثبت حديث من يرفع يديه ، وذكر حديث الزهري عن سالم عن أبيه ...

وبه يقول مالك ، ومعمر ، والأوزاعي ، وابن عيينة ، والشافعي ، وأحمد ، وإسحاق[٢١٤] .

---

(٢١٢) نيل الأوطار (٢ : ٢٠٨) .

(٢١٣) سنن الترمذي (١ : ٣٣٢) .

(٢١٤) المرجع السابق (١ : ٣٤٥) .

القراءة خلف الامام

يرى ابن المبارك القراءة خلف الإمام عملاً بالحديث المتفق عليه « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » .

وهو قول مالك والشافعي وأحمد وإسحاق[٢١٥] ، وروي عن عبد الله بن المبارك أنه قال : أنا أقرأ خلف الإمام والناس يقرؤون إلاقوماً من الكوفيين ، وأرى أن من لم يقرأ صلاته جائزة[٢١٦] .

استقبال القبلة

قال ابن المبارك : ما بين المشرق والمغرب قبلة . واختار عبد الله بن المبارك التياسر لأهل مرو[٢١٧] .

من صلى في الغيم لغير قبلة

إذا صلى في الغيم لغير القبلة ، ثم استبان له بعدما صلى أنه صلى لغير القبلة فإن صلاته جائزة .

وبه يقول الثوري وأحمد وإسحاق[٢١٨] .

---

(٢١٥) سنن الترمذي (١ : ٤١٩) .

(٢١٦) المرجع السابق (١ : ٤٣٤) .

(٢١٧) المرجع السابق (٢ : ٤١) ، ونيل الأوطار (٢ : ١٧٦) .

(٢١٨) سنن الترمذي (٣ : ٤٣) .

إذا صلى الإمام قاعداً

إذا صلى الإمام جالساً لم يصل من خلفه إلا قياماً ، فإن صلّوا قعوداً لم تُجْزِهم •

وهو قول سفيان الثوري ومالك بن أنس والشافعي[٢١٩] •

القنوت في الفجر

لم ير ابن المبارك القنوت في الفجر [٢٢٠] •

الكلام في الصلاة

إذا تكلم الرجل عامداً في الصلاة أو ناسياً أعاد الصلاة •

وهو قول سفيان الثوري وأهل الكوفة [٢٢١] •

من فاتته الركعتان قبل الفجر

لم ير ابن المبارك بأساً أن يصلي الرجل الركعتين بعد المكتوبة قبل أن تطلع الشمس •

وبه يقول سفيان الثوري والشافعي وأحمد وإسحاق[٢٢٢] •

---

(٢١٩) سنن الترمذي (٢ : ٦١) .

(٢٢٠) المرجع السابق (٢ : ١٢٠) .

(٢٢١) المرجع السابق (٢ : ١٢٣) .

(٢٢٢) المرجع السابق (٢ : ١٤٩) .

القنوت في الوتر

يقنت قبل الركوع في الوتر في السنة كلها .

وهذا رأي عبد الله بن مسعود ، وبه يقول سفيان الثوري وإسحاق وأهل الكوفة (٢٢٣) .

لاوتران في ليلة

إذا أوتر من أول الليل ثم نام ، ثم قام من آخر الليل ، فإنه يصلي ما بدا له ولا ينقض وتره ، ويدع وتره على ما كان .

وهو قول الثوري ، ومالك ، والشافعي ، وأهل الكوفة وأحمد (٢٢٤) .

من أدرك من الجمعة ركعة

من أدرك ركعة من الجمعة صلّى إليها أخرى ، ومن أدركهم جلوساً صلى أربعاً .

وبه يقول الثوري ، والشافعي ، وأحمد ، وإسحاق (٢٢٥) .

---

(٢٢٣) سنن الترمذي (٢ : ١٨٥) .

(٢٢٤) المرجع السابق (٢ : ١٨٩) .

(٢٢٥) المرجع السابق (٢ : ٢٥٩)، يعني يتمها اربعاً وتحسب ظهراً وإن نوى الجمعة اول الصلاة .

خروج النساء في العيدين إلى المصلى

كرهه ابن المبارك ، وقد حكاه الترمذي عن الثوري ، وهو قول مالك وأبي يوسف [٢٢٦] ، وروي عن عبد الله بن المبارك أنه قال : أكره اليوم الخروج للنساء في العيدين ، فإن أبت المرأة إلا أن تخرج ، فليأذن لها زوجها أن تخرج في أطمارها الخلقان ، ولا تتزين ، فإن أبت أن تخرج كذلك فللزوج أن يمنعها عن الخروج [٢٢٧] .

باب الزكاة

زكاة الحلي

في الحلي زكاة ، ما كان منه ذهباً وفضة .

وهو رأي بعض أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والتابعين .

وبه يقول سفيان الثوري [٢٢٨] .

زكاة مال اليتيم

ليس في مال اليتيم زكاة .

---

(٢٢٦) نيل الأوطار (٣ : ٣٠٦) ، وفيه تفصيل آراء الأئمة في ذلك .

(٢٢٧) سنن الترمذي (٢ : ٢٨٠) .

(٢٢٨) المرجع السابق (٢ : ٤٠٠) .

وبه يقول سفيان الثوري أيضاً [٢٢٩] .

المالك الذي عليه ديون

المالك الذي عليه ديون تستغرق أمواله أو ما تجب فيه الزكاة من أمواله ، وبيده مال تجب فيه الزكاة ، قال : لازكاة في مال حياً كان أو غيره ، حتى تخرج منه الديون ، فإن بقي ماتجب فيه الزكاة زكى وإلا فلا .

وهو قول الثوري ، وأبي ثور ، وجماعة [٢٣٠] .

ما تخرجه الأرض المستأجرة

الزكاة على صاحب الزرع .

وهو قول مالك ، والشافعي ، والثوري ، وأبي ثور ، وجماعة [٢٣١] .

من تحل له الزكاة

إذا كان عند الرجل خمسون درهماً لم تحل له الصدقة .

وبه يقول الثوري وأحمد وإسحاق [٢٣٢] .

---

(٢٢٩) سنن الترمذي (٢ : ٤٠٥) .

(٢٣٠) بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد (١ : ٢٤٦).

(٢٣١) المرجع السابق (١ : ٢٤٧) .

(٢٣٢) سنن الترمذي (٣ : ١٣) .

صدقة الفطر

من كل شيء صاع ؛ إلا من البر فإنه يجزىء نصف صاع . وهو قول سفيان الثوري [٢٣٣] .

باب الصيام

صوم يوم الشك

يكره أن يصوم الرجل اليوم الذي يشك فيه .

وبه يقول سفيان الثوري ، ومالك بن أنس ، والشافعي ، وأحمد ، وإسحاق . ورأي أكثرهم : إن صامه فكان من شهر رمضان أن يقضي يوماً مكانه [٢٣٤] .

الشهادة في الصوم

تقبل شهادة رجل واحد في الصيام .

وبه يقول الشافعي ، وأحمد ، وأهل الكوفة [٢٣٥] .

صوم شعبان

ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يصوم من السنة

---

(٢٣٣) سنن الترمذي (٣ : ٣٤) .

(٢٣٤) المرجع السابق (٣ : ٤٦) .

(٢٣٥) المرجع السابق (٣ : ٥٠) .

شهراً تاماً إلا شعبان يصل به رمضان • وورد أنه كان يصومه إلا قليلاً •

قال ابن المبارك : جائز في كلام العرب إذا صام أكثر الشهر أن يقال : صام الشهر كله • ويقال : قام فلان ليلته أجمع ، ولعله قد تعشى واشتغل ببعض أمره • قال الترمذي : كأن ابن المبارك جمع بين الحديثين بذلك(٢٣٦) •

صيام المسافر

قال ابن المبارك : إن وجد قوة فصام فحسن ، وهو أفضل •

وهو قول سفيان الثوري ومالك بن أنس •

وقال الشافعي : وإنما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم « ليس من البر الصيام في السفر » وقوله ـ حين بلغه أن ناساً صاموا فقال ـ : « أولئك العصاة » فوجه هـذا إذا لم يحتمل قلبه قبولَ رخصة الله ، فأما من رأى الفطر مباحاً وصام وقوي على ذلك فهو أعجب إلي"(٢٣٧) •

الكحل للصائم

اختلف أهل العلم في الكحل للصائم : فكرهه بعضهم ،

---

(٢٣٦) نيل الأوطار (٤ : ٢٥٩) .

(٢٣٧) سنن الترمذي (٣ : ٦٣) .

وهو قول سفيان وابن المبارك وأحمد وإسحاق . ورخص بعض أهل العلم في الكحل للصائم . وهو قول الشافعي[٢٣٨] .

قيام رمضان

هو عشرون ركعة . وهو قول الثوري والشافعي ، وعليه أكثر أهل العلم ، وقد رُوي عن عمر وعلي وغيرهما من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم[٢٣٩] .

الحج عن الغير

يجوز الحج عن الميت ، وعن الحي إذا كان كبيراً ، أو بحال لا يقدر أن يحج .

وهو قول الشافعي أيضاً[٢٤٠] .

كتاب الجنائز

ما يستحب من الأكفان

قال ابن المبارك : أحب إليّ أن يكفّن في ثيابه التي كان يصلي فيها[٢٤١] .

---

(٢٣٨) سنن الترمذي (٣ : ٧٨) .

(٢٣٩) المرجع السابق (٣ : ١٤٨) .

(٢٤٠) المرجع السابق (٣ : ٢٩٥) .

(٢٤١) المرجع السابق (٣ : ٣٧٦) .

البكاء على الميت

قال ابن المبارك : أرجو إن كان ينهاهم في حياته، أن لا يكون عليه من ذلك شيء[٢٤٢] .

البُيُوع

من باع شيئاً ممن تكره معاملته لشبهة ماله أو لبدعته

قال ابن المبارك : يتصدق بالربح خاصة[٢٤٣] .

متى يكون اللزوم في البيع ؟

البيع لازم بالافتراق من المجلس ، وإنهما مهما لم يفترقا فليس يلزم البيع ولا ينعقد ، قال به ابن المبارك .

وهو قول الشافعي ، وأحمد ، وإسحاق ، وأبي ثور ، وداود ، وابن عمر من الصحابة رضي الله عنهم[٢٤٤] .

---

(٢٤٢) سنن الترمذي (٣ : ٣٨٣) .

(٢٤٣) جامع العلوم والحكم ص ٩٠ ، وفي «الورع» : ان الثوري وابن المبارك اختلفا في رجل خلف متاعه عند غلامه فباع ثوباً ممن تكره مبايعته ، فقال الثوري : يخرج قيمة الثوب . وقال ابن المبارك : يتصدق بالربح . فقال الرجل : ما أجد قلبي يسكن إلا إلى ان اتصدق بالكيس ـ وقد كان القى الدراهم في الكيس ـ فقال ابو عبد الله احمد بن حنبل : بارك الله فيه. من كتاب الورع ص١٦ .

قلت : هذا تدين وورع عوام ذلك العصر ، فتدبر !!

(٢٤٤) بداية المجتهد (٢ : ١٧٠) .

الأضحية

قال ابن المبارك : لاتجزىء الأضحية إلا عن نفس واحدة(٢٤٥) .

تقسيم الغنيمة

للفارس ثلاثة أسهم : سهم له ، وسهمان لفرسه . وللراجل سهم .

وهو قول سفيان الثوري ، والأوزاعي ، ومالك بن أنس ، والشافعي ، وأحمد ، وإسحاق(٢٤٦) .

علوم أخرى

ومع هذه المكانة السابقة التي رأيت ، فلم يكن ابن المبارك رضي الله عنه محدثاً فقط ، ولا فقيهاً فقط ، ولكنه كان جامعة علمية واسعة ، وقد رأيت فيما سبق أنه كان جامعاً لأنواع العلوم والمعارف ، فهو في الحديث طبيب ، وفي الفقه إمام ، وهو فوق ذلك : أديب،وشاعر ،ولغوي،ومفسِّر ،ومؤرخ،ونَحْوِيّ ...

وإن كنا قد خصصنا حديثه وفقهه بالبحث ، فذلك لأنهما

---

(٢٤٥) سنن الترمذي (٥ : ٢١٩) ، والمراد بالأضحية هنا الشاة .

(٢٤٦) المرجع السابق (٥ : ٢٧٥) .

أهم العلوم ، وغيرهما تابع لهما . وسنرى فيما بعد نماذج من شعره الرائق ، وأمثلة من حكمه البليغة المؤثرة .

منهجه العلمي

منهج ابن المبارك العلمي يتميز بسمات التحري والتمحيص والدقة العلمية في كل شيء ، ويمكننا أن نجمل منهجه العلمي وما يتميز به في خمس مزايا :

الأولى ـ تشدده في التحري والتثبت :

فمع ماكان عليه ابن المبارك من الحفظ والضبط والتثبت كان يرى أن لا يعتمد على حفظه ، وأن لا يحدث إلا من كتاب ، فكان يحدث من كتبه التي بلغت عشرين ألفاً أو واحداً وعشرين ألفاً . وعن هذا يقول فيه إمام أهل السنة أحمد بن حنبل : جمع أمراً عظيماً ، ما كان أحد أقلّ سقطاً منه ، كان رجلاً صاحب حديث حافظاً ، وكان يحدث من كتاب(٢٤٧) .

وكان رضي الله عنه شديد التمحيص في الرجال ، لا يروي إلا عن الثقات إذا رووا عن الثقات ، وقد سبق أنه حمل عن أربعة آلاف شيخ فلم يحدث إلا عن ألف منهم ، وقد سئل مرة عمن نأخذ ؟ فقال : من طلب العلم لله .

---

(٢٤٧) تهذيب التهذيب (٥ : ٣٨٤) .

وكان في إسناده أشد ، قد يلقى الرجل ثقة وهو يحدث عن غير ثقة ، ويلقى الرجل غير ثقة وهو يحدث عن ثقة ، ولكن ينبغي أن يكون ثقة عن ثقة(٢٤٨) .

وكان يقول : ليس جودة الحديث قرب الاسناد ، جودة الحديث صحة الرجال (٢٤٩) .

وقد قيل له مرة في التشدد في سند الحديث : الرجل يطلب الحديث لله فيشتد في سنده ؟! فقال : إذا كان يطلب الحديث لله فهو أولى أن يشتد في سنده(٢٥٠) .

وعن أبي إسحاق الطالقاني قال: سألت ابن المبارك عن حديث لإبراهيم الخوزي فأبى أن يحدثني به ، فقال له عبد العزيز بن أبي رزمة : حدثه يا أبا عبد الرحمن ، فقال : تأمرني أن أعود في ذنب قد تبت منه(٢٥١) . وسأله الحسن بن عيسى عن رجل فقال : « قد عرفته » وكان إذا قال : « قد عرفته » فقد أهلكه(٢٥٢) .

---

(٢٤٨) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٥) .

(٢٤٩) ادب الإملاء والاستملاء ص ٥٧ .

(٢٥٠) حلية الأولياء (٨ : ١٦٦) .

(٢٥١) تهذيب التهذيب (١ : ١٨٠) .

(٢٥٢) المرجع السابق (٦ : ٣١٧) . وهذه الكلمة اصطلاح لطيف لابن المبارك في الجرح .

وقال ابن المبارك في عبد الله بن شبرمة : جالسته حيناً ولا أروي عنه[٢٥٣] . وقد أراد أن يأتي أبا منيب العتكي المروزي ، فأخبر أنه روى عن عكرمة قال : لا يجمع الخراج والعشر ، فلم يأته[٢٥٤] .

وذكر له رجل ممن كان يدلس فقال فيه قولاً شديداً ، وأنشد فيه :

دلّس للناس أحاديثه والله لايقبل تدليسا[٢٥٥]

وذلك لأنه من تمام تشدده في التثبت كان لايرى الاشتغال بكتابة أحاديث الضعفاء ، وكان يقول : لنا في صحيح الحديث شغل عن سقيمه . وهذه نظرة سديدة إذ أن من يشتغل بكتابة أحاديث الضعفاء أقل ما يفوته أن يفوته من حديث الثقات بقدر ما كتب من حديث أهل الضعف ، كما يقول ابن مهدي [٢٥٦] .

وعلى العكس من ذلك فقد كان يتتبع أحاديث الثقات ويجمع متفرقاتها ، حدث بقيّةُ قال : قال لي ابن المبارك : أخرج لي حديث ثابت بن عجلان . قلت : إنها متفرقة . قال : اجمعها لي . فجعلت أتذكرها وأملي عليه[٢٥٧] . وابن عجلان هذا الذي يجمع حديثه

---

(٢٥٣) ميزان الاعتدال (٢ : ٤٥) .
(٢٥٤) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٧٤ .
(٢٥٥) معرفة علوم الحديث للحاكم ص ١٠٣ .
(٢٥٦) فيض القدير (١ : ٤٠) .
(٢٥٧) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٧١ .

هو الذي يقول فيه ابن المبارك : لم يكن بالمدينة أحد أشبه بأهل العلم من ابن عجلان ، كنت أشبهه بالياقوتة بين العلماء[٢٥٨] .

الثانية ـ حرصه على السند :

لقد أكرم الله هذه الأمة بالإسناد ، وجعله من خصوصياتها من بين العباد ، فلم يكن في أمة من الأمم منذ خلق الله آدم أمة يحفظون آثار نبيهم غير هذه الأمة. ولو كتب الحديث بدون سند لاختلط الصحيح بالضعيف بل وبالموضوع ، فيقع الزلل وينسب للرسول صلى الله عليه وسلم مالم يقل . ومن أجل ذلك كان ابن المبارك يحرص على السند في طلب الحديث أشد الحرص، ويقول: « طالب العلم بلا سند كراقي السطح بلا سلّم » ومثل هذا قول الشافعي رضي الله عنه : « الذي يطلب العلم بلا سند كحاطب ليل يحمل حزمة حطب وفيه أفعى وهو لا يدري »[٢٥٩] .

ومن مشهور كلام ابن المبارك رضي الله عنه في الإسناد قوله: « الاسناد من الدين ، ولولا الاسناد لقال من شاء ما شاء » وكان إذا اختلف مع جماعة في حديث يقول : «بيننا وبين القوم القوائم» يعني بذلك الإسناد[٢٦٠] .

---

(٢٥٨) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٧٣ .

(٢٥٩) فيض القدير (١ : ٤٣٣) .

(٢٦٠) صحيح مسلم (١ : ٢٢) .

الثالثة ـ دقته في الجرح والتعديل :

فن الجرح والتعديل يحتاج أول مايحتاج من يشتغل فيه إلى علم غزير ، واطلاع واسع على أحوال الرجال ، ونباهة عجيبة، ولا يكفي فيه التقوى والصلاح مع الغفلة والسذاجة . وقد كانت هذه المؤهلات متوفرة في ابن المبارك رضي الله عنه ، فقد رأيت مكانته في العلم والضبط واستمساك الذاكرة ، ولذلك كان كبار الأئمة في الحديث يعتمدون على أقواله في الجرح والتعديل : كالإمام البخاري ، والإمام مسلم ، وغيرهما من جهابذة العلم في هذا الفن ، وذلك أنه كان على غاية الدقة العلمية في ذلك ، وقد رأيتَ صوراً من جرحه وتعديله تشهد له بذلك وتؤيد ما نقول ، ولا نرى حاجة لإعادتها .

وقد كان من دقته أنه ما كان يمنعه صلاح الرجل وتقواه وعبادته وتقدمه في ضروب الخير من أن يتكلم فيه ، وينهى الناس عن الأخذ عنه إذا كان لا يصلح للأخذ عنه وإليك مثالاً على ذلك:

كان عبّاد بن كثير الثقفي البصري من العبّاد الصالحين ، ومع ذلك فإن ابن المبارك كان إذا ذكره يقول : ما أدري من رأيت أفضل من عبّاد بن كثير في ضروب من الخير ! فإذا جاء الحديث فليس منه في شيء[٢٦١] . وسبب ذلك أنه كان إذا حدّث جاء

---

(٢٦١) ميزان الاعتدال (٢ : ١٢ ـ ١٤) .

بما ينكر عليه من الحديث ، كما يبدو ذلك من قول ابن المبارك : قلت لسفيان الثوري : إن عبّاد بن كثير من تعرف حاله ، وإذا حدّث جاء بأمر عظيم ، فترى أن أقول للناس لا تأخذوا عنه؟ قال سفيان : بلى . قال عبد الله : فكنت إذا كنت في مجلس ذُكر فيه عبّاد أثنيت عليه في دينه وأقول : لا تأخذوا عنه[٢٦٢] .

فابن المبارك لم يمنعه صلاح عبّاد بن كثير وتقواه من أن ينهى الناس عن أخذ الحديث عنه ، وذلك لأن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه التحليل والتحريم ، والترغيب والترهيب، فإذا كان الراوي ليس أهلاً للرواية ، ثم أقدم على الرواية عنه مَنْ قد عرفه ، ولم يبين ما فيه لغيره ممن جهل معرفته ؛ كان آثماً بفعله ذلك ، غاشاً لعوام المسلمين ، إذ لا يؤمن على بعض من سمع تلك الأخبار أن يستعملها أو يستعمل بعضها[٢٦٣] . وهذا هو الذي دعا ابن المبارك وغيره إلى كشف معايب رواة الأحاديث وناقلي الأخبار ، مع التزام جانب الإنصاف سواء في الجرح أو التعديل ، فهو لم ينس أن يثني على عبّاد في دينه وتقواه في الوقت الذي ينهى الناس عن الأخذ عنه .

وأمثلة دقة ابن المبارك في ذلك كثيرة ، فهو عندما يذكر

---

(٢٦٢) صحيح مسلم (١ : ١٣) .

(٢٦٣) انظر صحيح مسلم (١ : ٢٢) .

بقيةَ بن الوليد يقول: «بقية صدوق اللسان، ولكنه يأخذ عمن أقبل وأدبر[٢٦٤] » يعني عن الثقات والضعفاء ، ويقول : « نعم الرجل بقية ، لولا أنه كان يكني الأسامي ، ويسمّي الكنى ، كان دهراً يحدثنا عن أبي سعيد الوُحاظي ، فنظرنا فإذا هو عبد القدوس » مع العلم أن ابن المبارك ما كان يفصح بقوله كذاب إلا لعبد القدوس ، فقد كان يقول له ذلك[٢٦٥] .

ومن ذلك قول ابن المبارك للحسن بن عيسى : إذا قدمتَ على جرير فاكتب علمه كله إلا حديث ثلاثة : لا تكتب حديث عبيدة بن معتِّب، والسَّريّ بن إسماعيل ، ومحمد بن سالم[٢٦٦].

وذلك أن الرجل مهما كان صالحاً تقياً ، ومهما كانت منزلته في العلم ، يجب أن لا يتابع في زلته إذا زلّ ، ولا في كبوته إذا كبا أو نبوته إذا نبا ، وفي هذا المعنى يقول ابن المبارك رضي الله عنه : « رب رجل حسن ، وآثاره صالحة ، كانت له هفوة وزلة ، فلا يقتدى به فيهما[٢٦٧]» .

---

(٢٦٤) صحيح مسلم (١ : ١٤) .

(٢٦٥) المرجع السابق (١ : ٢٠) .

(٢٦٦) المرجع السابق (١ : ٢١) .

(٢٦٧) فيض القدير (١ : ١٨٧) .

الرابعة ــ دقته في النقل :

بالإضافة إلى كل ما سبق فقد كان من أمانة ابن المبارك المتناهية فيذكر السند وطريقة السماع ما قاله نعيم بن حماد،قال :

ما رأيت ابن المبارك يقول قط : « حدثنا » كأنه يرى « أخبرنا » أوسع[٢٦٨] . والفرق بين حدثنا وأخبرنا أن الأولى تستعمل في رواية ما سمعه الراوي من شيخه ، والثانية تستعمل في رواية ما قرىء على الشيخ ، والشيخ يسمع ، والطالب يقرأ أو يسمع . وهذه التفرقة للإمام مسلم وغيره ، وسوّى الإمام البخاري بين اللفظين .

الخامسة ــ جمعه بين الحديث وخير الرأي :

كانت هناك حملات عنيفة بين أهل الرأي وأهل الحديث ، ويبدو أنّ ابن المبارك كان جامعاً بين الحديث وخير الرأي ، ولعل الذي جعله يتجه هذا الاتجاه الوسط بين الرأي والحديث ؛ هو أن أساتذته لم يكونوا من أهل الرأي وحدهم ، ولا من أهل الحديث وحدهم ، فأستاذه أبو حنيفة كان زعيماً لأهل الرأي ، بينما كان أستاذه سفيان الثوري من زعماء أهل الحديث .

ولقد كان ابن المبارك يعتمد على الأثر ، فهو ــ كما يقول

---

(٢٦٨) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٥) .

علي بن الحسين بن شقيق ـ « لا يفتي إلا بقوة وأثر »[٢٦٩] . وكان ينصح الناس بالاعتماد عليه أيضاً . فقد قال ابن المبارك لرجل : إن ابتُليتَ بالقضاء فعليك بالأثر[٢٧٠] ، وكان يذمّ الذين يقولون في العلم برأيهم من غير استناد إلى أصل شرعي من كتاب أو سنة ، وقد رُوي عنه أنه خرّج حديثاً : « إن من أشراط الساعة ثلاثاً ، وإحداهن : أن يُلتمس العلم عند الأصاغر» فقيل له : من الأصاغر ؟ قال : الذين يقولون برأيهم . فأما صغير يروي عن كبير فليس بصغير[٢٧١] . ولكنه مع أخذه بالأثر ، واعتماده الشديد عليه ، كان في الوقت نفسه يناصر أبا حنيفة ويأخذ عنه ، وقد اعتبر المتحاملون على أبي حنيفة أن الزّلة الوحيدة لابن المبارك هي روايته عن أبي حنيفة[٢٧٢] . ولعل أوضح ما يبيّن موقفه بين الحديث والرأي قوله : « ليكن الذي يعتمد عليه الأثر ، وخذ من الرأي ما يفسر لك الحديث »[٢٧٣] .

---

(٢٦٩) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٦٢ .

(٢٧٠) حلية الأولياء (٨ : ١٦٦) .

(٢٧١) الاعتصام للشاطبي (١ : ١٠١) .

(٢٧٢) انظر ذلك في كتاب الورع للإمام احمد بن حنبل ص ٧٦ .

(٢٧٣) الخيرات الحسان ص ٦٠ ، وورد مثلها في حلية الأولياء (٨ : ١٦٥) .

عقيدة ابن المبارك

ليس فيما رجعنا إليه من المصادر التاريخية وكتب التراجم ما يدلنا على اتجاهات ابن المبارك وآرائه في المسائل التي كانت تشغل بال الكثيرين من علماء ذلك العصر ، سواء منها المسائل السياسية والكلامية ، ولذلك وجب علينا البحث عن ذلك في نثير الأخبار ومتفرق الآثار ؛ لأخذ فكرة — ولو موجزة — عن بعض اتجاهاته . ولدى البحث عثرنا له على بعض الأقوال يمكننا أن نستنتج منها بعض اتجاهاته وآرائه ، وقبل أن نبدأ في سرد بعض اتجاهاته نبّين أنه كـان يحمل العقيدة التي عليها معظم المسلمين من أهل السنة والجماعة .

فضل الصحبة :

حب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم دين ، ولذلك كان ابن المبارك رحمه الله يقول : خصلتان من كانتا فيه نجا : الصدق ، وحب أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم(٢٧٤) .

وقد سئل : أيهما أفضل معاوية بن أبي سفيان أو عمر بن عبد العزيز ؟ فقال : والله إن الغبار الذي دخل في أنف معاوية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من عمر بألف مرة ، صلى

(٢٧٤) الشفا للقاضي عياض (٢ : ٤٢) .

معاوية خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : سمع الله لمن حمده ، فقال معاوية : ربنا ولك الحمد ، فما بعد هذا [275] ؟

---

(٢٧٥) وفيات الأعيان (٢ : ٢٣٨) . قلت : انظر قول هذا الإمام الكبير في سيدنا معاوية رضي الله عنه ، وما يفوه الناس والكتاب المعاصرون في حقه !! ولا شك أن الإمام ابن المبارك يفاضل بين الرجلين كل هذه المفاضلة لسبب الصحبة الكريمة للنبي صلى الله عليه وسلم التي حازها معاوية وتأخر عنها عمر بن عبد العزيز، ولا ينكر أن في خواص التابعين من هو أوسع علماً وأكثر تعبداً من بعض الصحابة ، ومع ذلك فإن رتبة الصحابة أعلى من رتبة التابعين إجمالاً وتفصيلاً . فقد روى الإمام أحمد في المسند (١ : ١٨٧) وأبو داود (٤ : ٣٤٤ بشرحه عون المعبود) بسند صحيح عن سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة أنه قال ــ بعدما روى حديث : « أبو بكر في الجنة ، عمر في الجنة . . إلى تمام العشرة »ــ : « والله لمشهد شهده رجل يغبر فيه وجهه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من عمل أحدكم ولو عُمّر عمر نوح عليه السلام » . فهذا دليل واضح على صحة قول ابن المبارك ، حتى كأنه رحمه الله اقتبس قوله من قول هذا الصحابي الجليل .

فسعيد بن زيد صحابي جليل يخاطب التابعين ــ وعمر بن عبد العزيز منهم ــ ويخص بالذكر الاغبرار في الجهاد في سبيل الله ، ــ وهو ماذكره ابن المبارك تماماً ــ ثم يذكر أن هذا الموقف الواحد أفضل من العمل الصالح طوال ذلك العمر الطويل المديد .

ثم يجب أن لا ننسى أن ابن المبارك عاش القسم الأكبر من حياته في عصر أطاح بالدولة الأموية التي اسسها معاوية ، فكأنه

←

وهذا يشير إلى عظم فضل الصحبة وشرفها ورفعة شأنها .

أحس من السائل غضاً من مقام معاوية ، ورغبة في الطعن فيه ، حيث قرن بينه وبين عمر بن عبد العزيز المتفق على فضله حتى من أهل الدولة العباسية ، فأجابه ابن المبارك بما ترى من مبالغة في تصوير التفاوت بين الرجلين رضي الله عنهما ردعاً للسائل ، ونهياً له عن النيل من الصحابة رضي الله عنهم جميعاً .

ويشبه كلمة ابن المبارك هذه ما قاله المعافى بن عمران لمن قال له : أين عمر بن عبد العزيز من معاوية ـ يعني أيهما أفضل ـ؟ فغضب المعافَى وقال : لا يقاس بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أحد ، معاوية صاحبه وصهره وكاتبه وأمينه على وحي الله (١) .

وينبغي أن لا ننسى أن الصورة الحقيقية لهذا الصحابي تخالف تمام المخالفة الصورة الكاذبة التي رسمتها أخبار بعض المؤرخين وجهلة الرواة وضلال بعض الفرق والمبتدعين ، ويكفي أن نعلم من فضائل هذا الصحابي الجليل : ماذكره المعافَى بن عمران، فلو لم يستأمنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما استكتبه الوحي ، وكفى بهذا مرتبة وشرفاً ، وفي الترمذي بسند حسن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاوية : « اللهم اجعله هادياً مهدياً واهدِ به »(٢) ، وفي البخاري أن ابن عباس قال فيه : « إنه فقيه » . وهذا الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله يذكر الناسُ أمامه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : رحمهم الله أجمعين ، ←

---

(١) الشفا للقاضي عياض (٢ : ٤٣) .

(٢) سنن الترمذي (٩ : ٣٧٠) .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مشيراً إلى رفعة شأن

ومعاوية ، وعمرو بن العاص ، وأبو موسى الأشعري، والمغيرة ، كلهم وصفهم الله تعالى في كتابه فقال : « سيماهم في وجوههم من أثر السجود » . وقيل له مرة : يا أبا عبد الله ، ما تقول فيما كان بين علي ومعاوية ؟ فقال : ما أقول فيهم إلا الحسنى ... ويسأله رجل عما جرى بين علي ومعاوية ، فيعرض عنه، فيقال له : يا أبا عبد الله هو رجل من بني هاشم ، فيقبل عليه ويقول له : اقرأ « تلك أمة قد خلَت لها ماكسبت ولكم ماكسبتم ولاتسألون عما كانوا يعملون» . وكان رحمه الله يقول:إذا رأيت رجلاً يذكر أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بسوء فاتهمه على الاسلام (١) .

فواجب المسلم أن يحفظ لسانه من الخوض في طعن سلف الأمة لاسيما الذين تشرفوا بصحبتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وجهادهم معه . وقد قال الإمام الشاطبي في « الموافقات »(٢) إذا قبلنا تعديل بعضنا بتزكية واحد منا ، فكيف لا نقبل فيهم تزكية رب العالمين ، ورسوله الصادق الأمين ، ولذلك فإن أهل السنة عَدّلوا الصحابة على الإطلاق والعموم ، وأخذوا عنهم رواية ودراية من غير استثناء ولا محاشاة . والآيات في مدحهم كثيرة ، والأحاديث أكثر ، وقد اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم اختياراً واصطفاهم اصطفاء ، فقد روى الإمام أحمد

←

---

(١) انظر ذلك في « مناقب الإمام أحمد بن حنبل » لابن الجوزي ص ١٦٠ .

(٢) الموافقات (٤ : ٧٥) .

الصحابة : « والذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أُحُدٍ ذهباً

بإسناد حسن (١) عن ابن مسعود قال : إن الله نظر في قلوب العباد ، فوجد قلب محمد صلى الله عليه وسلم خير قلوب العباد ، فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته ، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد ، فجعلهم وزراء نبيه ، يقاتلون على دينه ، فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رأوه سيئاً فهو سيء .

وقد أطلت التعليق هنا لأنبه على ضرورة الأدب مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوقيرهم ، ومعرفة حقهم ، وحسن الثناء عليهم ، والإمساك عما شجر بينهم من فتن ، وقد روي عن عمر بن الخطاب أنه أراد قطع لسان أحد أولاده لأنه شتم واحداً من الصحابة ، ثم كلمه الناس في ذلك فقال : دعوني أقطع لسانه حتى لا يشتم أحدٌ بعدُ أصحابَ النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم تكون سنة يعمل بها من بعدي ، لا يوجد رجل شتم رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا قطع لسانه(٢) .

وما أعظم تلك الكلمة الرائعة التي قالها الخليفة العادل عمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه لما سئل عن أهل صفّين فقال : تلك دماء طهر الله منها يدي ، فلا أحب أن أخضب لساني بها (٣) .

←

(١) المسند (١ : ٣٧٩) وقال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على المسند (٥ : ٢١١) : إسناده صحيح .

(٢) انظر « الشفا » (٢ : ٢٦٨) وحياة الصحابة (٢ : ٣٩٩) .

(٢ : ٣٩٩) .

(٣) مناقب الشافعي للبيهقي (١ : ٤٤٩) .

ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نَصِيفه »[٢٧٦] والحديث في الصحيحين.

محاربة البدع :

كان رضي الله عنه يرى ظهور المبتدعة مصيبة حلّت بالأمة، وآفة تعين على ثَلْم الدين ، وهدم الاسلام ، فمن كلامه ما رُوي عنه أنه قال : اعلم أي أخي ، أن الموت كرامة لكل مسلم لقي الله

فلتكن هذه الكلمة أسوة لنا في الكف عما شجر بين الصحابة رضي الله عنهم ، لا سيما ورسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا أن نذكر محاسن موتانا وأن نكف عن مساوئهم ، وفي البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضَوا إلى ما قدموا » . فكيف إذا كان الميت من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فأقل درجات الأدب معه أن نكف ألسنتنا عنه وأن نُخَلّي بينه وبين ربه ، وقد كان هذا ما أوصى به معاوية رضي الله عنه عند موته ، فقد ذكر السيوطي في (تاريخ الخلفاء) أنه كان عند معاوية شيء من شَعَر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلامة أظفاره فأوصى أن تجعل في فمه وعينيه، وقال: افعلوا ذلك وخَلّوا بيني وبين أرحم الراحمين.

رحمهم الله جميعاً ورضي عنهم فهم أهلٌ لكل ثناء وهم نقلة الاسلام إلى من بعدهم .

---

(٢٧٦) النَّصِيف : بفتح النون وكسر الصاد هو النصف . كما في النهاية .

على السنة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، فإلى الله نشكو وحشتنا ، وذهاب الإخوان ، وقلة الأعوان ، وظهور البدع[٢٧٧] .

ولذلك كان رضي الله عنه يحارب البدعة والمبتدعين حرباً شديدة لا هوادة فيها ، ويوصي الناس بالابتعاد عن أهل البدع ، وكان يقول : يكون مجلسك مع المساكين وإياك أن تجلس مع صاحب بدعة[٢٧٨] . وبلغ ابن المبارك أن الحارث أكل عند صاحب بدعة أكلة ، فقال له ابن المبارك : لاكلمتك ثلاثين يوماً[٢٧٩] . ولكنه مع ذلك كان لا يمتنع من الرواية عن المبتدع إذا لم يكن داعياً إلى بدعته ، وهذا من إنصافه وعلمه وتسامحه ، فقد قيل له : لم رويت عن سعيد وهشام الدستوائي وتركت حديث عمرو بن عبيد ورأيهم واحد ؟ قال : كان عمرو يدعو إلى رأيه وكانا ساكتين[٢٨٠] .

وسنرى مواقفه ورأيه في أهل البدع .

---

(٢٧٧) الاعتصام للشاطبي (١ : ٨٦) .

(٢٧٨) حلية الأولياء (٨ : ١٦٨) .

(٢٧٩) المرجع السابق . والحارث هذا : هو الحارث المحاسبي المشهور .

(٢٨٠) تاريخ الاسلام للذهبي (٦ : ١٠٩) في ترجمة عمرو بن عبيد .

موقفه من المعتزلة والجهمية :

كان عمرو بن عبيد المتكلم الزاهد المشهور شيخ المعتزلة في وقتـــه ، وقد كان يجالس الحسن واشتهر بصحبته ، حتى أزاله واصل بن عطاء عن مذهب أهل السنة وقال بالقدر ودعا إليـــه واعتزل أصحاب الحديث ، ولذلك كان ابن المبارك ينهى الناس عن الأخذ عنه وكان يقول :

أيهـــا الطالب علماً ... إيتِ حَمّاد بن زيدْ
فخذ العلمَ بحلمٍ ... ثــم قَيِّدْه بقيــدْ
وذرِ البدعة مـــن ... آثارعمرو بنعبيدْ[٢٨١]

وقال نعيم بن حماد : قلت لابن المبارك : لأي شيء تركوا عمرو بن عبيد ؟ قال : إن عمراً كان يدعو إلى القدر[٢٨٢] .

ومعنى هذا أن ابن المبارك رحمه الله كان يسقط حديث المبتدع إن كان يدعو إلى بدعته ، وعمرو بن عبيد هذا كان يدعو إلى بدعته ، ويجادل عليها ، وربما أداه ذلك إلى الطعن في مخالفيه من أهل السنة . قال السهيلي[٢٨٣] : « وأما عمرو بن عبيد فقد كان عظيماً في زمانه ، عالي الرتبـــة في الورع ، حتى افتتن به وبمقالته أمة" ، فصاروا قدرية ، وقد نُبز بمذهبه قوم من أهل

---

(٢٨١) البداية والنهاية (١٠ : ٧٩) .

(٢٨٢) تقدمة الجرح والتعديل ص ٣٧٣ .

(٢٨٣) الروض الأنف (٣ : ٢٥٥) .

الحديث فلم يسقط حديثهم لأنهم لم يجادلوا على مذهبهم ولا طعنوا في مخالفيهم من أهل السنة، كما فعل عمرو بن عبيد».

وقد كان ابن المبارك يرى أن الجهمية والقدرية كفار كما يراهم أستاذه، فعن ابن المبارك أنه قال: سمعت سفيان الثوري يقول: الجهمية كفار والقدرية كفار. فسأل عمار بن عبد الجبار ابن المبارك: فما رأيك؟ فقال: رأيي رأي سفيان[٢٨٤]. وذكر جَهْم عنده فقال:

عجبت لشيطان أتى الناس داعياً
إلى الشرّ وانشق اسمه من جهنمِ[٢٨٥]

موقفه من المرجئة:

قيل له: إن شيبان يزعم أنك مرجيء؛ فقال: كذب شيبان، أنا أخالف المرجئة في ثلاثة أشياء: فإنهم يزعمون أن الإيمان قول بلا عمل وأنا أقول هو قول وعمل. ويزعمون أن تارك الصلاة لا يكفر وأنا أقول إنه يكفر. ويزعمون أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص وأنا أقول إنه يزيد وينقص[٢٨٦].

موقفه من خلق القرآن:

قاسى أهل الحديث ألواناً من التعذيب من أجل هذه

---

(٢٨٤) حلية الأولياء (٧ : ٢٨).

(٢٨٥) سير أعلام النبلاء (٦ : ٢٥٥).

(٢٨٦) الطبقات الكبرى للشعراني (١ : ٦٠).

المشكلة ، ورأي ابن المبارك في ذلك هو رأي المحدثين ، فعن أحمد ابن عبد الله بن يونس قال : سمعت ابن المبارك قرأ شيئاً من القرآن ثم قال : من زعم أنه مخلوق فقد كفر بالله العظيم[٢٨٧] .

موقفه ممن يسب السلف :

كان يرى أن من يسب السلف يجب أن يترك حديثه ، وكان يدعو الناس إلى تركه ، فعن علي بن شقيق قال : سمعت عبد الله بن المبارك يقول على رؤوس الناس : دعوا حديث عمرو ابن ثابت فإنه كان يسب السلف[٢٨٨] . وعن عبيد الله بن موسى قال: كنا عند أبي حمزة الثمالي فحضره ابن المبارك،فذكر أبو حمزة حديثاً في ذكر عثمان رضي الله عنه فنال من عثمان ، فقام ابن المبارك ومزّق ما كتب ومضى[٢٨٩] .

ومن شعر ابن المبارك في موضوع سب السلف قوله :

إني امرؤ ليس في ديني لغامزة ... لينٌ ولست على الاسلام طعّانا
فلا أسبُّ أبا بكر ولا عمراً ... ولن أسبَّ معاذ الله عثمانا
ولا ابن عم رسول الله أشتمه ... حتى ألبّس تحت الترب أكفانا
ولا الزبير حواريّ الرسول ولا ... أهدي لطلحة شتماً عز أوهانا

---

(٢٨٧) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٧) .

(٢٨٨) صحيح مسلم (١ : ١٢) .

(٢٨٩) ميزان الاعتدال (١ : ٣٦٣) .

ولا أقول عليٌّ في السحاب إذاً ... قد قلت ـ والله ـ ظلماً ثم عدوانا
ولا أقول بقول الجهم إنّ لـه ... قولاً يضارع أهل الشرك أحيانا
ولا أقول تخلّى عـن خليقته ... ربُّ العباد وولّى الأمرَ شيطانا
ماقال فرعون هذا في تجبره ... فرعون موسى ولا هامان طغيانا(٢٩٠)

رايه في احاديث الصفات وفي النزول المذكور في الأحاديث :

طوّل علماء الاسلام الكلام في تأويل ذلك ، وقد قال غير واحد من أهل العلم في هذه الأحاديث المتعلقة بالصفات ونزول الرب تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا قالوا : قد تثبت الروايات في هذا ويؤمن بها ولا يتوهم ولا يقال كيف ؟.

وأنكرت الجهمية هذه الروايات وقالوا : هـذا تشبيه ،

---

(٢٩٠) طبقات الشافعية الكبرى (١ : ١٥١) ، وهي قصيدة طويلة منها : الله يدفع بالسلطان معضلة .. التي ستأتي فيما بعد.

واظن ان ابن المبارك اراد بهذه القصيدة معارضة عمران بن حطان الخارجي في ابياته التي قالها في مدح ابن ملجم قاتل عـلي كرم الله وجهه وهي هذه :

يا ضربة من كمي ماارادبها ... إلا ليبلغ عنـد الله رضوانـا
إني لاذكره يومـاً فأحسبه ... اوفى البريةعنـد الله ميزانا
لله در المرادي الذي سفكت ... كفاه مهجة شر الخلق إنسانا

فأخزى الله قائل هذه الابيات وقبحه ما اجراه على الله !!

وتأولوا الآيات التي ذكر الله عز وجل فيها اليد والسمع والبصر... ففسروها على غير ما فسرها أهل العلم .

ورأي ابن المبارك في ذلك هو رأي أهل العلم من أهل السنة والجماعة حيث قالوا في هذه الأحاديث : أمروها بلا كيف[٢٩١] . وهذه هي الطريقة المستقيمة التي كان عليها السلف : كالزهري ومكحول والسفيانَين والليث وحمّاد بن سلمة وحماد بن زيد والأوزاعي ، والأئمة الأربعة : مالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد وغيرهم ، فإنهم أجروها كما جاءت بلا كيفية ولا تعرض لتأويل[٢٩٢] .

كُتُبُهُ

ابن المبارك من السابقين إلى تدوين الحديث :

ولقد كان السلف الصالح رضي الله عنهم من الصحابة والتابعين لا يكتبون حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنهم يؤدونه لفظاً ، ويأخذونه حفظاً ، إلا كتاب الصدقة وشيئاً يسيراً يقف عليه الباحث بعد الاستقصاء ، حتى خيف عليه الدروس ، وأسرع في العلماء الموت ؛ فكتب عمر بن عبد العزيز

---

(٢٩١) انظر سنن الترمذي (٣:٢٤) والتي بعدها،و(٧:٢٣٦).

(٢٩٢) نيل الأوطار (٣:٦٣) .

رضي الله عنه إلى عامله على المدينة أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري التابعي : « انظر ما كان عندك ــ أي في بلدك ــ من سنة أو حديث فاكتبه ؛ فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء ، ولا تقبل إلا حديث الرسول صلى الله عليه وسلم وليفشوا العلم ، وليجلسوا حتى يعلم من لا يعلم ، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً » • وكان عمر قد كتب بمثل ذلك أيضاً إلى أهل الآفاق ، وأمرهم بالنظر في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وجمعه[٢٩٣]،ومنذ ذلك الوقت بدأ العلماء في التصنيف لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم •

وقد كان للإمام عبد الله بن المبارك شرف السبق إلى تدوين حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن سبق من الأئمة • قال في تدريب الراوي[٢٩٤] :

« أول من جمع ذلك ــ يعني الآثار ــ ابن جريج بمكة ، وابن إسحاق أو مالك بالمدينة ، والربيع بن صبيح أو سعيد بن أبي عروبة أو حماد بن سلمة بالبصرة ، وسفيان الثوري بالكوفة، والأوزاعي بالشام ، وهُشَيم بواسط ، ومعمر باليمن ، وجرير بن عبد الحميد بالريّ ، وابن المبارك بخراسان » • قال العراقي وابن حجر : وكان هؤلاء في عصر واحد فلا ندري أيهم سبق •

---

(٢٩٣) الرسالة المستطرفة ص ٤ •

(٢٩٤) التدريب ١ : ٨٩ •

ثم تلا المذكورين كثير من أهل عصرهم يدونون الآثار ويجمعونها في تصانيف يجمعون الصحيح مع غيره دون تمييز ، وأول من صنّف في الصحيح المجرد ـ على ماقاله غير واحد ـ الإمامُ أبو عبد الله البخاري ، وكانت الكتب قبله ممزوجاً فيها الصحيح وغيره (٢٩٥) . وبذلك يكون ابن المبارك من الذين حازوا فضيلة السبق إلى جمع الآثار ، وتدوين أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ، كما سبق له أن صنّف في أبواب من العلم كالأربعينات والجهاد ، كما سيأتي بعد قليل .

كُتُبُهُ

يظهر أن ابن المبارك كان من المكثرين للتصنيف ، فمع أن العهد كان ـ كما رأيت ـ عهد الابتداء في التدوين ، فقد ورد مايشعر أن لهذا الإمام تصانيف كثيرة في أنواع العلوم وألوان المعرفة . فقد جاء في طبقات ابن سعد : روى رواية كثيرة، وصنف كتباً كثيرة في أبواب العلم وصنوفه ، حملها عنه قوم وكتبها الناس عنهم (٢٩٦) .

وجاء في العبر : وصنف التصانيف الكثيرة (٢٩٧) .

وقال الذهبي : دوّن العلوم في الأبواب والفقه (٢٩٨) .

(٢٩٥) الرسالة المستطرفة ص ٥ .
(٢٩٦) طبقات ابن سعد (٧ : ٣٧٢) .
(٢٩٧) العبر ص ٢٨٠ وكذلك شذرات الذهب (١ : ٢٩٥) .
(٢٩٨) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٣) .

وقد كانت تصانيفه محل استحسان عند الناس ، يتدارسونها وينتفعون بها ، وقد وصفها ابن كثير بالتصانيف الحسان[٢٩٩] .

وقال ابن ناصر الدين في ابن المبارك : أحد أئمة الأنام ذو التصانيف النافعة[٣٠٠] .

وقد كانت كتبه التي صنفها في مختلف فنون العلم تشهد بثقافته الواسعة ومعارفه المتشعبة ، حيث ألم بثقافة عصره أحسن إلمام ، فقد دوّن العلم في الأبواب والفقه ، وفي الغزو ، والزهد ، والرقائق ، وغير ذلك [٣٠١] من صنوف العلم والمعرفة .

وقد سبق قول يحيى بن آدم في نفع كتبه وشمولها لدقيق المسائل حيث يقول : كنت إذا طلبت الدقيق من المسائل فلم أجده في كتب ابن المبارك أيست منه [٣٠٢] .

ولذلك كان العلماء يعتمدون عليها ، ويجيدون حفظها ، وقد ذكر في ترجمة الإمام البخاري أنه حفظ كتب ابن المبارك قبل خروجه لطلب الحديث ، وهو ابن ست عشرة سنة[٣٠٣] .

---

(٢٩٩) البداية والنهاية (١٠ : ١٧٧) .

(٣٠٠) شذرات الذهب (١ : ٢٩٦) .

(٣٠١) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٣) .

(٣٠٢) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٦) .

(٣٠٣) تاريخ بغداد (٢ : ٧) .

ومن المؤسف أن كتب ابن المبارك قد فقد أكثرها مع ما فقد من ثروة علمية وفكرية ثمينة ، ولم يحفظ لنا التاريخ إلا أسماء بعضها ، وقد رأيتُ أجزاء من بعض كتبه أفلتت من يد الضياع ، عثرتُ عليها مخطوطة في المكتبة الظاهرية بدمشق ، وفيما يلي أسماء كتبه التي عثرنا على ذكرها في كتب التراجم والمعاجم المتفرقة ، مرتبة حسب الأحرف الهجائية :

١ ـ كتاب الاربعين حديثاً (٣٠٤) .

ابن المبارك أول من عمل على جمع أربعين حديثاً ، وذلك تطبيقاً للحديث القائل : « من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من أمر دينها بعثه الله تعالى يوم القيامة في زمرة الفقهاء والعلماء » ثم تبعه العلماء يجمعون ذلك .

وممن صنّف في الأربعينات بعد ابن المبارك : محمد بن أسلم الطوسي العالم الرباني ، ثم الحسن بن سفيان النسائي ، وأبو بكر الآجري ، وأبو بكر محمد بن إبراهيم الأصفهاني ، والدارقطني ، والحاكم ، وأبو نعيم ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو سعيد الماليني ، وأبو عثمان الصابوني ، وعبد الله بن محمد الأنصاري ، وأبو بكر البيهقي ، وخلائق لا يحصَون من المتقدمين والمتأخرين(٣٠٥) .

---

(٣٠٤) الرسالة المستطرفة ص ٨٦ .

(٣٠٥) انظر مقدمة الأربعين النووية .

والمشهور من الأربعينات كتاب الأربعين النووية للإمام محيي الدين النووي رحمه الله تعالى .

٢ ـ كتاب الاستئذان (٣٠٦) .

٣ ـ كتاب البر والصلة .

حديثه رواية الحسن بن سفيان ، عن حبان بن موسى ، عن عبد الله بن المبارك ، ويوجد منه في المكتبة الظاهرية برقم (حديث ٣٢٨ ق ١٠٠ ــ ١٢٣ مخطوط) الجزء الثاني فقط ، وهو نسخة عتيقة عليها سماع بتاريخ سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة .

وأول حديث في هذا الجزء : ابن المبارك ، عن معمر ، عن الزهري ، عن سالم بن عبد الله ، عن أبيه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لا حسد إلا على اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه هذا القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار » .

٤ ـ كتاب التاريخ(٣٠٧) .

٥ ـ كتاب تفسير القرآن (٣٠٨) .

٦ ـ كتاب الجهاد .

ذكره صاحب كشف الظنون ، وصاحب الرسالة المستطرفة ، ويجب الاشارة هنا إلى أن ابن المبارك رحمه الله هو أول من

---

(٣٠٦) ذكر في الرسالة المستطرفة ص ٤٢ .

(٣٠٧) ذكر في هدية العارفين للبغدادي (١ : ٤٣٨) .

(٣٠٨) المرجع السابق .

صنف في الجهاد ، وقد جمع في كتابه هذا مائتين واثنين وستين من الأحاديث المرفوعة ، وأقوال الصحابة والتابعين ، وقصص جهادهم رضي الله عنهم ، مما يرغب في الجهاد والشهادة في سبيل الله ويبين فضل المجاهدين والشهداء وما أعده الله لهم من عظيم الإكرام وعلو المقام .

وقد طبع هذا الكتاب في بيروت بتحقيق الأستاذ نزيه حماد سنة ١٣٩١هـ ١٩٧١م .

٧ ـ كتاب الدقائق في الرقائق (٣٠٩) .

٨ ـ كتاب رقاع الفتاوى(٣١٠) .

٩ ـ كتاب الزهد والرقائق .

ذكره ابن النديم والبغدادي وصاحب كشف الظنون .

وقد جمع فيه ابن المبارك ماورد من الأحاديث المرفوعة وأقوال الصحابة والتابعين مما يرغّب في الآخرة ، ويزهّد في الدنيا ، ويرقق القلوب ، وهو مرتب على الأبواب ، وقد طبع في الهند ، وصور حديثاً في بيروت ، وقد قام بتحقيقه العلامة المحقق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي ـ حفظه الله ـ أحد علماء الهند .

---

(٣٠٩) ذكر في هدية العارفين (١ : ٤٣٨) .

(٣١٠) المرجع السابق .

١٠ ـ كتاب السنن في الفقه(٣١١) .

١١ ـ كتاب المسند .

يوجد منه في المكتبة الظاهرية جزءان مخطوطان (الجزء الثاني والجزء الثالث وهو آخرها) نسخة جيدة بخط الحافظ أبي محمد القاسم بن الحافظ محمد بن عساكر ، وسماعه بتاريخ سنة تسع وأربعين وخمسمائة .

وأول حديث فيهما : « إذا أحب أحدكم أن يعلم قدر نعمة الله عليه ، فلينظر إلى من هو تحته ، ولا ينظر إلى من هو فوقه » .

ورقمه في الظاهرية : مجموع ١٨ (١٠٧ ــ ١٢٤ مخطوط) .

هذا ما عرفناه عن كتب ابن المبارك رضي الله عنه ، ومن ذلك يبدو أي ثروة فقدها المسلمون بفقد كتبهم ، وما عددناه من كتب ابن المبارك لا يمنع من وجود كتب غيرها ضاعت معها أسماؤها أيضاً .

شعره

سبق قول أصحاب ابن المبارك أنه كان جامعاً للعلم ، وأنه جمع من جملة ما جمع من الثقافات : الأدب والنحو واللغة والشعر

---

(٣١١) ذكر في هدية العارفين .

والفصاحة .. وهذه الاستعدادات ـ مع ما عرفت من مواهب ابن المبارك وسعة ثقافته ـ إذا اجتمعت في إنسان ـ مع موهبة الشعر والقدرة على النظم ـ لخَليقة أن تفتّق أبكار الكلام المختّم ، وأن تجعل من صاحبها مالىء الدنيا وشاغل الناس كما جعلت من أبي الطيب وأبي تمام .

وقد كان والده منذ صغره يحضه على حفظ الشعر وروايته، فعن زُنَيج عن أبي تُميْلَة قال : كان أبي والمبارك والد عبد الله تاجرين ، وكانا قد جَعَلا لنا أنّ من حفظ منا قصيدة فله درهم. قال أبو غسان : فخرجا شاعرين(٣١٢) .

وقد شبّ ابن المبارك على الفصاحة وسلامة العربية حتى ليروى عنه أنه كان يقول : اللحن في الكلام أقبح من آثار الجدري في الوجه(٣١٣) .

وقد أجمعت المصادر على أن ابن المبارك كان شاعراً فصيحاً، ذا شعر رائق ، ونظم عذب ، حتى قال فيه ابن جريج : ما رأيت أفصح منه(٣١٤) . ولكنها مع ذلك لم تنصفه في شعره كما أنصفته

---

(٣١٢) تهذيب التهذيب (١١ : ٢٩٤) في ترجمة ابي تميلة يحيى بن واضح المروزي ، وابو غسان هو زنيج نفسه راوي الخبر .

(٣١٣) بهجة المجالس (١ : ٦٥) .

(٣١٤) تهذيب التهذيب (٥ : ٣٨٦) .

في باقي نواحي عبقريته ، ولعل السبب في ذلك نظرة العلماء الأقدمين من السلف إلى الشعر والشعراء ، وأن ذلك يحط من مقام العالم ، ويزري بمكانته كما عبَّر عن ذلك الإمام الشافعي رضي الله عنه بقوله في بيته المشهور :

ولولا الشعر بالعلماء يزري لكنت اليوم أشعر من لبيد

فإذا أضفنا إلى ذلك أن الجوانب الأخرى من شخصية ابن المبارك العلمية والعملية هي أولى بالاهتمام والعناية من شعره ، عرفنا السبب الذي دعا كتب التراجم كلها إلى إهمال الناحية الشعرية فيه ، والاكتفاء بالإشارة السريعة عن الحديث المستفيض.

وعلى كل حال فإن ما حفظ لنا التاريخ من شعر ابن المبارك المنثور في بطون الكتب ، يعطينا فكرة واضحة عن شاعرية ابن المبارك، وعن الأغراض التي كان يتغنَّى بها ويدور حول محورها. وأشعار ابن المبارك ربما لا نجدها على درجة عالية من الإبداع والبلاغة ، وعلى مستوى رفيع من الفصاحة ، بحيث تهتز لها المشاعر ، ويجيش لها القلب ، وتتوتر لها الأعصاب ، حتى تطير بنا على أجنحة الخيال ، وذلك لأن ابن المبارك لم يكن همه منها طلب الشهرة وجلب أنظار الناس ، كما لم يكن قصده مدح الأمراء والسلاطين طمعاً في عرض من الدنيا ، فما كان له ــ وهو الإمام العظيم الذي أبى أن يتكسب بعلمه ــ أن يعود ليقف على أبواب الخلفاء والرؤساء ، فهو شاعر شغله دينه عما يشتغل به

طلاب الدنيا ، وشغلته آخرته عن الالتفات إلى ما يطوف في خاطر الشعراء من أغراض ، فهو يرى نفسه أسمى من أن يقول الشعر في غير حث الناس على الجهاد في سبيل الله وطلب الشهادة ، وفي تحبيب الزهد والتقليل من شأن الدنيا،وتضمين الحكم والتجارب، وعن ذلك يقول فيه محمد بن سعد[٣١٥] : وقال الشعر في الزهد والحث على الجهاد . ويقول فيه ابن كثير[٣١٦] : وله الشعر الحسن المتضمن حكماً جمة .

وسترى مما سنعرض من أشعاره التي عثرنا عليها متفرقة في مطوي الكتب أنها لا تخلو من حكمة عالية ، أو تجربة صادقة، أو غرض أخلاقي نبيل .

فمن شعره في الذين يبيعون دينهم بدنياهم ، ويجعلون من العلم وسيلة لأكل أموال الناس بالباطل :

قد يفتح المرء حانوتاً لمتجره | وقد فتحت لك الحانوت بالدين
بين الأساطين حانوت بلا غلقٍ | تبتاع بالدين أموال السلاطين
صيرت دينك شاهيناً تصيد به | وليس يفلح أصحاب الشواهين[٣١٧]

ومن شعره في ذلك أيضاً ، ولعله من القصيدة نفسها :

أرى رجالاً بدون الدين قد قنعوا | ولا أراهم رضوا في العيش بالدون

---

(٣١٥) الطبقات الكبرى (٧ : ٣٧٢) .

(٣١٦) البداية والنهاية (١٠ : ١٧٧) .

(٣١٧) وفيات الأعيان (٢ : ٢٣٩) .

فاستغنِ بالله عن دنيا الملوك كما
استغنى الملوك بدنياهم عن الدين[٣١٨]

وقد كان رضي الله عنه قليل الخلاف على أصحابه ، وكان ينصح بمصاحبة الصديق العَفّ ، الكريم النفس ، الذي لا يشاكس حباً في العناد والمشاكسة ، ولذلك كان كثيراً ما يتمثل بهذين البيتين :

وإذا صاحبت فاصحب صاحباً ذا حياءٍ وعفافٍ وكرم
قائلاً للشيء لا إن قلت لا وإذا قلت نعم قال نعم[٣١٩]

وله رضي الله عنه في الصديق ورفيق السفر :

إذا رافقتَ في الأسفار قوماً فكن لهمُ كذي الرَّحِم الشفيق
يعيب النفس ذا بصرٍ وسلمٍ عميّ القلب عن عيب الرفيقِ
ولا تأخذ بهفوة كل قومٍ ولكن قل: هلمّ إلى الطريق
متى تأخذ بهفوتهم تملّ وتبقى في الزمان بلا صديق[٣٢٠]

ومن قوله في الجهاد في سبيل الله ، وأنه أفضل العبادات ، وأنه أليق بالمسلم من العكوف في زاوية المسجد وترك الثغور مفتوحة أمام العدو ، ما حدّث به محمد بن إبراهيم بن أبي سكينة

---

(٣١٨) بهجة المجالس (٢ : ٣١٣) .

(٣١٩) شذرات الذهب (١ : ٢٩٧) .

(٣٢٠) ذيل الجواهر المضية (٢ : ٥٣٠) .

قال : أملى عليَّ ابن المبارك بطرسوس ـ ثغر من ثغور الروم ـ ورقة فيها هذه الأبيات ، وودعته ، وأنفذها معي إلى الفضيل بن عياض في سنة سبع وسبعين ومائة :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمتَ أنك بالعبادة تلعبُ
من كان يخضب جيده[٣٢١] بدموعه فنحورنا بدمائنا تتخضبُ
أو كان يتعب خيله في باطل فخيولنا يوم الصبيحة تتعبُ
ريح العبير لكم ، ونحن عبيرنا
رَهَجُ السنابك[٣٢٢] والغبار الأطيبُ
ولقد أتانا من مقال نبينا قول صحيح صادق لا يكذبُ
لا يستوي[٣٢٣] غبار خيل الله في أنف امرىءٍ ودخان نار تلهبُ
هذا كتاب الله ينطق بيننا ليس الشهيد بميت لا يكتبُ[٣٢٤]

(٣٢١) في تفسير ابن كثير آخر « آل عمران » : خده بدل جيده .

(٣٢٢) رهج : غبار . والسنابك : جمع سنبك بضم فسكون فضم ، وهو طرف مقدم الحافر . والمراد الغبار الذي يتصاعد بسبب سير الخيول .

(٣٢٣) هكذا وجدتها في اكثر من كتاب ، وقد دخل الوقص ـ وهو حذف الثاني المتحرك من متفاعلن ـ وهو صالح في الكامل . وفي ذيل الجواهر المضية : « لا جمع بين غبار خيل الله في ... » وعلى ذلك يكون البيت خالياً من العلة،وهو بذلك يشير إلى الحديث الشريف الذي رواه النسائي : « لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد ابدا » .

(٣٢٤) في تفسير ابن كثير : لا يكذب بدل لا يكتب .

قال : فلقيت الفضيل بكتابه في الحرم ، فلما قرأه ذرفت عيناه ، ثم قال : صدق أبو عبد الرحمن ونصح[٣٢٥] .

وقال رضي الله عنه في الذين يشهدون الزور : هم السفلة وأنشد :

قوم إذا غضبوا كانت رماحهم
بثّ الشهادة بين الناس بالزور
هم السلاطين إلا أن حكمهم
على السجلات والأملاك والدور[٣٢٦]

ودخل عليه أبو أسامة ــ حماد بن أسامة الكوفي ــ فرأى في وجهه أثر ضر ، فلما خرج وجه إليه أربعة آلاف درهم ورزمة ثياب ورقعة كتب إليه فيها :

وفتى خلا من ماله ومن المروءة خير خال
أعطاك قبل سؤاله وكفاك مكروه السؤال[٣٢٧]

وكان يقول في فضل الحاكم العادل :

إن الجماعة حبل الله فاعتصموا منه بعروته الوثقى لمن دانا[٣٢٨]

---

(٣٢٥) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (٢ : ١٠٣) .

(٣٢٦) فيض القدير (٢ : ٩٤) .

(٣٢٧) ذيل الجواهر المضية (٢ : ٥٣١) .

(٣٢٨) بهجة المجالس (١ : ٣٣٢) .

الله يدفـع بالسلطـان معضلة   عن ديننا رحمة منــه ورضوانا
لولا الأئمة لم تأمن لنا سبُل   وكان أضعفنا نهباً لأقوانا (٣٢٩)

وكان يقول في رواية الحديث ومجالس المحدثين :

مالذتي إلا روايــة مسنَــد   قــد قيّدت بفصاحة الألفاظ
ومجالس فيهــا عليّ سكينــة   ومذاكرات معــاشر الحفــاظ
نالوا الفضيلة والكرامة والنُّهى   مــن ربهــم برعاية الألفــاظ
لاظوا برب العرش لمـا أيقنــوا   أن الجنان لعصبة لُوّاظ (٣٣٠)

ومن شعره يمدح أبا حنيفة رضي الله عنه :

لقد زان البــلاد ومَن عليهــا   إمــامُ المسلمين أبو حنيفــة
بآثارٍ وفقــهٍ في حــديثٍ   كآيات الزبور على الصحيفــة
فمـا في المشرقين لــه نظـير   ولا بالمغــربين ولا بكوفـــة
رأيــت العــائبين لــه سفاهــاً   خلاف الحق مع حجج ضعيفة (٣٣١)

ومن شعره في مدحه أيضاً :

رأيتُ أبا حنيفــة كــل يــوم   يزيــد نبــالة ويزيــد خيرا
وينطــق بالصــواب ويصطفيه   إذا ماقال أهل الجورُ جورا
يقــايس مــن يقايســه بــلب   فمن ذا يجعلون لــه نظـيرا

---

(٣٢٩) حلية الأولياء (٨ : ١٦٤) .

(٣٣٠) المحـدث الفاصل للرامهرمزي ص ٥٤٧ والإلظاظ : لزوم الشيء والمثابرة عليه .

(٣٣١) الفهرست لابن النديم ص ٤١٨ .

كفـانا فقدُ حمـادٍ وكانت مصيبتنا بـه أمـراً كبـيرا
فردٌ شماتـة الأعـداء عنـا وأبدى بعـده علمـاً كثـيرا
رأيتُ أبا حنيفـة حـين يؤتى ويُطلب علمـه بحـراً غزيرا
إذا ما المشـكلات تدافعتهـا رجال العلم كان بها بصيرا(٣٣٢)

ويقول في مِسعَر بنِ كدام :

مـن كان ملتمساً جليساً صالحاً فليأت حلقة مِسعر بنِ كدام
فيهـا السكينـة والوقار وأهلهـا
أهل الوقار وِعليَةُ الأقوامِ (٣٣٣)

ومن شعره في التلهف على ما مضى مـن الأزمان وصالح الإخوان قوله :

ذهب الرجـال المقتدى بفعالهم والمنكرون لـكل أمـر منكرِ
وبقيت في خَلْفٍ يُزيِّنُ بعضهُم
بعضاً ليأخذَ مُعْوِرٌ عن معور
ركبوا ثَنيّات الطريق فأصبحوا متنكبين عن الطريق الأكبـر
ما أقرب الأشيـاء حين يسوقها قدرٌ ، وأبعدها إذا لم تقدر
العـلم زيـن للرجـال مروءة والعلم أنفع من كنوز الجوهر

---

(٣٣٢) تاريخ بغداد (١٣ : ٣٥٠) .

(٣٣٣) تذكرة الحفاظ (١ : ١٨٩) ولم يجزم بنسبتها إليه ، لكن جزم ابن حجر في « التهذيب » (١٠ : ١١٥) بنسبة الابيات إلى ابن المبارك .

أأُخَيَّ إنَّ من الرجال بهيمـةً   في صورةِ الرجل السميعِ المبصرِ
فطن لكــل مصيبــة في مالــه   وإذا يصاب بدينه لم يشعرِ(٣٣٤)

وفي حقيقة المحبة لله سبحانه ، وأن دعوى المحبة بــدون الاتباع والطاعة دعوى فارغة يكذّبها واقع الإنسان وحالــه ، ينسب لابن المبارك :

تَعصي الإلهَ وأنت تظهر حبَّه   هذا لعمري في الفعال بديــعُ
لو كان حبك صادقــاً لأطعته   إن المحب لمن يحب مطيع(٣٣٥)

ومن الشعر الحكيم ما أرسله إلى علي بن بشر المروزي ، يقول علي : كتب إليّ ابن المبارك هذه الأبيات :

كل العداوة قد تُرجى إماتتها   إلا عداوة من عاداك من حسدِ
فإنَّ في القلب منها عقدة عُقدتْ   وليس يفتحها راقٍ إلى الأبــدِ
إلا الإلهُ فإن يرحــمْ تُحلّ به   وإن أباه فلا ترجوه من أحدِ(٣٣٦)

---

(٣٣٤) بهجة المجالس (١ : ٧٩٩) وقد نسبت بعض هذه الأبيات إلى دعبل الخزاعي في معجم الشعراء ٣٨٣ .

وورد بعضها منسوباً إلى الحسن بن عبد الله الأصبهاني في معجم الأدباء ١٤٣/٨ وينسب بعضها لغير هؤلاء كذلك . فالله أعلم .

(٣٣٥) إحياء علوم الدين من كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا ، وقد نسبت إلى ابن المبارك .

(٣٣٦) العقد الفريد (٢ : ١٤٩) .

وله رحمه الله تعالى في هوى النفس :

ومن البلاء وللبلاء علامة　　أن لا يرى لك عن هواك نزوع
العبد عبد النفس في شهواته　　والحر يشبع تارة ويجوع[٣٣٧]

ومن شعره في الزهد والقناعة :

لله دَر القنوع من خلق　　كم من وضيع به قد ارتفعا
يضيق صدر الفتى بحاجته　　ومن تأسَّى بدونه اتسعا[٣٣٨]

ومن قوله رضي الله عنه :

الصمتُ أزين بالفتى　　من منطق في غير حينه
والصدق أجمل بالفتى　　في القول عندي من يمينه
وعلى الفتى بوقاره　　سِمة تلوح على جبينه
فمن الذي يخفى عليك　　إذا نظرت إلى قرينه
ربَّ امرىءٍ متيقنٍ　　غلب الشقاء على يقينه
فأزاله عن رأيه　　فابتاع دنياه بدينه[٣٣٩]

ومن أرق الشعر بيت كان ينشده إذا ودع شخصاً من إخوانه وهو :

وهَوَّن وجدي أن فرقة بيننا　　فراق حياة لا فراق ممات[٣٤٠]

---

(٣٣٧) ذيل الجواهر المضية (٢ : ٥٠٠) .

(٣٣٨) بهجة المجالس ٢/٣٠٤ .

(٣٣٩) حلية الأولياء (٨ : ١٧٠) .

(٣٤٠) طبقات الشعراني (١ : ٦٠) .

ومن الشعر اللطيف قوله في جارية له :

هَبَّتِ الريح من الشر ق فجاءتني بريحكْ
كيف أنساك وروحي صنعت من جنس روحك[341]

ومن الشعر الذي ينسب له :

ألم يأنِ لي منك أن ترحما وتعصِ العواذلَ واللُّوَّما
وتَرثي لصبٍ بكم مغرم أقام على هجركم مأْتمَا
يبيت إذا جَنَّه ليله يراعي الكواكبَ والأنجما
وماذا على الظبي لو أنه أحلَّ من الوصل ما حرما[342]

وكان رضي الله عنه يرى أن الذنوب تميت القلوب ، وتورث الذل ، كما يرى أن مصيبة الدين وسبب بلائه وشقائه يكون دائماً من أمراء السوء وعلماء السوء ، ولذلك كان كثيراً ما يتمثل بهذه الأبيات من كلامه :

رأيت الذنوب تميت القلوبَ وقد يورث الذلَّ إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوبِ وخير لنفسك عصيانها[343]

---

(٣٤١) الكنز المدفون والفلك المشحون « ص ٤٦ » للعلامة الشيخ يونس السيوطي المالكي تلميذ الحافظ الذهبي ، وليس للجلال السيوطي الإمام المشهور ، كما طبع منسوباً إليه .

(٣٤٢) تفسير القرطبي ١٧ : ٢٥١ .

(٣٤٣) بهجة المجالس (٢ : ٣٣٤) .

وهل بدّل الدين إلا الملوكُ وأحبار سوء ورهبانُها
لقد رتع القوم في جيفة يبين لذي العلم إنتانها (٣٤٤)

وبلغه رضي الله عنه أن إسماعيل بن علية ـ أحد أئمة الحديث في عصره ـ قد ولي الصدقات ، فكتب إليه ابن المبارك :

يا جاعل العلم له بازياً يصطاد أموال السلاطين
احتلتَ للدنيا ولذاتها بحيلة تذهب بالدينِ
فصرت مجنوناً بها بعدما كنت دواءً للمجانينِ
أين رواياتك فيما مضى عن ابن عون وابن سيرينِ
أين رواياتك في سردها في ترك أبواب السلاطينِ
إن قلت: أكرهت فما هكذا زل حمار الشيخ في الطينِ (٣٤٥)

وقال يذم الناسك الذي سكن بغداد معلماً إياه أن العبادة عند الثغور ، حيث يجمع مع العبادة الجهاد ومع العلم العمل :

أيها الناسك الذي لبس الصو فَ وأضحى يُعدُّ في العبّاد
الـزمِ الثغر والتعبّدَ فيه ليس بغداد مسكن الزهّاد
إن بغداد للملوك محلٌ ومُناخٌ للقارىء الصيّاد (٣٤٦)

---

(٣٤٤) طبقات الشعراني (١ : ٥٩) .

(٣٤٥) طبقات الشافعية الكبرى (١ : ١٤٩) .

(٣٤٦) تاريخ بغداد (١ : ٢١) . وفي بهجة المجالس (٢ : ٦٤) أن ابن المبارك نظر ببغداد إلى رجل عليه ثياب صوف ، فقال : من هذا ؟ فقيل له : هذا أبو العتاهية الشاعر . فكتب إليه هذه الأبيات .

ومن قوله في الفقراء الذين لا تعجب النـــاس مظاهرهم وصورهم ، ولم ينتشر بين الناس صيتهم وشهرتهم ، وهم مـــع ذلك ربما يكونون أفضل من ملء الأرض ممن له الجاه العريض والمال الوفير ، لأن الله لا ينظر إلى الصور والأشكال ، ولكن ينظر إلى القلوب وماحوت ، وفي هؤلاء يقول :

ألا ُربَّ ذي ِطمْرين في منزل غدا
زرابيّـــه مبثوثـــــة ونمارقـــه(٣٤٧)
قد اّطردت أنواره حـــول قصـــره
وأشرق والتفّت عليـــه حدائقه(٣٤٨)

ومن كلامه رضي الله عنه في ُقوّام الليل الذين يبيتون لله سجداً وقياماً ، أطار الخوفُ منه نوَمهم ، وسلبهم أمنهم ، فهم يعبدون الله ليلاً ونهاراً ، ويدعونه رغباً ورهباً :

إذا مـــا الليـــل أظلم كابـــدوه فيسفر عنهم وُهمُ ركـــوعُ
أطارَ الخوفُ نوَمهم فقاموا وأهل الأمن في الدنيا هجوع(٣٤٩)

وكان رضي الله عنه شديد الخوف من الله سبحانه وتعالى ، وكان إذا خرج إلى مكة ينشد :

---

(٣٤٧) الزرابي : الطنافس والبسط . والنمارق : الوسائد.

(٣٤٨) تفسير ابن كثير (٣ : ٤٤٨) .

(٣٤٩) إحياء علوم الدين (١ : ١٦٥) وتنبيه المغترين ١١٣ .

بغضُ الحياةوخوفُ اللهأخرجني | وبيع نفسي بما ليست له ثمنا
إني وزنت الذي يبقى ليعدلــه | ماليس يبقىفلاوالله ما اتزنا[٣٥٠]

وكان يقول :

أيضمن لي فتىً ترك المعاصي | وأرهَنُه الكفالــة بالخلاص
أطـــاع الله قــوم فاستراحوا | ولميتجرعواغصصالمعاصي[٣٥١]

ومن شعره رضي الله عنه :

فكيف قرّت لأهل العلم أعينهم | أو استلذوا لذيذ النومأوهجعوا
والنار ضاحية لا بد مَوْردُها | وليس يدرونمن ينجو ومنيقعُ
وطارتالصحففيالأيدي منشَّرة | فيها السرائر والجبــار مطلعُ
إما نعيمٌ وعيشٌ لاانقضاء لــه | أو الجحيمُ فلا تبقي ولا تدعُ
تهوي بساكنها طوراً وترفعــهُ | إذا رَجوا مخرجاًمن غيهاُمنعوا
لينفــع العلمُ قبل الموتِ عالمَه
قد سال قوم بها الرجعى فما رجعوا[٣٥٢]

ومن شعره الذي يدل على سعة كرمه :

---

(٣٥٠) وفيات الأعيــان (٢ : ٢٣٩) وشــذرات الــذهب (١ : ١٩٦) .

(٣٥١) أدب الدنيا والدين : ٨٨ .

(٣٥٢) سير أعــلام النبلاء ـ مصور مخطوط ـ (المجمــع) (٦ : ٢٥٥) . وسال : أي سأل .

أحضر طعامك وابذله لمن أكلا   واحلف على من أبى واشكر لمن فعلا
ولا تكن سابري العرض محتشماً   من القليل فلست الدهر محتفلا(٣٥٣)

وكان عند الفضيل بن عياض فقال له قائل : إن أهلك وعيالك قد احتاجوا ، مجهودين محتاجين إلى هذا المال ، فاتق الله وخذ من هؤلاء القوم • فزجره ابن المبارك وأنشأ يقول :

خذ من الجاروش والآرزّ والخبز الشعير(٣٥٤)
واجعلنْ ذاك حلالاً تنجُ من حر السعير
وانأَ ماسطعت ـ هداك الله ـ عن دار الأمير
لا تزرْها واجتنبْها إنها شرّ مزور
تُوهن الدين وتدنيك من الحُوب الكبير
قبل أن تسقط يا مغرورُ في حفرة بير
وارضَ ياويحك من دنياك بالقوت اليسير
إنها دار بلاءٍ وزوالٍ و غرور
ما ترى قد صرعتْ قبلك أصحاب القصور
كم ببطن الأرض من ثاوٍ شريفٍ ووزير

---

(٣٥٣) بهجة المجالس (٢ : ٨٥) .
والسابري : ثوب رقيق جيد نادر ولهذا يرغب فيه الناس مهما كان عرضه ضئيلاً . ومن هنا أخذ هذا التعبير . ومعناه : لا يكن عرضك في الافضال ضيقاً كالثوب السابري .

(٣٥٤) الجاروش : الذي لم ينعم دقه من الحبوب .

وصغير الشأن عبدٍ خاملِ الذكر حقير
لو تصفّحت وجوه القوم في يوم نضير
لم تميزهم ولم تعرف غنياً من فقير
خمدوا فالقوم صرعى تحت أشقاق الصخور
واستووا عند خبير بمساويهم خبير
احذر الصرعة يا مسكين من دهر عثور
أين فرعون وهامان ونمرود النسور
أوَما تحذر من يوم عبوسٍ قمطرير [٣٥٥]
اقمطرَّ الشرُّ فيه بعذاب الزمهرير

قال : فغشي على الفضيل ، فرد ذلك ولم يأخذه[٣٥٦] .

وله أيضاً :

ياعاتب الفقر ألا تزدجرْ	عتب الغنى أكثر لو تعتبرْ
من شرف الفقر ومن فضله	على الغنى لو صحمنك النظر
أنك تعصي لسؤال الغنى	وليس تعصي الله كي تفتقر[٣٥٧]

---

(٣٥٥) قمطرير : شديد . واقمطر : اشتد .

(٣٥٦) سير أعلام النبلاء (٦ : ٢٥٦) .

(٣٥٧) المرجع السابق (٦ : ٢٥٦) . قلت : ومعنى هذه الأبيات مأخوذ من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ يقول : « من نبل الفقر أنك لا تجد أحداً يعصي الله ليفتقر » وقد نسبت هذه الأبيات في أدب الدنيا والدين (١٩٩) لمحمود الوراق .

وأنشد ابن المبارك أخاً له كان يصحبه هذه الأبيات ، وكان كثيراً ما يتمثل بها :

اغتنم ركعتين زلفى إلى الله إذا كنت فارغاً مستريحاً
وإذا ماهممت بالنطق بالباطل فاجعل مكانه تسبيحاً
فاغتنام السكوت أفضل من خوضٍ وإن كنت بالكلام فصيحاً(٣٥٨)

وفي صنع المعروف يقول :

يد المعروف غنمٌ حيث كانت تحمَّلها شكورٌ أو كفورُ
ففي شكر الشكور له جزاء وعند الله ما كفر الكفور(٣٥٩)

وحُفر حصن بخراسان ، فأصابوا فيه رأس إنسان ، فوزنوا سناً من أسنانه فوجدوها قدر مَنَيين(٣٦٠) فأنشأ ابن المبارك يقول :

أتيتُ بسنَّينٍ قد رُمَّتا من الحصن لما أثاروا الدفينا
على وزن منيينِ إحداهما تقلّ به الكف شيئاً رزينا
ثلاثون أخرى على قدرها تباركت يا أحسن الخالقينا
فماذا يقوم لأفواههم وماكان يملأ تلك البطونا

---

(٣٥٨) طبقات الشافعية الكبرى (١ : ١٥٠) . وبهجة المجالس ١/٨١ .

(٣٥٩) بهجة المجالس وانس المجالس لابن عبدالبر(١ : ٣٠٧).

(٣٦٠) المنيان او المنوان : مثنى منا ، وهو قطعة من الحديد كان يوزن بها .

إذا مـــا تذكــرت أجسامهــم تقاصرت النفس حتى تهونــا
وكل علــى ذاك ذاق الــردى وبادوا جميعاً فهل خالدونا[٣٦١]

وقد سبقت أبياته التي قالها في وصف هيبة الإمام مالك ووقاره ، ثم في رثائه له • كما سبقت أبياته في عمرو بن عبيد ، ثم التبرؤ ممن شتم الصحابة والرد على من يتجرأ على ذلك • وبذلك نكون قد عرضنا نماذج من شعره يتجلّى فيها أدب ابن المبارك وشاعريته ، والأغراض التي كان يدور حول محورها • رحمه الله ورضي عنه •

مِن أقوالِهِ وَحِكَمِهِ

أقوال المرء صورة لروحه ، ومرآة لنفسه ، ينعكس فيهــا ما يكنه الضمير ، وما يهفو إليه الوجدان • وقد عرفتَ شيئاً عن ابن المبارك ، فما عساه أن يقول إلا ما يعبّر عــن حكمة عالية ، أو نظرة دقيقة ينظر فيها بنور الله • فلو جمعت كلماته لكانت نظرات فيلسوف ؛ ولكنها الفلسفة المؤمنة التي ما ينطق صاحبها عن الهوى ، إن هو إلا الاتباع لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ اتباع العارف بأسرار شرعه ، الغارف من بحر معرفته ؛ حيث ترى النظرات الإيمانية الدقيقة التي يمليهــا الورع والتقى ،

---

(٣٦١) بهجة المجالس ١٥٥/٢ .

والنظرات الاجتماعية الصائبة التي تمليها الملاحظة والتجربة ، والنظرات الصوفية البعيدة التي يمليها العلم والمعرفة ، إلى غير ذلك من النظرات . فأنت تنتقل بين أقواله من ثمرة إلى ثمرة ، ومن زهرة إلى زهرة . ثمرات العلم والتقى ، وزهور الأخلاق والفضيلة ، فكأنك في حدائق ذات بهجة .

فمن أقواله :

كم من حامل للقرآن والقرآن يلعنه من جوفه ، وإذا عصى حامل القرآن ربه ، ناداه القرآن من جوفه : والله ما لهذا حملت ، ألا تستحي من ربك[٣٦٢] ؟.

ومن أقواله : الدنيا سجن المؤمن ، وأعظم أعماله في السجن الصبر وكظم الغيظ ، وليس للمؤمن في الدنيا دولة ، وإنما دولته في الآخرة[٣٦٣] .

وكان يقول : إذا غلبت محاسن الرجل لم تذكر المساوىء ، وإذا غلبت المساوىء على المحاسن لم تذكر المحاسن[٣٦٤] .

وقال رجل لابن المبارك : بقي من ينصح ؟ قال : فهل بقي من يقبل ؟ [٣٦٥] .

---

(٣٦٢) تنبيه المغترين ١٨١ .

(٣٦٣) تنبيه المغترين ٨٣ . والمراد بالدولة هنا الرخاء والسرور .

(٣٦٤) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٥) .

(٣٦٥) حلية الأولياء (٨ : ١٦٦) .

وعن سنيد بن داود قال : سألت ابن المبارك : من الناس ؟ فقال : العلماء . قلت : فمن الملوك ؟ قال : الزهاد . قلت : فمن السّفلة ؟ قال : الذين يعيشون بدينهم[٣٦٦] .

وكان يقول : على العاقل أن لا يستخف بثلاثة : العلماء ، والسلطان ، والإخوان ؛ فإن من استخف بالعلماء ذهبت آخرته ، ومن استخف بالسلطان ذهبت دنياه ، ومن استخف بالإخوان ذهبت مروءته[٣٦٧] .

وسئل : ما خير ما أعطي الإنسان ؟ قال : غريزة عقل . قيل فإن لم يكن ؟ قال : حسن أدب . قيل فإن لم يكن ؟ قال : أخ شفيق يستشيره . قيل : فإن لم يكن ؟ قال : صمت طويل . قيل : فإن لم يكن ؟ قال : موت عاجل[٣٦٨] .

ومر براهب عند مقبرة ومزبلة فقال : ياراهب عندك كنز الرجال و كنز الأموال وفيهما يعتبر[٣٦٩] .

ومن أقواله : لو أن رجلين اصطحبا في الطريق ، فأراد

---

(٣٦٦) حلية الأولياء (٨ : ١٦٧) .

(٣٦٧) الطبقات الكبرى للشعراني (١ : ٦٠) .

(٣٦٨) سير اعلام النبلاء (٦ : ٢٥١) .

(٣٦٩) المرجع السابق (٦ : ٢٥٤) .

أحدهما أن يصلي ركعتين ، فتركهما لأجل صاحبه كان ذلك رياء . وإن صلاهما من أجل صاحبه فهو شرك[٣٧٠] .

وسئل رضي الله عنه عن قول لقمان لابنه : إن كان الكلام من فضة فإن الصمت من ذهب ؛ فقال : معناه لو كان الكلام بطاعة الله من فضة ، فإن الصمت عن معصية الله من ذهب[٣٧١] .

ومن أقواله : إن الرجل ليطوف بالبيت وهو بخراسان . فقيل له : وكيف ذاك؟ قال : يحب أن يذكر أنه مجاور بمكة[٣٧٢] . ومن أقواله : من دخل النار بالمعاصي الظاهرة أخف ممن دخلها بالرياء والسمعة[٣٧٣] .

وكان يقول : ليس من الدنيا إلا قوت اليوم فقط[٣٧٤] .

ومن أقواله : من صبر فما أقل ما يصبر ، ومن جزع فما أقل ما يتمتع[٣٧٥] .

---

(٣٧٠) حلية الأولياء (٨ : ١٧١) .

(٣٧١) جامع العلوم والحكم ص ١١٧ . وهذا يرجع إلى أن الكف عن المعاصي أفضل من عمل الطاعات .

(٣٧٢) إحياء علوم الدين (٣ : ٢٩٧) ، وذلك لأن الرياء يحبط العمل ويبطل ثوابه .

(٣٧٣) تنبيه المغترين ٩٥ .

(٣٧٤) طبقات الشعراني (١ : ٦٠) .

(٣٧٥) جامع العلوم والحكم ص ١٧٢ .

وقال له رجل : أوصني . فقال له : اترك فضول النظر توفق للخشوع ، واترك فضول الكلام توفق للحكمة ، واترك فضول الطعام توفق للعبادة ، واترك التجسس على عيون الناس توفق للاطلاع على عيوب نفسك ، واترك الخوض في ذات الله توق الشك والنفاق[٣٧٦] .

وكان رضي الله عنه يقول : أربع كلمات انتخبن من أربعة آلاف حديث : لا تثقنّ بامرأة ، ولا تغترن بمال ، ولا تحمّل معدتك مالا تطيق ، وتعلم من العلم ما ينفعك فقط[٣٧٧] .

وقال له رجل : إني لأرى نفسي أحسن حالاً ممن قتل نفساً ظلماً . فقال له: إن أمنك على نفسك لشر ممن قتل نفساً ظلماً[٣٧٨] .

ومن كلامه المؤثّر : إن العلماء ورثة الأنبياء فإذا كانوا على طمع فبمن يُقتدى ؟ والتجار أمناء الله فإذا خانوا فمن يؤتمن ؟ والغزاة أضياف الله فاذا غلّوا فبمن يظفر على العدو ؟ والزهاد ملوك الأرض فإذا كانوا ذوي رياء فمن يتبع ؟ والولاة رعاة الأنام فإذا كان الراعي ذئباً فبمن تحفظ الرعية ؟[٣٧٩] .

---

(٣٧٦) تنبيه المغترين ٨٨ .

(٣٧٧) طبقات الشعراني (١ : ٥٩) .

(٣٧٨) تنبيه المغترين ١٦٦ .

(٣٧٩) ذيل الجواهر المضية (٢ : ٥٣٠) .

وحدّث ابن المبارك عن أبي بكر بن عياش قال : اجتمع أربعة ملوك : ملك فارس وملك الروم وملك الهند وملك الصين، فتكلموا بأربع كلمات كأنما رُمي بهنّ عن قوس واحدة . فقال أحدهم : أنا على قول ما لم أقل أقدر مني على رَدّ ما قلت . وقال الآخر : الكلمة إذا قلتها ملكتني وإذا لم أقلها ملكتها . وقال الآخر : لا أندم على قول ما لم أقل وقد أندم على ما قلت . وقال الآخر : عجبت لمن يتكلم بالكلمة إن رفعت عليه ضرته وإن لم ترفع عليه لم تنفعه[٣٨٠] .

وسترى كثيراً من أقواله منثورة خلال الصفحات المقبلة فلا نرى ضرورة لذكرها هنا لئلا تتكرر هناك .

* * *

---

(٣٨٠) حلية الأولياء (٨ : ١٧٠) .

الفصل الرابع
حياة ابن المبارك العملية

تمهيـد

رأيتَ ابن المبارك الإمام البارع ، والمحدث الثقة ، والفقيه المبرز ،ورأيت مكانته في العلم وعظيم منزلته . ولكن ابن المبارك عرف أن العلم ليس إلا طريقاً للعمل ، فهو لم يتعلم العلم ليجاري به العلماء ، ولا ليماري به السفهاء ، ولا ليلفت إليه الأنظار ويشار إليه بالبنان . فالعلم منذ خلقه الله طريق العمل . على هذا الأساس طلبه الصحابة رضوان الله عليهم وعلى من نهج نهجهم بإحسان ، وعلى هذه الطريق كان العلم فريضة على كل مسلم . أما العلم الذي لا يرافقه عمل ، بل ليست غايته العمل ، فهو علم لا يزيد من الله إلا بعداً ، ولا يستجلب منه إلا المقت والسخط . فالعلم الذي يأمر به الله ، ويحض عليه رسوله ، هو العلم الدالّ على الآخرة ، المعرّف بالله سبحانه ، وهذا هو العلم الذي رتب الله عليه الفضل ، وجاءت بمدحه الأحاديث الكثيرة .

وفي ذلك يقول حجة الاسلام : المراد بالعلم في هذه الأخبار

كلها العلم النافع ، المعرِّف للصانع ، والدال على طريق الآخرة ، فهو الذي نفعه عظيم وأجره عميم . أوحى الله إلى داود : تعلم العلم النافع . قال : ما العلم النافع ؟ قال : أن تعرف جلالي وعظمتي وكبريائي وكمال قدرتي على كل شيء ، فهذا الذي يقربك إليّ . وقال علي كرم الله وجهه : ما يسرني لو متّ طفلاً وأدخلت الجنة ، ولم أكبر فأعرف ربي ، فإن أعلم الناس بالله أشدهم خشية ، وأكثرهم عبادة ، وأحسنهم في الله نصيحة . فمن طلب العلم ليصرف به الوجوه إليه ، ويجالس به الأمراء ، ويباهي النظراء ، ويتصيد الحكام ، فتجارته بائرة ، وصفقته خاسرة[1] .

فابن المبارك عمل بما علم حتى لا يكون علمه حجة عليه يوم القيامة ؛ يوم لا ينفع إلا قلب سليم وعمل متقبل . وقد كان رضي الله عنه يرى أن الزيادة في العلم ينبغي أن تتبعها زيادة في العمل ، وإلا فلا فائدة في العلم ، وقد كان يلتزم هذا في نفسه ، وينبه الناس إليه بسلوكه وبكلامه ، ومن حكاياته النافعة التي توجه إلى هذا المعنى : أن رجلاً كان ذا مال ، لم يسمع بعالم إلا أتاه حتى يقتبس منه ، فسمع أن في موضع كذا عالماً ، فركب السفينة إليه ، وفيها امرأة فقالت : ما أمرك يا هذا ؟ قال : إني مشغوف بحب العلم ، وقد سمعت أن في موضع كذا عالماً ، فأريد أن آتيه ؛ قالت : يا هذا كلما زيد في علمك تزيد في عملك ، أو تزيد

---

(1) فيض القدير (٢ : ١٨) .

في علمك والعمل موقوف ؟ فاتنبه الرجل ، ورجع وأخذ في العمل [٢] .

وسنرى في الصفحات المقبلة إلى أيّ حد عمل ابن المبارك بعلمه . وإذا كنت قد عرفت شيئاً عن سعة علمه ، فيمكنك أن تتصور شدة اجتهاده في العمل لتطبيق ذلك العلم .

ونسارع فنقول: إن ابن المبارك قد جمع كل خصلة محمودة، حتى أصبحت سيرته نسيماً تستروح به القلوب، وتنشرح له الصدور، وتتلذذ به النفوس ، حتى قال فيه إسماعيل بن عياش :

ما على وجه الأرض مثل عبد الله بن المبارك ، ولا أعلم أن الله خلق خصلة من خصال الخير إلا وقد جعلها في عبد الله ابن المبارك[٣] .

وليس عجيباً أن تجتمع الفضائل كلها في رجل ، لأن جميع الفضائل مستمدة من كتاب الله تعالى وسنة نبيه الكريم وسيرته . فمن جعل ذلك قدوته وإمامه في كل أمر كبير وصغير ، اجتمعت فيه خصال الخير وأنواع المحامد ؛ حتى ليتقرب الناس بحبه إلى الله تعالى ، بل حتى يتقرب العلماء والصلحاء بحبه إلى الله تعالى ، كما كان الحال في إمامنا ابن المبارك رضي الله عنه ؛ وذلك لعبادته وتقواه وصلاحه واجتهاده في العمل والجهاد في سبيل الله .

---

(٢) اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي ص ١٩٠ .

(٣) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٧) .

ويكفي أن نجمل هنا فضله وتقواه بما ورد عن ابن عيينة قال : نظرت في أمر الصحابة وأمر ابن المبارك ، فما رأيت لهم عليه فضلاً ، إلا بصحبتهم النبي صلى الله عليه وسلم وغزوهم معه[٤].

زُهْـــدُه

زهد وترف

رأيتَ أن ابن المبارك قضى معظم حياته في عصر الحكم العباسي ، عصر المادية الجارفة والمال الوفير . وقد كان ذلك العصر يمثل الذروة في كثرة المال وأدوات الترف ، فنشأت طبقة المترفين، واشتدت الاغراءات المادية ، وظهر انهيار الأخلاق ، وخمـود العاطفة ، وضعف الشعور الديني . وأصبحت الأمة الاسلامية معرضة لكارثة أليمة ، كارثة الإفلاس في الروح والإيمان، والجري وراء الحياة المادية الحلوة الخَضِرة . وكارثةُ المادية ليست أقلَّ خطراً من الخطر الخارجي والعدوان العسكري .

وقد نبّأ بهذا الخطر لسان النبوة قبل وقوعه . فقد أنذر الرسول عليه الصلاة والسلام المسلمين بهذا الخطر وقـال : « ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم

---

(٤) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٣) .

الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم ، فتتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم »[٥] •

لقد وقع هذا الخطر الذي تخوفه الرسول الكريم على هذه الأمة ، وقد بلغ ذلك أوجــه في عصر ابن المبارك ، حيث كثرت الأموال ، وبسطت الدنيا ، وازدادت زخارف الحياة • فأسرع الناس وراء الشهوات وتفننوا في اللهو والسرف، والبذخ والترف، وانطلق الناس يعبثون بالأموال ، ويغترفون من لذائذ الحياة ، وكان هذا نذيراً للناس بالدمار والانهيار السريعين ؛ لولا أن قيّض الله رجالاً انقطعوا إلى الدعوة إلى الله وتزكية النفوس ، ونشر العلوم الدينية ، والعكوف على العلم والتعليم • وقد ثاروا على هذه الحياة المادية ، وترفعوا عن إغراءاتها المتعددة ، فانحسرت عنهم أمواجها ، وارتدت خائبة حسيرة وكأنها لم تجد إلى قلوبهم المؤمنة سبيلاً •

لقد كان أولئك الرجال الذين شغلوا بالمحافظة على روح الأمة وصلتها بالله ، وبالمحافظة على منابع الحياة الاسلامية ، كانوا جزراً بشرية في بحر المادية المائج يأوي إليها الغرقى والتائهون كما سبق أن بينا ذلك عند بحثنا عن العصر الاجتماعي • وقد كان من أولئك الرجال الزهاد ، والعلماء المخلصين ، والدعاة الكبار الذين

(٥) صحيح مسلم « كتاب الزهد » .

زهدوا في حطام الدنيا وتمردوا على الشهوات ، فكان لسيرتهم الطيبة وحياتهم النزيهة الأثر الكبير في إصلاح المجتمع ؛ لقد كان من هؤلاء الإمام الزاهد عبد الله بن المبارك رضي الله عنه .

حقيقة الزهد

نحن أمام زاهد حقيقي عرف حقيقة الزهد، ونفذ من مظاهره وقشوره إلى قلبه ولبه ، وإذا كان يحلو لبعض الناس أن يفهم الزهد على أنه رفض للدنيا ، واعتزال للناس ، واعتماد على هبات المحسنين والمتصدقين ، فيعتزل في بيته ، وينطوي على نفسه ، ليكون متعبداً لله ومشتغلاً بخويصة نفسه ، تاركاً الدنيا ، لا يجدّ فيها ولا يعمل وكأن الدنيا خلقت لغيره . فإن ابن المبارك لم يفهم الزهد كذلك ، إنه فهم الزهد على أن تجدّ في الحياة ، فتكسب المال وتتاجر في البلدان تبتغي من فضل الله ورزقه ، فإذا صار المال إليك أنفقته في سبيل الله ، واستعنت به على طاعة ربك ، لا ترى محتاجاً إلا ساعدته ، ولا مريضاً إلا واسيته ، ولا مسكيناً إلا أعنته ، ولا حقاً لله إلا أديته . لقد فهم الزهد هذا الفهم العالي ، فجدّ في الحياة وتاجر بالبضائع وكسب المال ، ولكن لا ليركمه في الصناديق ، ولا ليشتري به لذات الدنيا العاجلة ، بل كسبه ليصون به وجهه ، ويكرم به عرضه ، ويستعين به على طاعة ربه ، وينفقه في وجوه الخير . والاسلام لا يحرّم

على الناس أسباب الغنى ، ولا يمنعهم من البيع والشراء . وقد تاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتسب وأنفق ، وتاجر أبو بكر رضي الله عنه واكتسب وأنفق ، وتاجر الصحابة رضي عنهم ؛ ولكنه يحرم أن يستغني الإنسان بماله عن الله ، وأن يشغله الفرح بالمال عن حق الله فيه ، يقول الإمام الغزالي(٦) : « قد سمّى الله المالَ خيراً في مواضع من كتابه العزيز ، فقال عز وجل : إن ترك خيراً الوصية . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم المال الصالح للرجل الصالح (٧) » . ويقول ابن عطاء الله السكندري(٨) بعد أن ذكر قوله تعالى : « في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال. لاتلهيهم تجارة" ولابيع" عن ذكر الله..»: لم ينف عنهم الأسباب ولا التجارة ولا البيع ولا الشراء ، فلا يخرجهم عن المدحة غناهم إذا قاموا بحقوق مولاهم » .

هكذا فهم الصحابة والسلف رضي الله عنهم الزهد ، وهم أزهد الزاهدين ، وقد وجد منهم تجار ، ووجد منهم أغنياء ، ولكنهم مع ذلك كانوا زهاداً ، وذلك أنهم جعلوا المال في أكفهم ،

---

(٦) إحياء علوم الدين (٢ : ٢٣٤) .

(٧) اخرجه الإمام احمد والطبراني بسند صحيح .

(٨) تاج العروس ص ٥١ .

وفرّغوا قلوبهم لله وحده ، فإذا أدبرت الدنيا عنهم صبروا وما كفروا، وإذا أقبلت عليهم شكروا وما بطروا، وتصرفوا فيها تصرف الخازن الأمين ، ممتثلين قول الله عز وجل : « وأنفقوا ممّا جعلكم مستخلَفين فيه» .ولما كانت الدنيا في أيديهم لا في سويداء قلوبهم، هان عليهم أن يخرجوا عن أموالهم ابتغاء وجه الله ، وأن يبذلوها في سبيله يرجون رحمة من الله ورضواناً . فليس كل طالب للدنيا مذموماً ، بل المذموم من طلبها ولم يعرف حق الله فيها ، كما أنه ليس كل معرض عن الدنيا ممدوحاً . وفي هذا المعنى يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه : لو أن رجلاً أخذ جميع ما في الأرض وأراد به وجه الله تعالى فهو زاهد ، ولو أنه ترك الجميع ولم يرد به وجه الله تعالى فليس بزاهد(٩) .

فابن المبارك طلب الدنيا لا لنفسه بل لله ، لينفقها في سبيله ثم ليصون بها ماء وجهه عن أن يراق على أبواب السلاطين وأعتاب الأغنياء ، وليربأ بنفسه من أن تمتد يده إلى مخلوق بسؤال ، حدّث علي بن الفضيل بن عياض قال : سمعت أبي وهو يقول لابن المبارك : أنت تأمرنا بالزهد والتقلل والبُلغة ونراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام ، كيف ذا ؟! فقال ابن المبارك : يا أبا علي ، إنما أفعل ذا لأصون به وجهي ، وأكرم به

---

(٩) إحياء علوم الدين (٣ : ٢٦٤) .

عرضي ، وأستعين به على طاعة ربي ، لا أرى لله حقاً إلا سارعت إليه حتى أقوم به • فقال له الفضيل : يا ابن المبارك ما أحسن ذا إن تمّ ذا ![10] وكان رضي الله عنه يقول : لا يُخرج العبدَ عن الزهد إمساكُ الدنيا ليصون بها وجهه عن سؤال الناس[11] •

زاهد غني

فهو زاهد لكنه غني ، وله أموال وفيرة وتجارة واسعة لكنه زاهد ، وقد كان له رأس مال نحو أربعمائة ألف يتجر بـه في البلدان ، وكان يربو كسبه في كل سنة على مائة ألف ينفقها كلها في أهل العبادة والزهد والعلم ، وربما أنفق من رأس ماله[12] • وكانت سُفرته تحمل على بعير وحدها ، وفيها من أنواع المأكول من اللحم والدجاج والحلوى وغير ذلك • ثم يطعم الناس وهو الدهرَ صائم في الحر الشديد[13] ، وقد صحبه قوم من مصر إلى مكة ، فكان يطعمهم الخبيص وهو الدهر صائم[14] •

---

(١٠) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٠) •

(١١) طبقات الشعراني (١ : ٦٠) •

(١٢) البداية والنهاية (١٠ : ١٧٧) •

(١٣) المرجع السابق (١٠ : ١٧٨) •

(١٤) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٧) . والخبيص : طعام يصنع من التمر والسمن •

هذا هو الزهد الحقيقي ، زهد الاختيار لازهد الاضطرار ، وزهد الغنى لازهد الفاقة والحرمان ، ولربَّ غني واسع الغنى كعثمان والزبير وابن عوف كان أزهد في الدنيا من كثيرين ممن يلبسون مرقّعات الصوف ، ويكتفون بالخبز والملح ، وينامون على التراب ، وقلوبهم متعلقة بالدنيا ، وأنظارهم شرهة إلى ما في أيدي الأغنياء . يقول حجة الاسلام الغزالي (١٥) : « إن الزهد عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولاً إلى الآخرة ، أو عن غير الله تعالى عدولاً إلى الله تعالى ، وهي الدرجة العليا . وكما يشترط في المرغوب فيه أن يكون خيراً عنده ، فيشترط في المرغوب عنه أن يكون مقدوراً عليه ، فإنَّ تَرْكَ مالايقدر عليه محال ، وبالترك يتبين زوال الرغبة » .

فليس الزهد في الدنيا أن يزهد فيها الإنسان وهي عنه مدبرة فهذا زهد الاضطرار ، وكذلك فليس الغنى مانعاً من الزهد لأن الزهد محله القلب ، وكم من مَدعيٍّ للزهد والطمع يملك قلبه ، وما أحسن قول ابن القيم في ذلك إذ يقول :

« الزهد فراغ القلب من الدنيا لا فراغ اليد منها ، وقد جهل قوم فظنوا أن الزهد تجنّب الحلال ، فاعتزلوا الناس ، فضيّعوا الحقوق ، وقطعوا الأرحام ، وجفَوا الأنام ، واكفهروا

---

(١٥) إحياء علوم الدين (٤ : ٢١٧) .

في وجوه الأغنياء ، وفي قلوبهم شهوة الغنى أمثال الجبال ، ولم يعلموا أن الزهد إنما هو بالقلب ، وأن أصله موت الشهوة القلبية، فلما اعتزلوها بالجوارح ظنوا أنهم استكملوا الزهد ، فأداهم ذلك إلى الطعن في كثير من الأئمة[16] » .

سبب الزهد

الزهد ثمرة العلم الرباني الذي يعرف به العالم مكانة الدنيا ومكانة الآخرة ، ويوازن به بينهما ، ثم يصل إلى أن يبصر التفاوت الكبير بين الدنيا والآخرة ، بين الحقير الفاني والباقي الخالد . ومتى علم الإنسان أن ماعنده يفنى ويزول ، وأن ما عند الله خير وأبقى ، وأيقن قلبه بذلك ، زهد في الدنيا وأقبل على الآخرة ، لأنها خير ثواباً وخير أملاً . وإنما قلنا : العلم الرباني ؛ لأنه هو وحده الذي يحمل صاحبه على الموازنة بين الدنيا والآخرة ، أما سوى هذا العلم فيحمل صاحبه على التهاون والغفلة والغرور ، ويغمسه في حب الجاه والشهرة ..

وقد كان ابن المبارك رضي الله عنه يرى الزهد من لوازم العلم ، وكان يقول : من شرط العالم أن لا تخطر محبة الدنيا على باله . ويقول : كيف يدّعي رجل أنه أكثر علماً وهو أقل

---

(١٦) فيض القدير (٤ : ٧٣) .

خوفاً وزهداً[١٧] ؟ وقد قيل له : كيف يعرف العالم الصادق ؟ فقال : الذي يزهد في الدنيا ويقبل على أمر آخرته[١٨] . ومن كلامه في ذلك : تعلمنا العلم للدنيا فدّلنا على ترك الدنيا[١٩] . وكان يقول : جمعت علم العلماء فليس فيما جمعت أحب إليّ من علم الفضيل بن عياض[٢٠] . وسئل رضي الله عنه : ما ينبغي للعالم أن يتكرم عنه ؟ قال : ينبغي أن يتكرم عما حرم الله تعالى عليه ، ويرفع نفسه عن الدنيا فلا تكون منه على بال[٢١] . وكان يقول : عجبت لطالب العلم ؛ كيف تدعوه نفسه إلى محبة الدنيا مع إيمانه بما حمل من العلم[٢٢] . وسئل ما ينبغي أن يجعل عظة شكرنا له : قال : زيادة آخرتكم ونقصان دنياكم ، وذلك أن زيادة آخرتكم لا تكون إلا بنقصان دنياكم ، وزيادة دنياكم لا تكون إلا بنقصان آخرتكم[٢٣] . فالعلم من شأنه أن يزهّد في الدنيا ويرغّب في الآخرة ، ومن هنا كان لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، وكان الذين يخشون الله من عباده هم العلماء .

---

(١٧) طبقات الشعراني (١ : ٥٩) .

(١٨) الورع لاحمد بن حنبل ص ٧٤ .

(١٩) وفيات الأعيان (٢ : ٢٣٩) .

(٢٠) حلية الأولياء (٨ : ١٦٨) .

(٢١) المرجع السابق (٨ : ١٦٦) .

(٢٢) طبقات الشعراني (١ : ٦٠) .

(٢٣) حلية الأولياء (٨ : ١٦٧) .

وإن الموازنة بين مكانة الدنيا ومكانة الآخرة إذا كانت صحيحة فلا بد أن تؤدي بصاحبها إلى الزهد في الدنيا واحتقارها وتسخير كل ما فيها ليكون وسيلة إلى الآخرة ، وذلك لاشتداد الفارق واتساعه . فالدنيا ــ كما يقول الغزالي ــ كالثلج الموضوع في الشمس لا يزال في الذوبان إلى الانقراض ، والآخرة كالجوهر الذي لا فناء له ، ولا يعسر على مالك الثلج بيعه بالجواهر واللآلىء ، فبقدر قوة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوى الرغبة في البيع والمعاملة ، حتى إن من قوي يقينه يبيع نفسه وماله كما قال الله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة » ثم بين أن صفقتهم رابحة ، فقال : « فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به » . فليس يحتاج من العلم في الزهد إلا إلى هذا القدر ، وهو أن الآخرة خير وأبقى ، وقد يعلم ذلك من لا يقدر على ترك الدنيا إما لضعف علمه ويقينه ، وإما لاستيلاء الشهوة في الحال عليه وكونه مقهوراً في يد الشيطان ، وإما لاغتراره بمواعيد الشيطان في التسويف يوماً بعد يوم إلى أن يختطفه الموت ، ولا يبقى معه إلا الحسرة بعد الفوت[٢٤] .

ولقد دلّ ابنَ المبارك علمُه على تفضيلِ الآخرة وجَعْلِ الدنيا طريقاً لها ، فوازن بين الدنيا دار البلاغ وبين الآخرة دار

---

(٢٤) انظر إحياء علوم الدين (٤ : ٢١٧) .

القرار ، فوجد أن الدنيا الفانية لا تعدل الآخرة الباقية الخالدة ونعيمها المقيم ، وما فيها مما لم تره عين ولم تسمعه أذن ولم يخطر على قلب مخلوق ، ولأجل هذا كان ينشد إذا خرج إلى مكة :

بغضُ الحياة وخوفُ الله أخرجني
وبيــعُ نفسي بما ليست لــه ثمنا
إني وزنت الــذي يبقى ليعدلــه
ماليس يبقى فــلا والله ماتزنا (٢٥)

عرف ابن المبارك بعد هذه الموازنة بين الدنيا والآخرة أن الدنيا لا تعدل عند الله جناح بعوضة ، وأنَّ من عظَّم الدنيا فهو أحقر من جناح البعوضة ، ولذلك كان قدوة الزاهدين وإمامهم ، ومضرب المثل فيهم ، حتى ليقول فيه الإمام الزاهد التقي الورع الفضيل بن عياض : وربِّ هذا البيت ما رأت عينايَ مثل ابن المبارك(٢٦) .

ومع كل هذا الزهد كان لإخلاصه وتقواه رضي الله عنه وأرضاه لا يدعي الزهد ، ولا يحب أن يعرف الناس فيه ذلك ، ويرى نفسه أقلَّ من أن يكون زاهداً ، فقد قيل له مرة : يازاهد . فقال : الزاهد عمر بن عبد العزيز إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها ،

---

(٢٥) شذرات الذهب (١ : ١٩٦) ووفيات الأعيان (٢:٢٣٩).

(٢٦) المرجع السابق .

وأما أنا ففي ماذا زهدت[٢٧]؟! وكان يقول : أفضل الزهد إخفاء الزهد[٢٨] .

هذا هو ابن المبارك الزاهد الغني ، الذي جاءته الدنيا بمالها ومتاعها ، فما جعل لها مكاناً من قلبه ، ولا حظاً من نفسه ، ولم يكن زهده قولاً لا يصدقه العمل ، ولا فكرة نظرية فلسفية لم تقترن بتنفيذ ، وسترى في روايات جوده وإنفاقه ما يظنه الناس من الأساطير والخيال ، مع أنه الواقع والحقيقة التي تشهد بها المراجع الأمينة ، والمصادر الموثوقة .

كَرَمُه

تعوَّدَ بسط الكفّ حتى لو انه ... أراد انقباضاً لـم تطعهُ أناملهْ
ولولم يكن في كفه غيرُ روحـِه ... لجاد بهـا ، فليتقِ الله سائلــهْ

ألا ما أصدق هذا القول من الشاعر لو كان في الإمام عبدالله ابن المبارك رضي الله عنه ، فقد رأيت أنه كان غنياً واسع الغنى ، وأنه كانت له تجارة واسعة يدور بها في البلدان ، وأن رأس ماله كان أكثر من أربعمائة ألف ، وأن كسبه كان يربو في كل سنة على مائة ألف . ولكن غناه هذا لم يكن إرثاً عن أبيه ، فأبوه كان ـ

---

(٢٧) إحياء علوم الدين (٤ : ٢١٧) .

(٢٨) ادب الدنيا والدين ص ٩٥ .

كما سبق ــ ناطوراً في بستان ولم يكن من أرباب الأموال . ولم ينله من هبات الحكام ، فما كان لمثل ابن المبارك أن يقبل عطايا السلاطين . ولكنه جمع هذا المال من عمل يده وكسب يمينه ، جمعه لا ليخلفه إرثاً لمن بعده، ولا ليركمه في الصناديق، ولا ليبذره في الحصول على الأثاث والرياش والتحف النفيسة . لقد كان ابن المبارك أعقل من ذلك ، فما كان له ــ وهو الورع العاقل الزاهد التقي الذي باع دنياه بآخرته ، وآثر ما يبقى على ما يفنى ــ أن يعود فيجمع المال ليكون عليه وزراً ، وأن لا يسارع إلى إنفاقه في سبيل الله وسائر وجوه الخير ، فقد جعل غناه طاعة لله ، وباع اللهَ نفسَه فجاهد في سبيل الله ، ومالَه فأنفقه في طرق البر، ثم استبشر بهذا البيع موقناً أن الصفقة رابحة وأن الآخرة خير لمن اتقى .

وقد سبق أنه كان يخصص مائة ألف درهم في كل سنة ينفقها كلها في أهل العبادة والزهد والعلم، وهذا كل مايربحه من تجارته، بل كان كثيراً ما ينفق من رأس ماله أيضاً ، بل لقد كانت غايته من التجارة والكسب أن ينفق على الفقراء والعلماء والزّهاد والعبّاد، ولأجل هذا كان يعمل ويسافر ويتاجر ، وقد قال يوماً للفضيل بن عياض : لولا أنت وأصحابك ما اتجرت[٢٩] .

وهكذا كانت الصدقة هي غايته من عمله وتجارته ، لما كان يرى لها من المكانة والنفع في الدنيا والآخرة ، حتى إنه ربما جاءه

---

(٢٩) تهذيب التهذيب (٥ : ٣٨٦) .

المريض الذي استعصى عليه الشفاء ، فيرشده الى صدقة جارية يستشفي بها ؛ فعن علي بن الحسن بن شقيق قال : سمعت ابن المبارك وسأله رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن ، قرحة خرجت من ركبتي منذ سبع سنين ، وقد عالجتها بأنواع العلاج ، وسألت الأطباء فلم أنتفع به ؟ قال : اذهب فانظر موضعاً يحتاج الناس الماء فاحفر هناك بئراً ، فإني أرجو أن تنبع هناك عين ، ويمسك عنك الدم . ففعل الرجل فبرأ . رواه البيهقي(٣٠) .

ولقد عوتب فيما يفرق من المال في البلدان ولا يفعل مثل ذلك في أهل بلده ، فقال : إني أعرف مكان قوم لهم فضل وصدق، طلبوا الحديث فأحسنوا الطلب للحديث ، بحاجة الناس إليهم احتاجوا ، فإن تركناهم ضاع علمهم ، وإن أعنّاهم بثوا العلم لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا أعلم بعد النبوة أفضل من بثّ العلم(٣١) .

ولقد سبق أن رأيت بعضاً من كثرة إنفاقه ، حتى كان يزيد على مائة ألف كل عام ، ورأيت كيف كان يطعم الناس أطيب الطعام وهو صائم في الحر الشديد ، وكان إذا اشتهى طعاماً لا يأكله إلا مع ضيف ، ويقول : بلغنا أن طعام الضيف لاحساب عليه(٣٢) . قال الحسن : وصحبت ابن المبارك من خراسان إلى

---

(٣٠) الترغيب والترهيب ٢/٧٤ .
(٣١) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٠) .
(٣٢) طبقات الشعراني (١ : ٥٩) .

بغداد فما رأيته أكل وحده[٣٣] ، وكان يشتري التمر ويأتي به إلى الأيتام والمساكين ويقول لهم : من يأكل من تمري فله درهم على كل تمرة ، ثم يعدّ نوى كل واحد منهم فيعطيه لكل نواة درهماً[٣٤] . وكان يقول : لقمة في بطن جائع أرجح في ميزاني من عمارة المسجد لو عمرته وحدي[٣٥] .

هذه كانت غايته من التجارة والربح ، ولأجل هذا جمع المال، وبسبب هذا بارك الله له فيه ، فهو ينفق ولا يخاف من الله إقلالاً، وإن أخبار جوده وكرمه تكاد لا تصدق وهي أشبه بالأساطير .

● منها أنه خرج مرة من بغداد يريد المَصِّيصة للجهاد والغزو في سبيل الله ــ وهي ثغر من ثغور الروم ــ فصحبه جماعة من الصوفية الذين تطوعوا للجهاد ، فقال لهم : أنتم لكم أنفس تحتشمون أن ينفق عليكم . ثم قال لغلامه : يا غلام هات الطست، فألقى على الطست منديلاً غطاه به ثم قال : يلقي كل رجل منكم تحت المنديل ما معه . فجعل الرجل يلقي عشرة دراهم والرجل يلقي عشرين ، فأنفق عليهم إلى المصيصة ، فلما بلغ المصيصة قال هذه بلاد نفير فنقسم ما بقي ، فجعل يعطي الرجل عشرين ديناراً ،

---

(٣٣) صفة الصفوة (٤ : ١١٠) .

(٣٤) كنوز الأولياء ــ مخطوط ــ ص ٨٥ .

(٣٥) تنبيه المغترين ١٦٨ .

فيقول : يا أبا عبد الرحمن إنما أعطيت عشرين درهماً ، فيقول : وما تنكر أن يبارك الله للغازي في نفقته ؟(٣٦) .

● وكان إذا عزم على الحج يقول لأصحابه من أهل مرو : من عزم منكم في هذا العام على الحج فليأتني بنفقته حتى أكون أنا أنفق عليه ،فكان يأخذ منهم نفقاتهم ، ويكتب على كل صرة اسم صاحبها ، ويجمعها في صندوق فيقفل عليها . ثم يكتري لهم ويخرجهم من مرو إلى بغداد ، في أوسع ما يكون من النفقات والركوب وحسن الخلق والتيسير عليهم ، فلا يزال ينفق عليهم ويطعمهم أطيب الطعام وأطيب الحلواء . ثم يخرجهم من بغداد بأحسن زي وأجمل مروءة حتى يصلوا إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإذا صاروا إلى المدينة قال لكل رجل منهم : ما أمرك عيالك أن تشتري لهم من طُرَفِ المدينة ؟ فيقول : كذا ، فيشتري لكل واحد منهم ما وصاه أهله من الهدايا . ثم يخرجهم إلى مكة ، فإذا وصلوا إلى مكة وقضوا حجهم قال لكل واحد منهم : ما أمرك عيالك أن تشتري لهم من متاع مكة ؟ فيقول : كذا وكذا ، فيشتري لهم ، ثم يخرجهم من مكة ، فلا يزال ينفق عليهم . فإذا رجعوا إلى بلادهم بعث من أثناء الطريق إلى بيوتهم ، فأصلحت وبُيِّضت ورُمّم شعثها وجُصّصت أبوابها . فإذا

---

(٣٦) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٧) .

وصلوا إلى البلد عمل وليمة بعد قدومهم بثلاثة أيام ودعاهم فأطعمهم ، فإذا أكلوا وسُروا كساهم الثياب الجديدة ، ثم دعا بذلك الصندوق ففتحه وأخرج منه تلك الصرر ، ثم يقسم عليهم أن يأخذ كل واحد نفقته التي عليها اسمه ، فيأخذونها وينصرفون إلى منازلهم وهم شاكرون ناشرون لواء الثناء والجميل [٣٧] . وقد أخبر خادمه أنه عمل آخر سفرة سافرها دعوة ، فقدّم إلى الناس خمسة وعشرين خواناً عليها الفالوذج[٣٨] . وعن الحسن بن الربيع قال : ما رأيناه ــ الزماورد ــ [٣٩] إلا عند ابن المبارك بالكوفة ، يتخذ طعاماً ويدعو أصحاب الحديث ويمد كرباسه[٤٠] بالطول ويلقي عليه الثياب ، ويؤكل عليه ، وكان يتخذ الفالوذجات المعقدة ويطعم أصحاب الحديث[٤١] .

● وخرج مرة إلى الحج فاجتاز ببعض البلاد ، فمات طائر معهم فأمر بإلقائه على مزبلة هناك . وسار أصحابه أمامه وتخلّف

---

(٣٧) البداية والنهاية (١٠ : ١٧٨) وتاريخ بغداد (١٠ : ١٥٨) وغيرهما .

(٣٨) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٨) والفالوذج : طعام يتخذ من الدقيق والماء والعسل والسمن .

(٣٩) الزماورد : طعام من البيض واللحم ، وهو معرب .

(٤٠) الكرباس : ثوب من القطن الأبيض ، وهو معرب .

(٤١) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٧٧ .

هو وراءهم ، فلما مر بالمزبلة إذا بنت قد خرجت من دار قريبة منها ، فأخذت ذلك الطائر الميت ثم لفته وأسرعت به إلى الدار . فجاء فسألها عن أمرها وأخذِها الميتة ، فقالت : أنا وأخي هنا ليس لنا شيء إلا هذا الإزار ، وليس لنا قوت إلا ما يُلقى على هذه المزبلة ، وقد حلّت لنا الميتة منذ أيام ، وكان أبونا له مال فظُلم وأخذ ماله وقتل . فأمر ابن المبارك بردّ الأحمال وقال لوكيله : كم معك من النفقة ؟ قال : ألف دينار ، فقال : عُدّ منها عشرين ديناراً تكفينا إلى مرو وأعطها الباقي فهذا أفضل من حجنا في هذا العام ثم رجع (٤٢) .

● وسأله مرة سائل فأعطاه درهماً ، فقال له بعض أصحابه : إن هؤلاء يأكلون الشواء والفالوذج وقد كان يكفيه قطعة . فقال : والله ما ظننت أنه يأكل إلا البقل والخبز ، فأما إذا كان يأكل الفالوذج والشواء فإنه لا يكفيه درهم . ثم أمر بعض غلمانه فقال : رده وادفع إليه عشرة دراهم (٤٣) .

● وشكا أبو أسامة إلى ابن المبارك ديناً عليه وسأله أن يكلم له بعض إخوانه ، فعمد ابن المبارك إلى خمسمائة درهم من ماله فوجهها ليلاً مع رسول له ، وطلب من الرسول أن لا يعلمه

---

(٤٢) البداية والنهاية (١٠ : ١٧٨) .

(٤٣) المرجع السابق .

من وجهه إليه . قال : فأتاه الرسول فدفع إليه الخمسمائة فقبضها منه ، وظن أنها جاءته من مكان آخر . ثم إن أبا أسامة لقي عبد الله ابن المبارك بعد ذلك فذكّره الحاجة فسكت عنه ابن المبارك ، فأعاد عليــه مرتين أو ثلاثاً ، فقال لــه ابن المبارك : فلعلها قد أتتــك [٤٤] .

● وجاء رجل إلى عبد الله بن المبارك فسأله أن يقضي ديناً عليه، فكتب له إلى وكيل له، فلما ورد الكتاب على الوكيل سأله: كم الدين الذي سألت عبد الله بن المبارك أن يقضيه عنك ؟ قال : سبعمائة درهم . فنظر في الكتاب فإذا قد أمر لــه بسبعة آلاف درهم ، فكتب إلى عبد الله : إن هذا الرجل سألك أن تقضي عنه سبعمائة درهم وكتبت له سبعة آلاف درهم وقد فنيت الغلاّت ، فكتب عبد الله بن المبارك : إن كانت الغلات قد فنيت فإن العمر قد فني ؛ فأجرِ له ما سبق به قلمي[٤٥] .

وفي حادثة مشابهة يلح عليه الوكيل فيكتب إليه ابن المبارك: إن كنت وكيلي فأنفذ ما آمرك به ، وإن كنتُ أنا وكيلك فتعال إلى موضعي حتى أصير إلى موضعك فأنفذ ما تأمرني به . فعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من فاجأ

---

(٤٤) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٧٧ .

(٤٥) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٩) .

من أخيه المسلم فرحة غفر الله له » . فأحببت أن أفاجئه فرحة على فرحة[٤٦] .

● وكان عبد الله بن المبارك كثير الاختلاف إلى طرسوس — ثغر من ثغور الروم — وكان ينزل الرقة في خان[٤٧] ، فكان شاب يختلف إليه ويقوم بحوائجه ويسمع منه الحديث . فقدم عبد الله الرقة مرة فلم يرد ذلك الشاب ، وكان مستعجلاً فخرج في النفير، فلما قفل من غزوته ورجع إلى الرقة سأل عن الشاب ، فقالوا : إنه محبوس لدين ركبه . فقال عبد الله : وكم مبلغ دينه ؟ فقالوا: عشرة آلاف درهم ، فلم يزل يستقصي حتى دُلَّ على صاحب المال فدعا به ليلاً ووزن له عشرة آلاف درهم ، وحلّفه أن لا يخبر أحـداً ما دام عبد الله حياً . وقال : إذا أصبحت فأخرج الرجل من الحبس ، وأدلج عبد الله . فأخرج الفتى من الحبس وقيل له: عبد الله بن المبارك كان ههنا ، وكان يذكرك وقد خرج ، فخرج الفتى في أثره فلحقه على مرحلتين أو ثلاث من الرقة . فقـال : يا فتى أين كنت لم أرك في الخان ؟ قال : نعم يا أبا عبد الرحمن كنت محبوساً بدين . قال : فكيف كان سبب خلاصك ؟ قال : جاء رجل فقضى ديني ولم أعلم به حتى أخرجت من الحبس .

---

(٤٦) صفة الصفوة (٤ : ١١٨) .

(٤٧) الخان يشبه الفندق في هذه الأيام .

فقال له عبد الله : يا فتى ، احمد الله على ما وفق لك من قضاء دينك . فلم يخبر ذلك الرجل أحداً إلا بعد موت عبد الله(٤٨) .

هكذا كان جود عبد الله بن المبارك ، وهكذا كان إخلاصه فيما ينفقه . لا يبتغي أن يقال عنه جواد ، ولا يحب أن تكون له الشهرة بين الناس . يجمع المال ولكن لينفقه في سبيل الله وابتغاء مرضاته ، ولا يجمعه للتكاثر والعلو والفخر والزينة في الدنيا . وبذلك يكون يوم القيامة من القلّة الذين يستظلون بظل صدقاتهم ، ممن قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا : عن يمينه ، وشماله ، وقدامه ، وخلفه ، وقليل" ماهم »(٤٩) .

جهادهُ وَبطولته

إن الإيمان بالله رباً لهذا الكون ومُصَرفاً لأموره يقتضي أن لا يخشى المؤمنون به أحداً سواه ، لأن الله أحق أن يُخشى منه ، وإن الإيمان بالحياة الآخرة وما أعدّ الله فيها للمؤمنين المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، يجعل الحياة الدنيا كلها أهونَ على نفس المؤمن من جناح بعوضة ، كما يجعل الحياة

---

(٤٨) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٩) .

(٤٩) متفق عليه .

في الوقت نفسه أكبر في نظره وأوسع من تحقيق المنافع الشخصية والمصالح المادية واللذائذ الوقتية • وإن القلب متى تذوق حلاوة الإيمان الثابت المتغلغل في سويدائه المختلط بلحمه ودمه ، لا بد مندفع لتحقيق ذلك الإيمان في واقع الحياة ودنيا الناس ، وذلك بالعمل على بناء الأمة التي تحمل العقيدة وتحرسها من أعدائها والحاقدين عليها ، وبذلك تكون الخصومة بين المؤمن وبين الحياة الجاهلية من حوله خصومة ذاتية ، ناشئة من نفس المؤمن التي تريد لهذا الإيمان القلبي أن تظهر آثاره في الواقع العملي •

ولكن هذا العمل الإيماني الذي نسميه (الجهاد) يحتاج إلى تكاليف ضخمة تتقاصر دونها الهمم الساقطة ، والعزائم الضعيفة ، والأرواح الهزيلة ، وذلك لأنها ماذاقت حلاوة الإيمان ، ولاعرفت حقيقته التي بينها الله بقوله : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون[٥٠] » •

ولن يكمل إيمان المسلم وهو يقعد به عن الجهاد في سبيل الله الخوفُ على الحياة ، أو الخوفُ على المال ، أو الخوفُ على اللذائذ ، أو الخوفُ على المصالح الشخصية ، أو الحرصُ على الدعة والراحة والاستقرار •

---

(٥٠) الآية ١٥ من سورة الحجرات .

ومن ثَمَّ كان العتاب الشديد للمتخلفين ، والتهديد بعاقبة التثاقل عن الجهاد في سبيل الله ، والتنديد بمن رضي بالحياة الدنيا واطمأن بها ، فآثر المتاع الفاني واللذة العاجلة ، وشغلته خضرة الدنيا وحلاوتها عن الاستجابة لداعي الجهاد :

« يا أيها الذين آمنوا ، مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاعُ الحياةِ الدنيا في الآخرة إلا قليل » وفي الآية التي تليها التهديد والوعيد بالعذاب الأليم لمن لم يجاهد في سبيل الله ولم يجب النفير : « إلا تنفروا يعذبْكم عذاباً أليماً ، ويستبدلْ قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً[٥١] » .

ولئلا يقعد بالناس الخوف ــ وخاصة على الحياة ــ ويكون ذلك مبرراً للخضوع للذل ، والاحتجاج بالضعف ، أطلق الاسلام الروح الإنسانية من ضغط الخوف على الحياة ، فقرر أن الموت والحياة بيد الله ، وأن الجبن لا يعصم من الموت ، وأن كلَّ نفسٍ ذائقة الموت سواء قعدت أم جاهدت، وذلك في قوله تعالى: « أينما تكونوا يدرككْم الموتُ ولو كنتم في بروجٍ مشيَّدة[٥٢] » . وكذلك أطلقها من ضغط الخوف على المال

---

(٥١) الآيتان ٣٨ ــ ٣٩ من سورة التوبة .

(٥٢) الآية ٧٨ من سورة النساء .

والمصالح ، فقرر الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه أن الأمة لو اجتمعت كلها على ضرر شخص واحد لم يضروه إلا بما كتبه الله عليه ، ولذلك كان المؤمن القـوي الصادق لا تهوله كثرة الأعداء ، ولا ينخلع قلبه لمرأى الجموع ، ولا يبالي أوقع عليه الموت أم على الموت وقع ؛ لأنه يؤمن أن الموت بيد الله الذي خلق الموت والحياة .

ومن هذا الطراز الممتاز كان الإمام المجاهد عبد الله بـن المبارك رضي الله عنه ، العالم العامل ، والمؤمن القوي ، فقد كان مع علمه الغزير ، وزهده العجيب ، وورعه وتقواه ، كان مع ذلك من أكبر المجاهدين ، كان من أرباب السيف كما كان من أرباب القلم والقرطاس ، كان إماماً في ساحة الجهاد كما كان إماماً في محراب المسجد ، وذلك لأن العلم والتقى والزهد والورع ليست من مبررات القعود عن الجهاد كما اعتاد المسلمون أن يروا في عصرنا الحاضر ، أو كما يحب أن يرى بعض أدعياء العلم والزهد في العصر الحاضر ، بل كل ذلك يؤكد الجهاد ويدفع إليه ويجعله أوجب وآكد .

فمن الطراز الممتاز من العلماء والمجاهدين كان ابن المبارك رضي الله عنه وعن أمثاله ، وقد قال فيه ابن كثير[٥٣] : وكـان

---

(٥٣) البداية والنهاية (١٠ : ١٧٧) .

كثير الغزو والحج . وقال عنه الذهبي(٥٤) في تذكرته : فخر المجاهدين . وفي العبر(٥٥) : « كان رأساً في الشجاعة ... وكان يحج سنة ويغزو مرابطاً في سبيل الله في الثغور سنة » فمرة يرابط في طَرَسوس(٥٦) وأخرى في المصِّيصة(٥٧) وفي غير ذلك من الثغور الإسلامية ، حتى أدركته الوفاة وهو منصرف من بعض الثغور حيث كان يغزو ويجاهد في سبيل الله ، ويعلّم الناس كيف تكون البطولة والشجاعة . وكان وهو في الثغور للرباط والجهاد لا ينسى أن يعلم الناس العلم والحديث ؛ فكان إذا وصل إلى الثغر اجتمع المجاهدون حوله يتعلمون منه العلم ، ويكتبون عنه الحديث كما يتعلمون منه الشجاعة(٥٨) .

---

(٥٤) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٣) .

(٥٥) العبر ٢٨١/١ .

(٥٦) طرسوس : بفتح أوله وثانيه ، مدينة بثغور الشام بين انطاكية وحلب وبلاد الروم ، وبها قبر المأمون جاءها غازياً فأدركته منيته فمات ، وكانت موطناً للصالحين والزهاد يقصدونها للرباط والجهاد لأنها من ثغور المسلمين ، انظر معجم البلدان (٦ : ٣٨) .

(٥٧) المصيصة : بالفتح ثم الكسر والتشديد وياء ساكنة ، وهي مدينة على شاطىء جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم ، تقارب طرسوس ، وكانت من مشهور ثغور الاسلام ، قد رابط بها الصالحون قديماً . انظر معجم البلدان (٨ : ٨٠) .

(٥٨) انظر تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٧٨ .

وقد سبق أن رأيت في شعره كيف كان يحث الناس على الجهاد في سبيل الله ، ويفهمهم أن العبادة تحت ظلال السيوف خير من العبادة في محراب المسجد حيث الأمن والاطمئنان ، وذلك في أبياته التي بعثها من الثغر مع محمد بن إبراهيم إلى صديقه الفضيل بن عياض والتي يقول فيها :

يا عابدَ الحرمين لو أبصرتَنا ... لعلمتَ أنك بالعبادة تلعبُ
من كان يخضب جيده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضّبُ
أو كان يتعب خيله في باطلٍ ... فخيولنا يوم الصبيحة تتعبُ
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا ... رهج السنابك والغبار الأطيبُ

ولما قرأ الفضيل هذه الأبيات بكى وذرفت عيناه بالدموع ، وقال : صدق أبو عبد الرحمن ونصح . وروي أنه قال لمن جاءه بالرسالة : اكتب هذا الحديث جزاء لحمل الكتاب ، وقال : حدثني المنصور بن المعتمر ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : دُلّني على عمل أنال به ثواب المجاهد في سبيل الله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «هل تستطيع أن تصوم ولا تفطر ، وتصلي ولا تفتر » ؟ فقال : يارسول الله إني أضعُف عن ذلك . فقال عليه السلام : « فو الذي نفسي بيده ، لو طُوِّقتَ ذلك لما بلغت فضل المجاهد في سبيل الله ، أما علمت أن فرس المجاهد ليستن في طِوَله ، فيكتب لصاحبه بذلك الحسنات »[٥٩] ؟.

---

(٥٩) ذيل الجواهر المضية (٢ : ٥٣٣) .

هكذا كان عبد الله بن المبارك يقاتل ويحرض المؤمنين على القتال ، ويجاهد ويكون في أول الصفوف ، ويجالد بقوة ويتقدم حيث يتأخر الأبطال ، وهذا ما حدّث به أحد المرافقين لابن المبارك في إحدى المعارك مع الروم . حدث عبدة المروزي قال : كنا في سرية مع عبد الله بن المبارك في بلاد الروم ، فصادفنا العدو ، فلما التقى الصفان خرج رجل من العدو فدعا إلى البراز ، فخرج إليه رجل فقتله الرومي ، ثم آخر فقتله ، فتأخر عنه المسلمون فصال وجال بين الصفين ودعا إلى البراز ، فخرج إليه رجل فطارده ساعة ، ثم طعنه فقتله ، فازدحم إليه الناس ، فكنت فيمن ازدحم إليه ، فإذا هو يلثّم وجهه بكمه حتى لا يعرفه الناس ، فأخذت بطرف كمه فمددته وأزحته عن وجهه ، فإذا هو عبد الله ابن المبارك ، فقال : وأنت يا أبا عمرو ممن يشنّع علينا (٦٠) !! وعن عبيد الله بن سنان قال : كنت مع ابن المبارك ومع المعتمر ابن سليمان بطَرَسُوس فصاح الناس : النفير ، فلما اصطف الناس خرج علج رومي يطلب البراز ، فخرج إليه مسلم ، فقتله الرومي ثم .. وثم .. حتى قتل ستة من المسلمين ، ثم لم يخرج إليه أحد ، فلما رأى ابن المبارك ذلك أوصى إليّ وقال : إن

---

(٦٠) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٧) ومرآة الجنان (١ : ٣٨٠)، ومراده تنشر خبرنا .

قتلتُ فافعل كذا وكذا ، ثم خرج من الصف فقتله وقتل ستة من الكافرين ثم امتنعوا عنه ، فغاب ، ثم نظرته فإذا هو بالمكان الذي كان فيه .

وكان يحضر القتال ويبلي بلاء حسناً فإذا كان وقت القسمة غاب ، فقيل له في ذلك ، فقال : يعرفني الذي أقاتل له (٦١) .

أرأيت كل هذه البطولة النادرة ، وكل هذا الجهاد في سبيل الله ، وكل هذا الإخلاص في ابتغاء وجه الله . إن ابن المبارك كان أكبر من ذلك أيضاً ، لقد كان رضي الله عنه شديد الندم على الأيام التي شغل فيها عن الجهاد في سبيل الله ، لنصر دينه ، وإعلاء كلمته، وتحمل المشقة من أجل شريعته ، يندم على أيامه الماضية مع أن الشاغل له لم يكن اللهو والترف ، ولا التمتع بالدعة والراحة ، بل كان مشغولاً بالعلم بالحلال والحرام ، وبالفقه في الدين ، ومع ذلك كان يندم على أنه ضيَّع أيامه في الفقه وشغل عن الجهاد .

حدث عبدة بن سليمان قال : كنا مع ابن المبارك في أرض الروم ، فبينا نحن نسير ذات ليلة والسماء ــ يعني المطر ــ من فوقنا ، والبلة من تحتنا ، قال ابن المبارك : يا أبا محمد ، أفنينا أيامنا في الإيلاء والظهار عن مثل هذه الليالي .

---

(٦١) ذيل الجواهر المضية (٢ : ٥٣٤) .

أرأيت كيف يندم على أيام قضاها في الفقه في الدين لأنه شغل عن جهاد الروم ، وعن السير في ظلمات الليل تحت وابل المطر وفوق سيول الماء ... وإن للقصة تتمة . يقول عبدة : « ... فلما أصبحنا نزلنا على عين ماء ، فجعل الناس يتبادرون ويسقون دوابهم ، فقدّم ابن المبارك دابته ، فضرب رجل من أهل الثغر وجه دابة ابن المبارك وقدم دابته ، فقال : يا أبا محمد المنافسة في مثل هذا الموضع ليس في الموضع الذي إذا رأونا قالوا : وسّعوا لأبي عبد الرحمن ارتفع يا أبا عبد الرحمن[٦٢] . هنا المنافسة حيث الظمأ والجوع ، وحيث التعب والنصب ، وحيث الناس لا يعرفون من هو ابن المبارك ليكرموه ويقدموه ويوسعوا له الطريق .

هكذا كان ابن المبارك المجاهد البطل ، يجاهد ويجالد ولا يريد أن يعرف ويشتهر ويرابط على الثغور ويحضر المعارك والغزوات ، ويخرج لبراز أكبر الفرسان ، ويعف عند المغنم ، ويسير في حالك الظلمات في ظل الأمطار ، ويدافع الناس ليسقيَ دابته ؛ وهو مع ذلك إمام عصره ووحيد وقته ، وذلك لأنه كان يعلم ـ من جملة ما يعلم من العلم الرباني ـ أنه لا يستوي المجاهدون والقاعدون ولو كانوا جميعاً من المؤمنين، وأن الله فضّل المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ، وكان يعلم أيضاً أن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وإن كان في كل خير .

---

(٦٢) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٨٠ .

وبعد هذا ، أفلا ترى معي أنه ليس من قبيل المصادفة أن يكون ابن المبارك أول من يصنف كتاباً في « الجهاد » والحث عليه ؟ ولكنه الإكرام الرباني الذي اختص الله به هذا الإمام المجاهد ، ليكون القول مطابقاً للعمل •

رحمه الله تعالى ورحم أمثاله فقد كانوا حجة على من بعدهم •

دَعوته إلى اللهِ وَنشْرُه العِلمَ

أترى ابن المبارك يجمع هذا العلم الجم ، وهذه المواهب الغزيرة ، ثم يقعد بعد ذلك عن الدعوة إلى الله ؟!

أتراه يجاهد بماله فينفقه في سبيل الله ، ويجاهد بنفسه فينازل أكبر الفرسان في ساحة الجهاد ، ثم يقعد عن الجهاد بلسانه للدعوة إلى الله ؟!

أتراه يكتم العلم وهو الذي تعلمه لله ، وقرأ العهد الوثيق الذي أخذه الله سبحانه على العلماء أن يبيّنوه للناس ولا يكتموه ؟!

لقد كان ابن المبارك من الدعاة الصادقين إلى دين الله الحنيف وشرعه المطهّر ، ينشره بين الناس بنفسه وماله ولسانه ، ويعلّم الناس مما آتاه الله من فضله من العلم ، وإلا فما خير من يتعلم العلم ليكتمه في صدره ، أو ليكسب به احترام الناس، أو ليتصدّر

به المجالس ، ولا يرعى حق الله فيه بنشره بين الناس ؟! ولقد كان ابن المبارك من الذين يتعلمون العلم ويعلّمونه ، وقد قيل لـه رحمه الله :من الناس عندك؟فقال: العلماء العاملون المخلصون[٦٣]. وكان يرى نشر العلم المرحلة الأخيرة من مراحل العلم فهو يقول : **أول العلم النية ، ثم الاستماع ، ثم الفهم ، ثم العلم ، ثم الحفظ ، ثم النشر**[٦٤] .

وقد جمع الله لابن المبارك النية الصالحة فطلب العلم لله ، والاستماع الكثير فاستمع لآلاف العلماء ، والفهمَ ، والعلمَ ، والحفظَ ، وقد سبقت الشواهد الكثيرة على سعة حفظه وقوة ذاكرته ، والنشرَ للعلم فنشره لله كما جمعه لله . وكانت داره بمرو كبيرة صحن الدار نحو خمسين ذراعاً في خمسين ذراعاً ، فكنت لا تحب أن ترى في داره صاحب علم ، أو صاحب عبادة ، أو رجلاً له مروءة وقدر بمرو إلا رأيته فيها ، يجتمعون في كل يوم حلقاً يتذاكرون حتى إذا خرج ابن المبارك انضموا إليه[٦٥] .

وقد نشر العلم في كل بلد وصل إليه على كثرة أسفاره ورحلاته منذ صباه ، فقد قدم بغداد غير مرة وحَدثَ بها[٦٦] ،

---

(٦٣) تنبيه المغترين ١٤ .

(٦٤) الديباج المذهب لابن فرحون ص ١٣١ .

(٦٥) صفة الصفوة (٤ : ١٠٩) .

(٦٦) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٣) .

وكان يلتف حوله العلماء بمكة ويطلبون منه التحديث[٦٧] ، فيحدث في كل صقع ، وينشر العلم حيثما حل ، حتى ولو كان على ثغور العدو مستعداً للجهاد . وكان في حديثه ونشره للعلم لا يبتغي من غير الله جزاء ولا شكوراً ، فقد أغناه الله عن المال من فضله العميم ، وعن الجاه بالشهرة الواسعة مع الكره لها ، إنما كان يحدّث لله فقط وابتغاء وجهه . قال يحيى بن معين : ما رأيت أحداً يحدث لله إلا ستة نفر منهم عبد الله بن المبارك[٦٨] . وكما كان يحدث لله ، فقد كان لا يحدث إلا من علم أنه يطلب الحديث لله ، فربما جاءه من يريد الحديث فيمتنع عن تحديثه إذا ظن أنه يريد بذلك المباهاة والتفاخر ، ثم إذا حدثه حدثه بما يكون له زجراً وواعظاً ، فعن عبيد بن جناد قال : عرضت لابن المبارك فقلت : أملِ عليّ . فقال : أقرأت القرآن ؟ قلت : نعم قال : اقرأ ، فقرأت عشراً . فقال : هل علمت ما اختلف الناس فيه من الوقوف والابتداء ؟ قلت : أبصر الناس بالوقوف والابتداء . فقال : « مدهامتان » ؟ قلت : آية . قال : فالألفاظ؟ قلت : عبقري ، وعباقري ، ورفرف ، ورفارف ، وسَرَق ، وشرّق . قال : فالحديث سمعته من أحد غيري ؟ قلت : نعم .

---

(٦٧) انظر تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٢) .

(٦٨) انظر تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٠) .

قال : فحدثني . قال فحدثته في المناسك بأحاديث . فقال لي : أحسنت . ثم قال : أخرج ألواحك . فأخرجت . ثم قال لي : من أين أنت ؟ قلت من بغداد . قال : قم . قلت : هل رأيت إلا خيراً ؟ قال : قم . قلت : امرأة الآخر طالق ثلاثاً إن قمت أو تملي عليّ وتفتيني وتغنيني ـ أقولها أربعاً ـ . قال : اكتب :

أيها القارىء الذي لبس الصو ف وأمسى يُعدّ في الزهاد
إلزم الثغر والتواضع فيه ليس بغداد منزل العبّاد
إن بغداد للملوك محلّ ومُناخ للقارىء الصياد

قلت : من الناس ؟ قال : العلماء . قلت : من الملوك ؟ قال : الزهاد . قلت : من الغوغاء ؟ قال : هرثمة وخزيمة بن خازم ـ كلاهما من قواد الرشيد والمأمون ـ قلت : من السفلة ؟ قال : من باع دينه بدنيا غيره(٦٩) . وقد نفع الله الناس بعلم ابن المبارك ، وبارك له فيه ، فأسلم ناس على يديه مثل ماسَرجس وكان نصرانياً (٧٠) ، وتعلم منه خلق لا يحصون ، حيث كان يقصده طلاب

---

(٦٩) الالماع للقاضي عياض ٢٣٨ . والمحدث الفاصل للرامهرمزي ٢٠٣ .

(٧٠) النجوم الزاهرة (٤ : ١١١) ، وهو الحسن بن عيسى ابن ماسرجس وله ترجمة في التهذيب (٢ : ٣١٣ ـ ٣١٥) وفيها : أنه كان من أهل بيت الثروة والقدم في النصرانية ، ثم أسلم على يدي ابن المبارك ، ورحل في العلم ولقي المشايخ ، وكان ديناً ورعاً ثقة ، ولم يزل من عقبه بنيسابور فقهاء ومحدثون ، قال الحاكم :
←

العلم من الآفاق ، ويأتونه من كل فج عميق ، ينهلون من معينه الصافي ، ويتأدبون بأدبه العالي ، ويستفيدون من ورعه وتقواه ، فهذا أسْلَم بن سليمان يرحل من نيسابور إلى مرو ليكتب عن ابن المبارك ويترك وراءه زوجته الباكية وصبيته الصغار ، ويسير نحوه يقطع المفاوز ويتجشم مشقات الطريق ، ليجلس كل يوم ساعة يغترف فيها من بحر علم ابن المبارك ، ويقول أبيات ينشدها بين يديه :

خلّفتُ عرسيَ يوم السير باكيةً   يا ابن المبارك تبكيني برناتِ
خلّفتها سحَراً في النوم لم أرها   ففي فؤاديَ منها شبه كياتِ
أهلي وعرسي وصبياني رفضتهمُ   وسرتُ نحوك في تلك المفازاتِ
أخافُ ـ والله ـ قطاع الطريق بها   وماأمنت بها من لدغ حيّات
مستوفزات بها رقش مشوّهة   أخاف صولتها في كل ساعاتي

سمعت أبا علي الحافظ يحكي عن شيوخه أن ابن المبارك كان قد نزل مرة راس سكة عيسى ، وكان الحسن بن عيسى يركب فيجتاز به وهو في المجلس ، وكان الحسن من احسن الشباب وجهاً ، فسأل عنه ابن المبارك فقيل : إنه نصراني ، فقال : اللهم ارزقه الاسلام ، فاستجاب الله دعوته فيه .. قال ابو بكر بن المؤمل بن الحسن بن عيسى : انفق جدي في حجته الأخيرة ثلاثمائة ألف درهم .. التهذيب (٢ : ٣١٤) ، فكأنه كان على مذهب شيخه ابن المبارك في الإنفاق والجود .

اجلس لناكل يــوم ساعة بكــراً   إن خفّ ذاك وإلا بالعشيّاتِ
يا أهل مروٍ أعينونا بكفكمُ   عنــا وإلا رميناكم بأبيــاتٍ
لا تضجرونا فإنــا معشــر صُبُر
وليس نرجو سوى رب السموات(٧١)

وقد قام ابن المبارك بحق العلم ، وأدّى أمانته إلى الناس ، وجهد في تعليمهم وحثهم على طلب العلم ؛ وأنفق المال الكثير على طلاب الحديث تشجيعاً لنشر العلم وبثّه في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وكان يقول : لا أعلم بعــد النبوة أفضل من بثّ العلم (٧٢) . وكان يقول : عجبت لمن لم يطلب العلم كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة !(٧٣) وقد سئل مرة : من الناس ؟ فقال : العلماء . فلم يجعــل غير العالم مــن الناس ؛ لأن العلم هو الخاصية التي يتميز بها الإنسان عن سائر البهائم ، وهو لم يخلق إلا للعلم(٧٤) .

وكان يحضّ الناس جميعاً على طلب العلم عالمهم وجاهلهم ، لأن العالم متى انقطع عن طلب العلم فإنه لا بد سيسري إلى علمه النقصان ، وسيقضي عليه النسيان . وكان يقول : لا يزال المرء

---

(٧١) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٧٥ .

(٧٢) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٠) .

(٧٣) إحياء علوم الدين (١ : ٩) .

(٧٤) المرجع السابق (١ : ٧) .

عالماً ما طلب العلم فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل[٧٥] . وكان يرى العلم عبادة لازمة ويقول : إذ تعلّم أحدكم من القرآن ما يقيم به صلاته ، فليشتغل بالعلم فإن به تعرف معاني القرآن[٧٦] . وسأله رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن في أي شيء أجعل فضل يومي ؟ في تعلم القرآن أو في طلب العلم ؟ فقال : هل تقرأ من القرآن ما تقيم به صلاتك ؟ قال : نعم . قال: فاجعله في طلب العلم الذي يعرف به القرآن[٧٧] . وذلك لأن الاشتغال بمعنى القرآن المستفاد من التفسير والحديث والفقه أفضل من مجرد تلاوته وكثرة قراءته.

هكذا كان يحض الناس على طلب العلم مبيناً لهم فضل العلم والعلماء ، ثم لا يفتأ هو عن نشر العلم وتعليمه للناس ، حتى أصبح نشر العلم راحة نفسه وغذاء روحه وحاجة من حاجاته ولذة من لذائذه ، وقد سبقت أبياته التي يقول في أولها :

ما لذتي إلا روايةُ مسندٍ قد قيدت بفصاحة الألفاظ

حدّث أحمد بن أبي الحواري قال : سمعت أبا أسامة يقول : مررت بعبد الله بن المبارك بطرسوس وهو يحدث ، فقلت :

---

(٧٥) إحياء علوم الدين (١ : ٥٩) .

(٧٦) طبقات الشعراني (١ : ٥٩) .

(٧٧) حلية الأولياء (٨ : ١٦٥) .

يا أبا عبد الرحمن ، إني لأنكـر هذه الأبواب والتصنيف الذي وضعتموه ، ما هكذا أدركنا المشيخة ! قال : فأضرب عن الحديث نحواً من عشرين يوماً . ثم مررت به وقد احتوشوه[٧٨] وهو يحدث ، فسلمت عليه فقال : يا أبا أسامة شهوة الحديث[٧٩] .

وكان لا يألو جهداً ولايدخر وسعاً في تعليم الناس ونشر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتحمل المشقة الشديدة في سبيل ذلك ، وربما وقف الساعات الطوال في البرد الشديد وفي الليلة المظلمة ، يعلّم العلم ويذاكر في الحديث . قال عبد الله الخراساني : غدوت أنا وصاحب لي إلى عبد الله بن المبارك في يوم شديد البرد ، فاستأذنا فخرج إلينا ، فقال : جئتم من موضع كذا هذه الساعة ؟ فقعد معنا ، فظننا أنه قعد مقدار ما جئنا من موضعنا حتى بلغناه ليصيبه من البرد كما أصابنا[٨٠] !! فانظر إلى هذا اللطف الرفيع ، وإلى هذا الحب لنشر العلم ، والتضحية لتعليم الناس ومذاكرتهم في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وانظر إلى ما رواه علي بن الحسن بن شقيق ، ثم اكتف به دليلاً على شغف ابن المبارك بنشر العلم ، قال : قمت مع ابن المبارك

---

(٧٨) احتوشوه : جعلوه وسطهم .

(٧٩) حلية الأولياء (٨ : ١٦٥) .

(٨٠) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٦٨ .

ليلة باردة ليخرج من المسجد ــ بعد العشاء ــ فذاكرني عند الباب بحديث وذاكرته ، فما زال يذاكرني حتى جاء المؤذن فأذن للفجر[٨١] .

وكانت للعلم في نفسه هيبة ، يوقره ويحترمه لأنه عبادة من جملة العبادات ، ولأنه ميراث الأنبياء ، فهو أرفع من أن يُبتذل . قال بشر بن الحارث الحافي الزاهد المشهور : سأل رجل ابن المبارك عن حديث وهو يمشي ، فقال : ليس هذا من توقير العلم . قال بشر : فاستحسنته جداً[٨٢] .

وكان وهو يعلم الناس وينصحهم ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، يلتزم الأدب في تعليمه ، ويستعمل اللطف في نصحه .

حدّث محمد بن حميد قال : عطس رجل عند ابن المبارك ــ ولم يحمد الله تعالى ــ فقال له ابن المبارك : إيش يقول الرجل إذا عطس ؟ قال : يقول : الحمد لله ، فقال ابن المبارك : يرحمك الله .[٨٣] واغتاب رجل من أهل مجلسه شخصاً ، فقال : إن أردتم

---

(٨١) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٥) .

(٨٢) حلية الأولياء (٨ : ١٦٦) .

(٨٣) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٥) .

أن تغتابوا اغتابوا أبويكم لئــلا يرد أجر عملكم إلى الأجنبي بل إليهما [٨٤] . وهذا فيما أرى من أبدع ما يقــال لمغتاب ليكف عن الغيبة .

وكان يقول : لو كنت مغتاباً أحداً لا غتبت والديَّ لأنهما أحق بحسناتي من غيرهما[٨٥] .

ومن تمام لطفه ، وكمال ذوقه : أنه قال مرة : التوبة من الغيبة أن تستغفر لمن اغتبتــه . فقال له سفيان بن عيينة : بل تستغفره مما قلت فيه . فقال ابن المبارك : لا تؤذه مرتين[٨٦] .

هـكذا كان ابن المبارك الداعية إلى الله ، والناشر للعلم ، والمضحّي براحته بعــد أن ضحى بنفسه وماله في سبيل الله . ينشر العلم بين الناس ، وينصح الأمــة ويرشدها إلــى آداب الاسلام وتعاليمه . وقد عرف الناس منه ذلك فأحبوه ، وقدروا منه ذلك حتى قال فيه ابن مهدي : ما رأيت رجلاً أعلم بالحديث من سفيان الثوري . ولا أحسن عقلاً من مالك . ولا أقشف من شعبة . ولا أنصح لهذه الأمة من عبد الله بن المبارك[٨٧] .

---

(٨٤) كنوز الأولياء ـ مخطوط ـ ص ٨٧

(٨٥) تنبيه المغترين ١٣٠ .

(٨٦) بهجة المجالس ١/٣٩٨ .

(٨٧) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٠) وتهذيب التهذيب(٥ : ٣٨٥).

إبَاؤه وَعِـزة نفسهِ

كان ابن المبارك رضي الله عنه في إبائه وعزة نفسه ملكاً فوق الملوك • وذلك لأنه أعز العلم وأخلص فيه ، وصانه عن أن يكون بضاعة للكسب والتجارة ، وعظّمَ العلمَ فعظّمه ، وصانه فصانه• وما أصدق قول الجرجاني في هذا المعنى :

ولو أنّ أهلَ العلم صانوه صانهم ولو عظّموه في النفوس لعظما
ولكنْ أهانوه فهانوا ودنسوا محياه بالأطماع حتى تجهّما

عظّمَ العلم وأكرمه ، فلم يدنسه على أبواب السلاطين وذوي الجاه ، وابتغى به وجه الله ونعيم الآخرة ، ولم يبتغ به متاع الدنيا الزائل كما يفعل علماء السوء وتجار الدين في كل زمن • وكان كثيراً ما يتمثل بهذين البيتين من كلامه :

وهل بدّلَ الدينَ إلا الملوكُ وأحبار سوءٍ ورهبانُها
لقد رتَعَ القومُ في جيفةٍ يبينُ لذي العلمِ إنتانُها(٨٨)

وكان وما زال مصاب الدين من أمراء السوء وعلماء السوء• ولذلك كان ابن المبارك يضيق بهم ، ويبتعد عنهم ، ويصب عليهم

(٨٨) طبقات الشعراني (١ : ٥٩) وكان ابن المبارك اخذ هذا المعنى من قول الخليفة الراشد سيدنا عمر الذي رواه له الدارمي في أول « سننه » : « يهدم الاسلام : زلة العالم ، وجدال المنافق بالكتاب ، وحكم الائمة المضلين » .

جام غضبه . وقد قيل له مرة : من سَفِلة الناس ؟ فقال : الذين يتعيشون بدينهم (٨٩) وسئل : من السَّفِلة ؟ فقال : الذين يأكلون الدنيا بالدين (٩٠) ، وكان يحب العزة للعلم والعلماء ، ويكره أن تلحق العلم مهانة ولو صغرت . قال أبو داود الطيالسي : قلت لعبد الله بن المبارك إنا نقرأ بهذه الألحان؟ فقال:..إنا أدركنا القرّاء وهم يُؤْتَون تُسمع قراءتهم ، وأنتم تُدعون اليوم كما يدعى المغنّون(٩١) . وبلغه عن إسماعيل بن عليّة ــ أحد أئمة الحديث في عصره ــ أنه قد ولي الصدقات ، فكتب إليه ابن المبارك يعتب عليه ويلومه على ما فعل :

يا جاعل العلم له بازياً   يصطاد أموال السلاطينِ
احتلتَ للدنيا ولذاتها   بحيلة تذهب بالدينِ
فصرتَ مجنوناً بها بعدما   كنت دواءً للمجانينِ
أين رواياتك فيما مضى   عن ابن عونٍ وابن سيرينِ
أين رواياتك في سردها   في ترك أبواب السلاطينِ
إن قلتَ أكرهتُ فماهكذا   زلّ حمار الشيخ في الطينِ

---

(٨٩) طبقات الشعراني (١ : ٥٩) .

(٩٠) إحياء علوم الدين (١ : ٧) .

(٩١) حلية الأولياء (٨ : ١٦٩) .

فلما بلغت هذه الأبيات ابنَ عليّةَ بكى واستعفى ، وأنشأ يقول :

أفٍ لدنيا أبت تواتيني إلا بنقضي لها عُرى ديني
عيني لِحَيْني ضميرمقلتها تطلب ماساءها لترضيني[٩٢]

وقد سبق من شعره في الذين يبيعون دينهم بدنياهم ويتاجرون بعلمهم ، حتى كان لا يسمح لأحد أن يصحبه مالم تكن له صناعة يتكسب منها ، ليكون العلم لله لا لكسب المال وجمع الثروة . وإليك ما يرويه أحد أصحابه :

قال الحسن بن الربيع : قال لي ابن المبارك : ماحرفتك ؟ قلت أنا بوراني . قال : وما بوراني ؟ قلت : لي غلمان يصنعون البواري . قال : لو لم تكن لك صناعة ما صحبتني[٩٣] ؛ وذلك لأنه كان يرى أن البعد عن الظلمة ، والنجاة من الرياء ، وصون ماء الوجه ، لا يكون إلا لمن ملك من الكفاية المالية ما يسد به حاجته ، للترفع عن ذل السؤال ، ولذلك ورد أنه لما فقدت له بضاعة بكى وقال : هي قوام ديني[٩٤] .

وكان رضي الله عنه لا يقبل عطايا السلاطين ، وإذا جاءته هدية من أحد إخوانه قبلها وأثاب عليها،حدّث أبو علي الروذَباري

---

(٩٢) طبقات الشافعية الكبرى (١ : ١٤٩) .

(٩٣) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٦٩ .

(٩٤) صيد الخاطر الفقرة ٢٩٥ .

قال : كان أربعة زمانهم واحد : كان أحدهم لا يقبل من السلطان ولا من الإخوان يوسف بن أسباط • وآخر كان يقبل من الإخوان والسلطان جميعاً أبو إسحاق الفزاري • والثالث كان يأخذ من الإخوان ولا يأخذ من السلطان وهو عبد الله بن المبارك ، يأخذ من الإخوان ويكافىء عليه • والرابع كان يأخذ من السلطان ولا يأخذ من الإخوان وهو مخلّد بن الحسين [٩٥] • وكان إذا بلغه عن أحد معارفه أنه قبل عطية السلطان نصحه أن ينفقها في وجوه الخير وأن لا يترك منها درهماً ، ولو كان الآخذ أكبر العلماء في عصره ، فقد أعطى الرشيد أبا إسحاق الفزَاري ثلاثة آلاف دينار ، فلقيه ابن المبارك فقال له : من أين أقبلت ؟ قال : من عند أمير المؤمنين ، وقد أعطاني هذه الدنانير وأنا عنها غنيّ ، قال : فإن كان في نفسك منها شيء فتصدق بها ، فما خرج من سوق الرافقة[٩٦] حتى تصدق بها كلها [٩٧] •

وكان بعيداً كل البعد عن السلاطين ، لا يقترب منهم كما أنه لا يستخف بهم • وكان يقول : على العاقل أن لا يستخف بثلاثة : العلماء ، والسلطان ، والإخوان[٩٨] ، وكان متبعاً في ذلك وصية

---

(٩٥) معجم الأدباء (١ : ٢١٤) .

(٩٦) الرافقة : مدينة الرقة بناها أبو جعفر المنصور .

(٩٧) معجم الأدباء (١ : ٢١٥) .

(٩٨) طبقات الشعراني (١ : ٦٠) .

أستاذه سفيان الثوري ، فعن عبد الله بن المبارك قال : كتب إلي سفيان بن سعيد : « إلى عبد الله بن المبارك ، أما بعد : فانشر في الناس مما علـّمك الله وإياك والسلطان[99] » .

وقد كان كثير من السلف ينهون عن الدخول على الملوك حتى لمن أراد أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر أيضاً ، وممن نهى عن ذلك عمر بن عبد العزيز وابن المبارك والثوري وغيرهم من الأئمة . وقال ابن المبارك : ليس الآمر الناهي عندنا من دخل عليهم فأمرهم ونهاهم ، إنما الآمر الناهي من اعتزلهم .

ثم علل ابن رجب ذلك فقال : وسبب هذا ما يُخشى من فتنة الدخول عليهم ، فإن النفس قد تخيل للإنسان إذا كان بعيداً عنهم أنه يأمرهم وينهاهم ويغلظ عليهم ، فإذا شاهدهم قريباً مالت النفس إليهم[100] .

وقد بلغ بابن المبارك البعد عن السلاطين والأمراء أنه ربما جاءه الأمير إلى بابه يسأله عن الحديث ، فيمتنع عن تحديثه إكراماً لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحدث به من لا يطلبه لوجه الله تعالى . فعن أحمد بن أبي الحواري قال :

---

(٩٩) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٦٣ .

(١٠٠) شرح حديث « ما ذئبان جائعان .. » لابن رجب الحنبلي ص ١٢ ــ ١٣ من المجلد الثاني من « مجموعة الرسائل المنيرية » .

حدثني بعض أصحابنا قال : جاء عبد الله بن أبي العباس الطرسوسي ــ وكان والياً بمرو ــ إلى منزل عبد الله بن المبارك بالليل ومعه كاتبه والدواة والقرطاس ، فسأله عن حديث فأبى أن يحدثه ، ثم سأله عن حديث فأبى أن يحدثه ــ ثلاث مرات ــ فقال لكاتبه : اطوِ قرطاسك ما أرى أبا عبد الرحمن يرانا أهلاً أن يحدثنا ، فلما قام يركب مشى معه ابن المبارك إلى باب الدار ، فقال له : يا أبا عبد الرحمن ، لِمَ لَمْ ترنا أهلاً أن تحدثنا وتمشي معنا ؟ فقال : إني أحببت أن أذل لك بدني ولا أذل لك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (١٠١) .

نعم يمنع الحديث عن الأمير إجلالاً لحديث الرسول عليه الصلاة والسلام أن يحدّث به من يبغي من ذلك الشهرة والجاه وحسن السمعة ، ولم يمنعه من ذلك خوف أو رهبة ، فما كان للخوف أن يجد سبيلاً إلى نفسه وهو الذي باع اللهَ نفسَه وماله وما ملكت يــده ، ولذلك كان موقفه من السلاطين دائماً موقف الأبي العزيز ، والحر الكريم ، والجريء الشجاع الذي لا يعبأ بالموت ولا يحسب لغير أحكام الله ودينه حساباً في ذهنه ، ولا يجد لغير الله رهبة في قلبه .

---

(١٠١) حلية الأولياء (٨ : ١٦٩) وذكرها الذهبي في تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٥) .

ولما قدم الرشيد « عين زربــة » طلب ابن المبارك ، قال أبو سليمان : فذكرت وقلت : إن ابن المبارك رجل خراساني لا آمن أن يجيب أمير المؤمنين بما يكره فيقتله ، فأكونُ قد أهلكت أمير المؤمنين وأهلكت ابن المبارك وأهلكت نفسي ، فأمسك الرشيد عن السؤال عنه ثم عاودَ ، فقلت : يا أمير المؤمنين ابن المبارك جلف غليظ الطباع ، فأمسك الرشيد ، ثم ظهر ابن المبارك بعد ثلاث فقيل له : تجنبت ثم ظهرتَ ؟ قال : أردت تفسي على الموت فأبت فلما أجابتني ظهرت[١٠٢] .

وقد روي أن رجلاً خياطاً قال لابن المبارك :

أنا أخيط ثياب السلاطين ، فهل تخاف أن أكون من أعوان الظلمة ؟ قال : لا ، إنما أعوان الظلمة من يبيعك الخيط والإبرة ، أما أنت فمن الظلمة أنفسهم[١٠٣] .

وقد بلغ به البعد عن السلاطين ، والتعفف عن عطاياهم ، أنه لما حضرته الوفاة اشتهى سويقاً ، فلم يوجد إلا عند رجل يعمل من أعمال السلطان ، فعرض عليه فلم يقبل ومات ولم يشرب[١٠٤] .

---

(١٠٢) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٦) .

(١٠٣) إحياء علوم الدين (٢ : ١٣) وتنسب هذه القصة لغيره كذلك .

(١٠٤) ذيل الجواهر المضية (٢ : ٥٢٩) .

هكذا كان رضي الله عنه في إبائه وعزة نفسه ، يترفع عن عطاء الحكام وهباتهم ، ويجل العلم ويربأ به عن أن يكون سُلّماً للوصول إلى الجاه والغنى ، ويقول كلمة الحق ولا يخشى في الله لومة لائم ، وفي مثل ابن المبارك يصدق قول الشاعر :

حَلَفَ الزمانُ ليأتِيَنَّ بمثلِهِ حنثتْ يمينُك يازمانُ فكفِّرِ

تواضُعُه

لعلك تتصور ابن المبارك رجلاً متعالياً على الناس ، يختال في مشيته ، يكاد يخرق الأرض أو يبلغ الجبال طولاً ، بعد ما عرفت من تشعب نواحي العظمة فيه : العظمة في العلم ، والعظمة في المال ، والعظمة في الجود ، والعظمة في البطولة ... ولكن ما أظنك تتصور هذا التصور بعد أن عرفت أنه كان رجلاً ربانياً ، يستعمل كل ذلك لله كما يفعل طلاب الآخرة لا كما يفعل عبيد الدنيا وعشاق زخارفها .

فقد كان متواضعاً للناس لا يرى في نفسه الفضل على أحد ، ولا يرى للمال الذي بين يديه قيمة ، فالغنى لا يرفع الأغنياء ، والفقر لا يخفض الفقراء ، وهو القائل : التعزز على الأغنياء تواضع [١٠٥] . والقائل : رأس التواضع أن تضع نفسك عند من

---

(١٠٥) تنبيه المغترين ١٩٤ .

هو دونك في نعمة الدنيا ، حتى تعلمه أنه ليس لك بدنياك عليه فضل . وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك في الدنيا حتى تعلمه أنه ليس له بدنياه فضل[١٠٦] . وقيل له : ما التواضع ؟ فقال : التكبر على الأغنياء[١٠٧] . وما كان ابن المبارك ليأمر الناس بالتكبر وهو يفسر التواضع ، ولكن التكبر هنا على الأغنياء حتى يعلموا أن أموالهم لا ترفعهم في أعين الناس شيئاً ، لئلا يحتقروا من هو دونهم في نعمة الدنيا ومتاعها فيكونون متكبرين . فقد سئل ابن المبارك عن الكبر فقال : أن تزدريَ الناس[١٠٨] .

وكان متواضعاً في علمه ، فإنه رغم علمه الغزير وثقافته الفريدة ، فقد كان لا يرى أن ما عنده ليس عند غيره من الناس ، وكان يرى ذلك من العُجب المحرم ، فقد سئل عن العجب فقال : أن ترى أن عندك شيئاً ليس عند غيرك[١٠٩] .وكان لشدة تواضعه إذا بلغه عن أصحابه أنهم أضافوا إليه مسألة يرسل إليهم بكشطها بالسكين ، ويقول : من أنا حتى يكتب قولي ؟![١١٠] ، وكان

---

(١٠٦) إحياء علوم الدين (٣ : ٣٤٢) .

(١٠٧) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٨٥ .

(١٠٨) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٦) .

(١٠٩) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٦) .

(١١٠) طبقات الشعراني (١ : ٥٩) .

بالكوفة يقرأ كتاب المناسك فانتهى إلى حديث فيه : « وفيه قال عبد الله .. وبه نأخذ » فقال : من كتب هذا من قولي ؟ فقيل له : الكاتب الذي كتبه . فلم يزل يحكه بيده حتى دُرِس . ثم قال : ومن أنا حتى يكتب قولي ؟ (١١١) . وسئل مسألة في المسجد الحرام فجعل يقول : مثلي يفتي في المسجد الحرام ؟ أو أنا أهل أن أفتي في المسجد الحرام ؟! (١١٢) .

أما تواضعه مع الله سبحانه وتعالى وشعوره بالتقصير والفقر أمامه فهذا أهم الأمور ، وما كان لأحد أن يتواضع مع الناس ثم لا يكون متواضعاً مع خالق الناس ورازقهم ، دعا رجل لعبد الله بن المبارك فقال : أعطاك الله ما ترجوه ، فقال : إن الرجاء يكون بعد المعرفة فأين المعرفة ؟ (١١٣) . وكان يعجبه قول مالك بن دينار : « لو أن منادياً ينادي بباب المسجد : ليخرج شركم رجلاً ، والله ما كان أحد يسبقني إلى الباب إلا رجلاً بفضل قوة أو سعي » ولما بلغ ابن المبارك هذا القول قال : بهذا صار مالك مالكاً (١١٤) . وكان رضي الله عنه لتواضعه إذا ذكر أخلاق من سلف ينشد :

---

(١١١) صفة الصفوة (٤ : ١١٠) ومعنى درس : زال اثره .

(١١٢) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٦٣ .

(١١٣) إحياء علوم الدين (٣ — ٣٤٣) .

(١١٤) إحياء علوم الدين (٣ : ٤٣) .

لا تعرضنّ بذكرنا مع ذكرهم
ليس الصحيح إذا مشى كالمقعد[115]

وكان يقول : أحب الصالحين ولست منهم وأبغض الطالحين وأنا شر منهم [116] ، ويشبه هذا قول الشافعي رضي الله عنه في بيتين من الشعر :

أحب الصالحين ولستُ منهم لعلي أن أنالَ بهم شفاعة
وأكره من بضاعته المعاصي ولو كنا سواءً في البضاعة

وقد بلغ به تواضعه أنه كان يستحي أن يطلب من الله دخول الجنة ، فقد خرج يوماً على أصحابه فقال : إني اجترأت البارحة على الله ، سألته الجنة[117] .

إلى هذا الحد بلغ تواضع ابن المبارك ، ولكن لا تظن أن تواضعه كان ليقلل من مكانته أو ليهوّنه في أعين الناس ، فقد كان يعرف قدر نفسه ويوصي الناس بذلك ، قيل له : أوصني فقال : اعرف قدرك[118] ، ولذلك كان هذا التواضع ينقلب شدة وصلابة أمام السلاطين ، وترفعاً وسمواً على حطام الدنيا وعبيدها ، وقد

---

(115) فضل علم السلف على الخلف لابن رجب ص ١٩ .

(116) حلية الأولياء (٨ : ١٧٠) .

(117) إحياء علوم الدين (٤ : ١٨٥) .

(118) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٨٠ .

رأيت فيما سبق من عزة نفسه وإبائه ما يوضح لك كيفية تواضعه رضي الله عنه وأرضاه .

حُسن مُعاملته

إن المعاملة الحسنة من الدين ، وإن أول ما يجب أن يتخلق به الإنسان لمعاملة الناس حسن الخلق ، وفيه يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق »[١١٩] ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول : « إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً » [١٢٠] ، ولما سئل عن أكثر ما يُدخل الناسَ الجنة قال : « تقوى الله وحسن الخلق »[١٢١] . وكان صلى الله عليه وسلم يقول : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً »[١٢٢] . ويقول : « إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم »[١٢٣] . وقد مدح الله تعالى رسوله الكريم في كتابه بحسن الخلق بقوله : « وإنك لَعَلى خُلقٍ عظيم »[١٢٤] .

---

(١١٩) رواه الترمذي .

(١٢٠) متفق عليه .

(١٢١) رواه الترمذي .

(١٢٢) رواه الترمذي .

(١٢٣) رواه ابو داود .

(١٢٤) الآية ٤ من سورة القلم .

هذه مكانة حسن الخلق من الدين ، ولكن ترى ما هو حسن الخلق ؟ إن ابن المبارك رضي الله عنه وصف حسن الخلق فقال : هو بسط الوجه ، وبذل المعروف ، وكف الأذى[125] . وقيل له : أجمِل لنا حسن الخلق في كلمة ، فقال : ترك الغضب[126] . وهذه كلمات جامعة مقتبسة من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد جاءه رجل فقال له : أوصني ، قال : « لا تغضب » فردد مراراً قال : « لا تغضب »[127] ، وقال له رجل : يا رسول الله ، دلني على عمل يدخلني الجنة . قال « لا تغضب »[128] .

لأجل هذا كان ابن المبارك مثلاً عالياً في حسن الأخلاق، وطيب المعاملة ، وحب الخير للمسلمين والنصح لهم جميعاً . فكان إذا ختم القرآن كان أكثر دعائه للمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات[129] . وكان يحض الناس على التناصح ، فإذا سئل : أي الأعمال أفضل ؟ قال : النصح لله[130] . وكان يقول : ما بقي في زماننا أحد أعرف

---

(١٢٥) سنن الترمذي (٦ : ٢١٤) .

(١٢٦) إحياء علوم الدين (٣ : ١٦٦) .

(١٢٧) رواه البخاري .

(١٢٨) إحياء علوم الدين (٣ : ١٦٥) .

(١٢٩) التبيان ص ٨٣ .

(١٣٠) جامع العلوم والحكم ص ٧١ .

أنه يأخذ النصيحة بانشراح قلب[١٣١] ؛ لذلك كان على غاية اللطف في نصحه . وكان مع كرمه العريض يقبل هدية أصحابه ويثيب عليها زيادة في الملاطفة وتوثيقاً للمودة كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فعن عبدة بن سليمان قال : كنا مع ابن المبارك في المصّيصة فأول ما جاء الليل أهديت إليه جامَ لِبأ على يدِ بُنيٍّ لي ، فقبل منه وصرّ في كفّه ديناراً . ثم لقيته في السوق فقلت : يا أبا عبد الرحمن وجهت إليك ... فقال : اسكت لا تتكلم بشيء . وكنت قد كتبت عنه قبل ذلك حديثاً كثيراً[١٣٢] .

وكان يجالس إخوانه ويلاطفهم ولا يقصر في بذل المعروف إليهم ، وقد رأيت في كرمه أمثلة عالية من إكرامه لأصدقائه وغيرهم . وكان يقول : ألذّ الأشياء : مجالسة الإخوان ، والانقلاب إلى كفاية ، والمودة الدائمة في الله[١٣٣] ؛ وذلك لأن الإخوان عون على الدين ومسلاة للهموم ، ولكن بشرط أن تكون الأخوة في الله لأن ما يكون لغرض غير الله فإنه يزول بزوال ذلك الغرض، والإخوان في الله قلائل حتى في عهد ابن المبارك ، فهو يقول :

---

(١٣١) طبقات الشعراني (١ : ٥٩) .

(١٣٢) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٧٨ .

(١٣٣) إحياء علوم الدين (٢ : ١٨٧) .

ما أعياني شيء كما أعياني أني لا أجد أخاً في الله [١٣٤] ، فكيف في زماننا هذا ؟!

وكان يحب إخوانه ويلاطفهم ويحترمهم ويقول : من استخف بالإخوان ذهبت مروءته[١٣٥] .

قال عبيد بن جناد : ما رأيت أحداً مثل ابن المبارك ، إذا ذكر أصحابه فخّمهم يقول : وأين مثل فلان ؟ ثم يقول : الرفيع من يرفعه الله بطاعته والوضيع من وضعه[١٣٦] ، وكان يحزن لفرقتهم وإذا ودع شخصاً من أصحابه ينشد :

وَهوّنَ وجدي أن فرقة بيننا فراقُ حياة لا فراق ممات[١٣٧]

وكان يحب الخير لمن يصاحبه ويجهد في إرشاده وهدايته ، ويتألم ويأسف إذا لم يستطع أن يرشده سواء السبيل . صحب رجلاً سيء الخلق في سفر ، فكان يحتمل منه ويداريه ، فلما فارقه بكى ، فقيل له في ذلك فقال : بكيت رحمة له فارقته وخلقه معه لم يفارقه[١٣٨] . ومن أمثلة معاملته الرائعة لإخوانه ما حدّث

---

(١٣٤) حلية الأولياء (٨ : ١٦٨) .

(١٣٥) طبقات الشعراني (١ : ٦٠) .

(١٣٦) حلية الأولياء (٨ : ١٦٩) .

(١٣٧) طبقات الشعراني (١ : ٦٠) .

(١٣٨) إحياء علوم الدين (٣ : ٥٢) .

به أبو علي الروذَباري قال : صحبته في طريق مكة فلما دخلنا البادية قال : تكون الأمير أم أكون أنا ؟ قلت : بل أنت ، قال : فعليك بالسمع والطاعة ، فأخذ المخلاة ووضعها على عاتقه ، فقلت: دعني أحمل ، فقال : أنا الأمير أم أنت ؟ قلت : أنت ، فمكثنا ذات ليلة إذ أخذ المطر ، فأخذ الكساء فأظلني وترك نفسه إلى الصباح، فوددت أني مت ولم أقل كن أميراً ، فلما أردت الافتراق قال : يا أبا علي إذا صحبت إنساناً فاصحبه هكذا[١٣٩] .

ومن لطيف آرائه التي تدل على ذوقه وحسن معاملته لجيرانه ولطفه معهم ، ما أشار به على الحسن بن عيسى قال : سألت عبد الله بن المبارك قلت : الرجل يأتيني فيشكو غلامي أنه أتى إليه أمراً والغلام ينكر ذلك ، فأكره أن أضربه ولعله بريء ، وأكره أن أدعه فيجد عليّ جاري ، فكيف أصنع ؟.

قال : إن غلامك لعله أن يحدث حدثاً يستوجب فيه الأدب ، فاحفظ عليه . فإذا شكاه جارك فأدبه على ذلك الحدث ، فتكون قد أرضيت جارك ، وأدبته على حدثه[١٤٠] .

ولم تكن هذه المعاملة الطيبة قاصرة على أصحابه وإخوانه ،

---

(١٣٩) ذيل الجواهر المضية (٢ : ٥٢٩) .

(١٤٠) مكارم الأخلاق للخرائطي ص ٤٠ .

فقد كان قلب ابن المبارك أوسع من ذلك ، لقد كان يرى أن المعروف يجب أن يبذل للناس جميعاً ، وهو القائل :

يد المعروف غنم حيث كانت تحمّلها شكور أو كفورْ
ففي شكرِ الشكور لها جزاء وعند الله ماكفرَ الكفور[(١٤١)]

بل لم تكن قاصرة على المسلمين وحدهم دون غيرهم ، فالخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله ، وقد كان يتمتع بطيب هذه المعاملة كل من عرف ابن المبارك حتى ولو كان يهودياً لا يدين بدين الحق ، وإليك هذا المثل الرائع من طيب معاملته لجاره اليهودي ، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق .

قال الخوارزمي في مفيد العلوم : كان لعبد الله بن المبارك جار يهودي ، فأراد أن يبيع داره فقيل له : بكم تبيع ؟ قال : بألفين ، فقيل له : لا تساوي إلا ألفاً . قال : صدقتم ولكن ألف للدار وألف لجوار عبد الله ، فأخبر ابن المبارك بذلك فدعاه فأعطاه ثمن الدار وقال : لا تبعها[(١٤٢)] .

فكم يا ترى لقي هذا اليهودي من طيب المعاملة وحسن الخلق من ابن المبارك ، مما جعله يرفع سعر الدار إلى الضعف

---

(١٤١) بهجة المجالس وأنس المجالس لابن عبد البر (١:٣٠٧).

(١٤٢) القلائد من فرائد الفوائد ص ١٣٣ . وقد ورد عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان يقول : يزاد في ثمن الدار إذا كان جارها طلق الوجه ، حلو اللسان . كما في « تنبيه المغترين » ص ٧١ .

بسبب جوارها لعبد الله بن المبارك ؟!. انظر إلى هذه المعاملة وتدبر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خير الجيران عند الله خيرهم لجاره[143] » .

وَرَعُهُ

لقد رأينا من ورع والد ابن المبارك الدقيق في معاملته لصاحب البستان ما يحملنا على القول بأن ابن المبارك تأثر بأبيه أولاً في دقة الورع والخوف، حتى قال عنه ابن خلّكان[144]: « وكان شديد الورع » .

وكان لأساتذته الذين صحبهم أكبر الأثر في ذلك ، فقد كان كل واحد منهم مثالاً في ورعه وبعده عن الشبهات ، من أمثال : الثوري ، ومالك ، وأبي حنيفة ، وغيرهم . وقد كان وهيب بن الورد أكثر أساتذته نفعاً له في هذا المجال ، وذلك لأنه كان من العبّاد الأتقياء وكانت له أحاديث ومواعظ وزهد ، وكان سفيان الثوري إذا حدّث الناس وفرغ من حديثهم قال : قوموا بنا إلى الطيب ــ يعني وهيباً ــ[145] . وقد روى عنه ابن

---

(١٤٣) رواه الترمذي وحسّنه .

(١٤٤) وفيات الأعيان (٢ : ٢٣٧) .

(١٤٥) تهذيب الأسماء واللغات (٢ : ١٤٩) .

المبارك كثيراً من الأحاديث ، وتأثر بمواعظه ورقائقه ، وكان يقول عنه : « كان يتكلم ودموعه تقطر[١٤٦] ». وكان يذكر انتفاعه به وتأثره بأحاديثه ، ويحكي عنه من عجيب الزهد والورع والتقشف ما يدهش العقل ، من ذلك قوله : ما جلست إلى أحد كان أنفع لي من مجالسة وهيب ، وكان لا يأكل الفواكه ، وإذا انقضت السنة وذهبت الفواكه يكشف عن بطنه وينظر إليها ويقول : يا وهيب ما أرى بك بأساً ؛ ما أرى تركك للفواكه ضرك شيئاً[١٤٧] .

وقد حفظ لنا التاريخ من ورع ابن المبارك الأعاجيب ، فمن أقواله في الورع أنه كان يقول : لأن أردّ درهماً من شبهة أحب إليّ من أن أتصدق بمائةألف ومائةألف حتى بلغ ستمائةألف[١٤٨]، ويقول : لأن أتصدق بدرهم من حلال أحبّ إليّ من أن أتصدق بستين درهماً من شبهة[١٤٩] ، وكان يقول : الأمر ما كان عليه داود الطائي[١٥٠] . وداود الطائي هذا كان من العشرة الذين

---

(١٤٦) خلاصة تذهيب الكمال ص ٣٦٠ .

(١٤٧) الورع ص ٥١ .

(١٤٨) جامع العلوم والحكم ص ٨٣ .

(١٤٩) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٨٠ .

(١٥٠) الورع ص ٥ .

لا يدخلون بطونهم إلا ما يعرفون أنه مـن الحـلال وإلا استفوا التراب[١٥١] .

هذه أقوال ابن المبارك في الورع ، وسنرى في أفعاله أنه لم يكن من الذين يقولون مالا يفعلون ، ويأمرون ولا يأتمرون ، وينهون ولا ينتهون . وقبل أن نروي شيئاً من ورعه نسوق كلمة تـدل على نظرته إلى الورع ، وكيف يكون المسلم ورعاً ؛ فهو يقول : لو أن رجلاً اتقى مائة شيء ، ولم يتورع عن شيء واحد لم يكن ورعاً ، ومن كان فيه خلة من الجهل كان من الجاهلين ، أما سمعت الله تعالى قال لنوح عليه السلام : « قال : إن ابني من أهلي » فقال الله : « إني أعظك أن تكون من الجاهلين[١٥٢] » هذا هو الانسان الورع في نظر ابن المبارك ، وهكذا كان ورعه هو ، وقد حُكيَ من ورعه أنه كان إذا اشتهى شيئاً لم يأكلـه حتى يشهد بعض أصحابه فيأكله معهم ، وكان إذا اشتهى شيئاً دعا ضيفاً له ليأكل معه ، وكان يذكر عن الأوزاعي أنه قال : ثلاثة لا حساب عليه في مطعمهم : المتسحر ، والصائم حين يفطـر ، وطعام الضيف[١٥٣] .

---

(١٥١) الورع ص ٧ .

(١٥٢) حلية الأولياء (٨ : ١٦٧) .

(١٥٣) جامع العلوم والحكم ص ١٧ .

وكان لا يأكل من كسب غلامه إذا باع شيئاً وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم عند بيعه . فكان يقول : إنك أطريت عليه بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومدحته بها ، حتى اشتراه الناس(١٥٤) .

وكان لا يصلي بمرو في المسجد الجامع إلا الجمعة لا يرى أن يتطوع فيه بسبب أن أبا مسلم كان اغتصب منه شيئاً(١٥٥) .

وكان له أخوات ، وكان لأبيه المبارك بستان بمرو ، فنحله عبدَ الله ، فلما كبر عبد الله وترعرع وجالس أهل العلم وطلب العلم ، جاء إلى أخواته فقال لهن : إنّ أبانا كان صنع أمراً لم ينبغ له أن يصنعه ، نحلني هذا البستان دونكن ، وليس أحد أحق أن يخرج أباه مما جُعل فيه مني ، فقد رددت هذا البستان وجعلته ميراثاً بيننا على كتاب الله عز وجل ؛ فحلّلوا أبانا مما كان دخل فيه ، فقلن له : أنت في حلّ وأبونا في حلّ وهو لك كما كان والدنا نحلك ، قال : لا ، ولكنه ميراث بيننا فحلّلوه ، فحلّلوه ، فتزوج عبد الله فولد له ابن ، فنحل الأخوات ابنَ عبد الله حصصَهن من البستان،فمات الغلام فورثه عبد الله ،فرجع

---

(١٥٤) تنبيه المغترين ص ١٢١ .

(١٥٥) الورع ص ١٧ .

إليه البستان كما كان أبوه نحله[١٥٦] . وفي هذا عظة وعبرة لمن تدبر ، فإن الرزق لا ينقص إذا عرف الانسان حق الله فيه وتورّع عما فيه من شبهات .

وكان ابن المبارك لا يبالي ما بذل من الجهد لينجو يوم القيامة من عذاب الله ، ومن عجيب ورعه أنه استعار قلماً من رجل بأرض الشام ، فنسيه وذهب عليه أن يرده إلى صاحبه ، فلما قدم بلده مرو نظر فإذا القلم معه ، فرجع إلى أرض الشام حتى رده على صاحبه[١٥٧] . وقال له رجل : احمل لي هذا الكتاب معك لتوصله ، فقال : حتى أستأمر الجمّالَ فإني قد اكتريت .

فانظر كيف تورّع من استصحاب كتاب لا وزن له . وهو طريق الحزم في الورع ، فإنه إذا فتح باب القليل انجر إلى الكثير يسيراً يسيراً[١٥٨] .

وروي أنه خرج إلى العراء فنزل عند نهر ، ونصب رمحه وربط فرسه ، فتوضأ وشرع في الصلاة ، فلما سلّم رأى أن فرسه انفلت يأكل الزرع ، فقال : إنه أكل حراماً فلا ينبغي أن

---

(١٥٦) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٨٧ .

(١٥٧) تاريخ بغداد (١ : ١٦٧) وتهذيب التهذيب (٥:٣٨٧).

(١٥٨) إحياء علوم الدين (١ : ٢٢٨) .

يغزى عليه ، وتركه لصاحب الزرع ، واشترى فرساً أخرى ومضى لسبيله(١٥٩) .

هذا ورع ابن المبارك ، ورع الخائف الوَجل من يوم الحساب ، الذي لا يبالي ما خسر من دنياه إذا سلمت له آخرته وسلم له دينه ، وهذا ما عناه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذراً مما به بأس(١٦٠) » . وقد كان الإمام أحمد بن حنبل إذا ذكر ورع ابن المبارك قال : إنما رفعه الله بمثل هذا(١٦١) .

وكان ابراهيم بن الشماس يقول : لو تمنيت كنت أتمنى عقل ابن المبارك وورعه(١٦٢) .

عبادته وتقواه

أما عن عبادته وتقواه فذلك حديث يطول ، فقد كان رضي الله عنه رجلاً ربانياً ، نظر إلى الدنيا كطريق إلى الآخرة ، فصار يتزوّد منها ، لا يدع لحظة تفوته دون أن يجعل منها طاعة لله ،

---

(١٥٩) كنوز الأولياء ــ مخطوط ــ ص ١٨٦ .

(١٦٠) رواه الترمذي وحسّنه .

(١٦١) الورع ص ٥ .

(١٦٢) تاريخ بغداد (١٣ : ٤٧٣) .

وعبادة خالصة له ، فقد عَبَدَ اللهَ في ماله فأنفقه في سبيل الله ، وعَبَدَ الله في جسمه فجاهد لإعلاء كلمة الله ، وعَبَدَ الله في علمه فنشره بين الناس ابتغاء مرضاة الله ، وعَبَدَ الله في نهاره فصامه ، وعَبَدَ الله في ليله فقامه ، وهو مع كل ذلك يخالط الناس ويعلّمهم ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر وينصحهم في دينهم . ورغم كل هذه الأعمال التي يقدمها ابتغاء ثواب الله وثمناً لجنةٍ عرضها السموات والأرض ، فقد كان يقضي وقته خائفاً وجلاً مخبتاً لله تعالى ، يبكي ويذرف الدموع ، ويكثر من الصلاة وتلاوة القرآن وذكرِ الله عز وجل . قال عَبْدة بن سليمان : كان ابن المبارك إذا صلى العصر أتى مسجد المصيصة فاستقبل القبلة يذكر الله، ولم يكلم أحداً حتى تغرب الشمس[١٦٣]، وقال نعيم بن حماد : ما رأيت أكبر اجتهاداً منه في العبادة[١٦٤] ، وقد كان رضي الله عنه يقوم الليل كله بالصلاة وتلاوة آيات الله . قال علي بن الحسن بن شقيق : لم أرَ أحداً من الناس أقرأ من ابن المبارك ، ولا أحسن قراءة ولا أكثر صلاة منه ، كان يصلي الليل كله في السفر وغيره ، وكان يرتل القرآن ، وإنما ترك النوم في المحمل لأنه كان يصلي وكان الناس لا يدرون[١٦٥] .

---

(١٦٣) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٦٩ .

(١٦٤) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٥) .

(١٦٥) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٦٦ ، والمحمل : الهودج، وهو بيت من خشب يجعل لراكب الإبل .

وقال له رجل : قرأت البارحة القرآن في ركعة ، فقال : لكني أعرف رجلاً لم يزل البارحة يكرر « ألهاكم التكاثر » إلى الصبح، ماقدر أن يتجاوزها[١٦٦] ــ وذلك لأنه كان يتدبر معاني القرآن ويتفهمها ــ •

وكان يقوم الليل بطوله،ويصوم النهار في الحر الشديد سواء في السفر والحضر، وحتى لو كان في الثغور للحرب والجهاد،وكان يسرّ العبادة ويكره أن يطلع عليها الناس حتى ولو كانوا أصحابه وذويه • قال قطن بن سعيد : ما أفطر ابن المبارك قط ولا ُرئي صائماً قط[١٦٧] • وذلك لتكون النية خالصة لله ، وأبعد عن الرياء وحب السمعة ، وقد كان رحمه الله تعالى يقول : إن الرجل ليطوف بالكعبة وهو يرائي أهل خراسان فقيل له : وكيف ذلك ؟ قال : يحب أن يقول فيه أهل خراسان : إن فلاناً مجاور بمكة على طواف وسعي فهنيئاً له[١٦٨] • ولما قدم من البصرة إلى بغداد سأل عن محمد بن واسع فلم يعرفه أحد ، فقال : إنه من فضله لم ُيعرف، وازداد فيه محبة وتعظيماً[١٦٩] ــ وذلك لإسراره بالعبادة

---

(١٦٦) سير اعلام النبلاء ــ مخطوط ــ (٦ : ٢٥١) •

(١٦٧) حلية الأولياء (٨ : ١٦٧) •

(١٦٨) تنبيه المغترين ١٢ •

(١٦٩) المرجع السابق ١٥٥ •

وبعده عن الشهرة . ومن الحوادث النادرة في إسراره بالعبادة : ما حدَّث به خادمه الذي كان يخرج معه في الأسفار ويصحبه في الغزو والجهاد . أخبر محمد بن أعين ــ وكان صاحب ابن المبارك في الأسفار وكان كريماً عليه ــ قال : كان ذات ليلة ونحن في غزاة الروم ، ذهب ليضع رأسه ليريني أنه ينام ، فقعدت أنا ورمحي في يدي قبضت عليه ، ووضعت رأسي على الرمح كأني أنام كذلك ، فظن أني قد نمت فقام فأخذ في صلاته ، فلم يزل كذلك حتى طلع الفجر وأنا أرمقه ، فلما طلع الفجر جاء فأيقظني وظن أني نائم وقال : يا محمد ، فقلت : إني لم أنم ، فلما سمعها مني ما رأيته بعد ذلك يكلمني ولا ينبسط إليّ في شيء من غزاته كلها، كأنه لم يعجبه ذلك مني لما فطنت له من العمل ، فلم أزل أعرفها فيه حتى مات ، ولم أر رجلاً قط أسرّ بالخير منه(١٧٠) .

هذا ما أخبر به خادمه وصديقه ومرافقه في السفر ، والسفر يُسفر عن فضائل الرجال وعيوبهم ، فأسفر عن رجل صوّام قوّام يسرّ الخير ويكره أن يطلع عليه الناس ، أطار خوفُه من الله النومَ من أجفانه ، فكابد الليل متهجداً لله عابداً خاشعاً متضرعاً . وكان يقول : إن الصالحين فيما مضى كانت أنفسهم تواتيهم على الخير عفواً ، وإن أنفسنا لا تكاد تواتينا إلا على

---

(١٧٠) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٦٦ .

كره ، فينبغي لنا أن نكرهها[١٧١] ، وكان يقول : مسكين ابن آدم قد وُكّل به خمسة أملاك : ملكان بالليل ، وملكان بالنهار يجيئان ويذهبان ، والخامس لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً [١٧٢]. وقيل له : كيف تعلم الملائكة أن الإنسان قد همّ بحسنة ؟ فقال رضي الله عنه : يجدون ريحها [١٧٣] . ولذلك ملأ وقته بالعبادة ، وكان يتحرى أن يختم نهاره بذكر الله عز وجل ، ويقول : من ختم نهاره بذكر كُتب نهاره ذاكراً[١٧٤] .

وكان يكثر الجلوس في بيته فقيل له : ألا تستوحش ؟ فقال : كيف أستوحش وأنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه[١٧٥] ؟ وكان يعتزل مجالس المنكر واغتياب الناس ، قيل له : إذا صليت معنا لِمَ لا تجلس معنا ؟ قال : أذهب مع الصحابة والتابعين ، قيل له : ومن أين الصحابة والتابعون ؟ قال : أذهب أنظر في علمي فأدرك آثارهم وأعمالهم ، فما أصنع معكم أنتم تغتابون الناس[١٧٦] ..

---

(١٧١) صفة الصفوة (٤ : ١٢١) .

(١٧٢) طبقات الشعراني (١ : ٥٩) .

(١٧٣) المرجع السابق (١ : ٦٠) .

(١٧٤) المرجع السابق (١ : ٥٩) .

(١٧٥) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٤) .

(١٧٦) حلية الأولياء (٨ : ١٦٤) .

وكان رضي الله عنه كثير الصمت ، وكثرة الصمت غالباً ما تكون دليل كمال العقل ، وانشغال الفكر بالتدبر ، وبالمقابل فكثرة الكلام علامة على عدم الاتزان ، تماماً كما قال الشاعر :

إذا تمّ عقل المرء قلّ كلامه وأيقنْ بحمق المرء إن كان مهذارا

وقد حضر ابن المبارك يوماً عند الثوري فلم يتكلم بحرف حتى قام ، فلما قام قال الثوري لأصحابه : وددت أني أقدر أن أكون مثله[177] .

وكان مع هذه العبادة المتواصلة في الليل صلاة وقياماً ، وفي النهار جهاداً وصياماً ، وفي كليهما نشراً للعلم ودعوة إلى الله ، كان شديد الخوف من الله عز وجل ، وذلك لأن أعلم الناس بالله تعالى أشدهم منه خشية ، وأكثرهم له عبادة ، وإنما يخشى اللهَ من عباده العلماء . وكان يقول : أكثركم علماً ينبغي أن يكون أشدكم خوفاً[178] ، ويقول : كيف يدّعي رجل أنه أكثر علماً وهو أقلّ خوفاً وزهداً ؟[179] ولذلك كان خوفه من الله على قدر علمه بالله ومعرفته به . فهو في خشية شديدة دائماً ، وربما اشتد به البكاء حتى لا يستطيع أن يتكلم ولا يجرؤ أحد أن يكلمه .

---

(177) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٦٦ .

(178) حلية الأولياء (٨ : ١٦٨) .

(179) طبقات الشعراني (١ : ٥٩) .

فعن نعيم بن حماد قال : كان ابن المبارك إذا قرأ كتاب الرقاق يصير كأنه ثور منحور أو بقرة منحورة من البكاء ، لا يجترىء أحد منا أن يدنو منه أو يسأله عن شيء إلا دفعه[١٨٠] . وكان هذا الخوف من الله تعالى لا يفارقه في سفر ولا حضر ، وكان خوفه من هول يوم القيامة يخلع قلبه ، ويصرع فؤاده ، فعن سويد بن سعيد قال : رأيت ابن المبارك دخل زمزم فقال : اللهم إنّ ابن المؤمّل حدثني عن أبي الزبير عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ماء زمزم لما شرب له » اللهم فإني أشربه لعطش يوم القيامة[١٨١] .

---

(١٨٠) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٧) .

(١٨١) فتح القدير (٣ : ١٩٠) . يستحب الدعاء عند الشرب من زمزم وقد كان ابن عباس رضي الله عنهما إذا شرب ماء زمزم قال : اللهم إني أسألك علماً نافعاً ورزقاً واسعاً وشفاء من كل داء (كما في الترغيب ٢/٢١٠) . وقد شرب جماعة من العلماء ماء زمزم لمقاصد فحصلت ، فمنهم الإمام الشافعي شربه للرمي فكان يصيب بدقة ، وشربه الحاكم لحسن التصنيف فكان احسن أهل عصره تصنيفاً ، قال ابن حجر : « ولا يحصى كم شربه من الأئمة لأمور نالوها ، قال : وانا شربته في بداية طلب الحديث أن يرزقني الله حالة الذهبي في حفظ الحديث ، ثم حججت بعد مدة تقرب من عشرين سنة وانا اجد من نفسي المزيد على تلك الرتبة ، فسألت رتبة أعلى منها وارجو الله انال ذلك منه » وقال الكمال بن الهمام :
←

هكذا كانت عبادته ، وهكذا كان خوفه من الله تعالى ، وكيف لا يخاف وذكر هاذم اللذات على لسانه ، يستعد له ويوصي من حوله بالاستعداد له أيضاً ، فقد كان يقول للفضيل : استعد للموت ولما بعد الموت[182] .

وكيف لا يخاف المؤمن ؟ والمؤمن إذا ذكر الله وجل قلبه ، وخشع بدنه وجوارحه ، وكيف لا يخاف مؤمن بالله ، وهو يعلم أن الموت يرتقبه ، وأن القبر سيضمه ، وأن على الصراط ممشاه ، ويوم القيامة موعده ، وانه لا يعرف مصيره إلى جنة سيكون أم إلى نار . وما أروع ماكان ينشده عمر بن عبد العزيز رحمه الله عندما كان يغلبه النوم عند القيام في الأسحار ، فقد كان يقوم فيجول في الدار وينشد :

وكيف تنام العين وهي قريرة ولم تدر في أي المحلّين تنزل[183]

« والعبد الضعيف ـ يعني نفسه ـ يرجو الله سبحانه شربة الاستقامة والوفاة على حقيقة الاسلام معها » . راجع فتح القدير (٣ : ١٩١) . وكذلك ذكر السيوطي أنه لما حج شرب من ماء زمزم لأمور منها : أن يصل في الفقه إلى رتبة الشيخ سراج الدين البلقيني وفي الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر . انظر ذلك في ترجمته لنفسه في « حسن المحاضرة » ١/٣٣٥ ـ ٣٣٩ .

(١٨٢) حلية الأولياء (٨ : ١٦٨) .

(١٨٣) تنبيه المفترين ٦٦ .

بهذه الخشية الشديدة رفع الله ابن المبارك وأعز ذكره .

فعن القاسم بن محمد قال : كنا نسافر مع ابن المبارك ، فكثيراً ما كان يخطر ببالي فأقول في نفسي : بأيّ شيء فضل هذا الرجل علينا حتى اشتهر في الناس هذه الشهرة ؟ إن كان يصلي إنا نصلي ، وإن كان يصوم إنا نصوم، وإن كان يغزو فإنا نغزو، وإن كان يحج إنا نحج . قال : فكنا في بعض مسيرنا في طريق الشام ليلة تتعشى في بيت إذ طفىء السراج ، فقام بعضنا فأخذ السراج وخرج يستصبح ، فمكث هنيهة ثم جاء بالسراج ، فنظرت إلى وجه ابن المبارك ولحيته قد ابتلت من الدموع ، فقلت في نفسي : بهذه الخشية فضل هذا الرجل علينا . ولعله حين فقد السراج وصار في الظلمة ذكر القيامة(١٨٤) .

وقد ذكره أبو عبد الله أحمد بن حنبل يوماً ، فقال : ما رفعه الله إلا بخشية كانت له ، ما أخرجت خراسان مثل ابن المبارك(١٨٥) .

---

(١٨٤) صفة الصفوة (٤ : ١٢١) .

(١٨٥) الورع ص ٧٣ .

تصَوُّفُـهُ

عرفنا أن ابن المبارك رضي الله عنه كان محدثاً ثقةً ، وفقيهاً إماماً ، وزاهداً أخروياً ، وغنياً سخياً ، ومجاهداً بطلاً ، وعزيزاً أبياً ، وداعيةً معلّماً ، ولطيفاً متواضعاً ، وورعاً عابداً تقياً ، فهل كان ابن المبارك مع ذلك صوفياً ؟.

إن ابن المبارك خير من فهم التصوف الصحيح ، الذي معناه الاتباع الكامل لشريعة الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وتخلية القلب مما سوى الله عز وجل من شواغل الدنيا والتعلق بالأغيار ، والرغبة الصادقة في الجنة ، والخشية الشديدة من النار ، والإعراض عن حب الدنيا ، والإقبال بالكلية على الآخرة. وذلك أن ابن المبارك كان رجلاً ربانياً محمدياً ، يتبع شرع الله وسنة رسوله المطهرة وخلفائه الهادين المهديين يعض عليها بالنواجذ ، وكان إماماً في العلم قبل أن يكون إماماً في التصوف. فهو يسير في عبادته وتصوفه وفي كل شؤونه على هدى وبصيرة، وأي تصوف أسمى من اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومما سبق من أقواله وأفعاله يبدو واضحاً من أي نوع كان تصوفه . فقد كان غنياً فلم يخرجه عن التصوف غناه ، بل كان غناه طاعة وعبادة كما رأيت ، وكان مجاهداً بطلاً يرابط على الثغور ويجالد الفرسان ويسهر للحراسة في سبيل الله ، ولم يفهم

من التصوف ــ كما يفهم بعض الجهلة من متصوفة هذا الزمان ــ أن يقعد مع القاعدين وأن يكون مع الخوالف . وقد كان ورعاً تقياً عابداً مخبتاً يحاسب نفسه ويقيمها على شرع الله ، وقد سأله رجل عن الرباط فقال : رابط بنفسك على الحق حتى تقيمها عليه فذلك أفضل الرباط[١٨٦] .

وكان ناصحاً للناس يأمرهم وينهاهم ويعلمهم الخير ، وينشر بينهم علوم الدين ، وكان في كل ذلك لا يبتغي سوى مرضاة الله سبحانه ، وقد رأيت إسراره وإخلاصه بالعبادة وهو يتصدق بالآلاف ويحلّف أن لا يذكر اسمه ، ورأيت إخلاصه وهو يجالد أكبر الفرسان ، فيصرعه ثم يغطي وجهه بكمه ليتوارى عن أنظار الناس ، ورأيته وهو يغافل أصحابه ليقوم الليل كله ، كل ذلك لتبقى النية خالصة لوجه الله ، وكان يقول : رُبَّ عمل صغير تعظّمه النية ، ورب عمل كبير تصغره النية[١٨٧] .

وكان محباً للصالحين يكرمهم ويحرص على مجالستهم ، ويقول : إن الرحمة تنزل عند ذكر الصالحين[١٨٨] . كما كان يحب المواعظ والرقائق ، يقرؤها ويتأثر بها حتى يكاد يُغمى عليه من

---

(١٨٦) حلية الأولياء (٨ : ١٧١) .

(١٨٧) جامع العلوم والحكم ص ١٠ وطبقات الشعراني (١ : ٥٩) .

(١٨٨) طبقات الشعراني (١ : ٦٠) .

شدة البكاء . وعن عبد الله بن حوشب الطائفي قال : زاملت ابن المبارك فذكر يوماً قصيدة لسليمان العدوي ، فقال لي : يا أبا محمد : هذه أحب إليّ من قصر ابن طاهر !. ثم ذكر يوماً كلاماً من هذه الرقائق ، فقال لي : يا أبا محمد ضيّعنا أيامنا في الإيلاء والظهار وتركنا هذا العلم(189) . وكان يقول : أهل الدنيا خرجوا من الدنيا قبل أن يطعموا أطيب ما فيها . قيل له : وما أطيب ما فيها ؟ قال : المعرفة بالله عز وجل(190) . وكان كارهاً للشهرة ينفر منها ولا يتكلف لها ، وينفّر منها الناس ، لأن الاشتهار مذموم إلا من شهره الله لنشر دينه من غير تكلف منه للشهرة . بل كان يرتفع بذلك إلى أن يقول : لا تحب من نفسك أنك تحب الخمول فترفع نفسك(191) ، ويقول : « دعواك الزهد من نفسك يخرجك عن الزهد » و « سلطان الزهد أعظم من سلطان الرعية ؛ لأن سلطان الرعية لا يجمع الناس إلا بالعصا ، والزاهد يَنْفِرُ من الناس فيتبعوه »(192) . وكان مع كل مارأيته

---

(189) تقدمة الجرح والتعديل ص 279 .

(190) حلية الأولياء (8 : 167) .

(191) طبقات الشعراني (1 : 59) ومراده من الخمول عدم الشهرة .

(192) المرجع السابق .

من العبادة والزهد والإخلاص شديد الحياء من الله عز وجل ، يرى نفسه أقلّ من أن يسأل ربه الجنة . خرج يوماً على أصحابه فقال : إني اجترأت البارحة على الله ... سألته الجنة[١٩٣] ، وإن الانسان ليقف خاشعاً أمام هذه الكلمة التي تدل على شدة المعرفة بالله وشدة الحياء من الله . ولعمري أي شيء يكون التصوف الصحيح إن لم يكن هذا ؟

وكان على استعداد دائم للموت ، إذا أصبح لا ينتظر المساء وإذا أمسى لا ينتظر الصباح ، يعمل لآخرته عمل الذي سيقبل غداً على الله بوجه أبيض متزوّداً من كل ماينفعه ، جاءه أحمد بن حامد الأسود فقال له: رأيت في المنام أنك تموت بعد سنة فلو استعددتَ للخروج . فقال له عبد الله بن المبارك : لقد أجلتنا إلى أمد بعيد ، أعيش أنا إلى سنة ؟! لقد كان لي أنس بهذا البيت الذي سمعته من هذا الثقفي ــ يعني أبا علي ــ :

يامنْ شكاشوقهُ منطولِ فرقتهِ اصبر لعلكتلقىمن تحبغدا[١٩٤]

فابن المبارك خير من يمثل هذا العلم ، وخير من يتصدر ليدل الناس على الخير والهدى ، ويصل حبالهم بالله سبحانه ؛ لأن التصوف كما يقول الإمام الشعراني[١٩٥] : « إنما هو زبدة عمل

---

(١٩٣) إحياء علوم الدين (٤ : ١٨٥) .

(١٩٤) تنوير القلوب للشيخ امين الكردي ص ٤٩٠ .

(١٩٥) طبقات الشعراني (١ : ٤) .

العبد بأحكام الشريعة ، إذا خلا عمله من العلل وحظوظ النفس » ولذلك صُدِّرت تراجم الصوفية باسمه ؛ لأن تصوفه لم يكن تصوف الجاهل المتعالم ، الذي لا يعرف إلا التواكل والبطالة والسلبية ، والقعود عن الجهاد في سبيل الله الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لغَدْوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها »[١٩٦] وقال : « رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها »[١٩٧] . بل كان تصوفه تصوف العالم بأحكام الشرع ، العامل بها ، والدالِّ عليها . وما كان يعرف ذلك الزمن من يتصدى لذلك إلا أكابر الأئمة ورؤوس العلماء والمتبحرون في الشريعة ؛ وهذا هو علة الاختلاف بين تصوف وتصوف . قال الإمام الشعراني[١٩٨] : «وقد أجمع القوم على أنه لا يصلح للتصدر في طريق الله عز وجلّ إلا من تبحر في علم الشريعة ، وعلم منطوقها ومفهومها ، وخاصها وعامها ، وناسخها ومنسوخها ، وتبحر في لغة العرب حتى عرف مجازاتها واستعاراتها وغير ذلك ، فكل صوفي فقيه ولا عكس » .

وكان الإمام الجنيد رحمه الله يقول : « كتابنا هذا ــ يعني القرآن ــ سيد الكتب وأجمعها ، وشريعتنا أوضح الشرائع وأدقها،

---

(١٩٦) متفق عليه .

(١٩٧) متفق عليه .

(١٩٨) طبقات الشعراني (١ : ٤) .

وطريقتنا ــ يعني طريق أهل التصوف ــ مشيدة بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ، ويحفظ السنة ، ويفهم معانيهما ، فلا يصح الاقتداء به » .[199]

وشيء أخير نذكره عن تصوف ابن المبارك ، وهو أن تصوفه لم يمنعه من مخالطة الناس والتآلف مع المؤمنين ، والتحبب إلى الإخوان والاستعانة بهم في الدين تعاوناً على البر والتقوى ، وكان يفضل ذلك على العزلة والانقطاع عن الناس . وقد استحب ذلك أكثر النابغين وفضلوه على العزلة ، ومال إلى هذا سوى ابن المبارك : سعيد بن المسيّب ، والشَّعْبي ، وابن أبي ليلى ، وهشام بن عروة ، وابن شبرمة ، وشريح ، وشريك بن عبد الله ، وابن عيينة ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وجماعة . فقد كان هؤلاء جميعاً يفضّلون المخالطة والصحبة والمؤاخاة في الله والمؤالفة للمسلمين على اعتزال الناس ؛ وذلك ليعلموا ويتعلموا ، وينفعوا وينتفعوا ، وهذا لا يكون إلا بالمخالطة . وذهب جماعة من العبّاد والزهاد إلى اختيار العزلة وتفضيلها على المخالطة مثل : سفيان الثوري ، وإبراهيم بن أدهم ، وداود الطائي ، وفضيل بن عياض .. وجماعة غيرهم وللطرفين أدلة وحجج . والفصل في ذلك كلام الإمام الشافعي رضي الله عنه إذ يقول :

---

(١٩٩) تنبيه المغترين ص ٨ .

« الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة ، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء ؛ فكن بين المنقبض والمنبسط »[٢٠٠] .

مما سبق يظهر لك نوع تصوف ابن المبارك . فهو تصوف العالم العابد الذي فرَّغ قلبه مما سوى الله ، وأخلص كل أعماله وأقواله لله . وهو تصوف الداعية الذي يخالط الناس ويعلمهم ويؤدِّبهم ، ويأمرهم وينهاهم ، ويحسن إليهم ، ويخالطهم ويصبر على أذاهم . وقد ذُكر له يوماً ما كان عليه يوسف بن أسباط من العبادة فقال : لقد ذكرتم قوماً يستشفى بذكرهم ؛ ولكن إن فعل الناسُ جميعهم ذلك فمن لسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ومن لعيادة المرضى وشهود الجنائز ...؟ وعدَّ أنواعاً من القرب[٢٠١] .

هذا هو ابن المبارك الصوفي ؛ فليتنا اتخذنا منه مثالاً وأسوة : « أولئك الذينَ هدَى اللهُ فبهداهمُ اقتدِه » .

شيءٌ من كراماته

وبعد ما رأيت من فضل ابن المبارك وتقواه وعبادته وورعه ؛ أيكون عجيباً أن يستجيب الله دعاءه ؟ وأن يكرمه ببعض الأمور التي يكرم بها عباده الصالحين ؟!

(٢٠٠) انظر البحث مفصلاً في إحياء علوم الدين جـ٢ بحث العزلة .

(٢٠١) طبقات الشعراني (١ : ٦٠) .

ليس ذلك عجيباً ولا مستنكراً ، وقد ذهب جمهور أهـل السنة إلى إثبات الكرامة ، وجواز وقوعها من أولياء الله المؤمنين المتقين . وفي ذلك يقول صاحب الجوهرة :

وأثبتَنْ للأوليـا الكرامـة   ومن نفاهـا فانبذنْ كلامـهْ

والكرامة كما يعرّفها اللّقّاني[٢٠٢] : « أمر خارق للعادة . غير مقرون بدعوى النبوة ولا هو مقدمة لها . ويظهر على يد عبد ظاهر الصلاح . ملتزم لمتابعـة نبي كلف بشريعته . مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح . علم بها أو لم يعلم » .

ولكن بالغ البعض في العناية بكرامات الأولياء أكثر مـن العناية بمعجزات الأنبياء ، وجعلوا في أغلب الأحيان من الحبة قبة ، ومن السراب حقيقة . وإن أكبر كرامة للمؤمن هي استقامته على الشريعة واتباعه لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذه هي الكرامة التي لا يمكن أن تكون استدراجاً .

وقد أكثر صاحب كنوز الأولياء من سرد كرامات وخوارق ابن المبارك، وجاء بما لم أجد له أثراً في غير هذا الكتاب من المصادر المعتمدة . ولذلك سنضرب صفحاً عما ذكره في كتابه من كرامات وقصص لعدم وجودها في الكتب المعتمدة التي ترجمت له .

وعلى كل حال فقد كان لابن المبارك رضي الله عنه كرامات أكرمه الله بها . قال الخليلي في الإرشاد : ابن المبارك الإمام المتفق

---

(٢٠٢) شرح جوهرة التوحيد لعبد السلام اللقاني ص ٢٠٦ .

عليه له من الكرامات مالا يحصى ، يقال : إنه من الأبدال .(٢٠٣)

وقال الحسن بن عيسى فيه : كان مجاب الدعوة .(٢٠٤)

ومن أمثلة دعواته المستجابة ما رواه شاهد عيان ؛ فعن أبي وهب قال : مر ابن المبارك برجل أعمى فقال : أسألك أن تدعو الله أن يردّ الله عليّ بصري ، فدعا الله فرد عليه بصره وأنا أنظر .(٢٠٥)

وقد سبق أنه دعا للحسن بن عيسى وكان نصرانياً : اللهم ارزقه الاسلام ، فاستجاب الله دعوته فيه .(٢٠٦)

---

(٢٠٣) تهذيب التهذيب (٥ : ٣٨٧) والأبدال : هم الأولياء والعبّاد ، جمع بَدَل ، سمّوا بذلك لأنهم « كلما مات رجل منهم أبدل الله مكانه رجلاً » وقد وردت أحاديث كثيرة في الأبدال وعددهم وأوصافهم ، منها المقبول ومنها المردود ، جمعها السيوطي في رسالة سماها «الخبر الدال» وأوردها في «حاويه» (٢ : ٤١٧–٤٣٧)، وقال السخاوي في « المقاصد الحسنة » : ومما يتقوى به هذا الحديث ــ أي أحاديث الأبدال عامة ــ ويدل لانتشاره بين الأئمة قول إمامنا الشافعي رضي الله عنه في بعضهم : «كنا نعده من الأبدال» وقول البخاري في غيره : « كانوا لا يشكون أنه من الأبدال » وكذلك وصف غيرهما من الحفاظ والنقاد والأئمة غير واحد بأنهم من الأبدال .

(٢٠٤) تهذيب التهذيب (٥ : ٣٨٦) .

(٢٠٥) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٧) ، وقد ورد أيضاً في تهذيب التهذيب (٥ : ٣٨٦) . والفوائد البهية ص ١٠٤ ، وذيل الجواهر المضية (٢ : ٥٣١) .

(٢٠٦) تهذيب التهذيب (٢ : ٣١٤) .

وهذه كرامة يكرمها الله لابن المبارك • وقد استجاب الله دعاء كثير من الصحابة رضي الله عنهم • وإجابة دعوة سعد في أسامة بن قتادة [٢٠٧] ، ودعوة سعيد بن زيـد في المرأة [٢٠٨] • ثابت في الصحيحين • وقد قال الله تعالى : « وقال ربكم ادعوني أستجبْ لكم » •

وفضل ابن المبارك رضي الله عنه أوضح من أن نستدل عليه بالكرامات فنكتفي بهذا القدر •

---

(٢٠٧) وذلك أن سعد بن أبي وقاص دعا على أسامة هذا لما تكلم في إمارة سعد وعدله ، فقال سعد : أما والله لأدعوَنَّ بثلاث : اللهم إن كان عبدك هذا كاذباً قام رياء وسمعة ، فاطل عمره ، واطل فقره ، وعرّضه بالفتن .

فكان اسامة قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر ، ويتعرض للجواري في الطرق ، وإذا سئل يقول : شيخ كبير مفتون أصابتني دعوة سعد .

والقصة موجودة في صحيح البخاري في أبواب صفة الصلاة .

(٢٠٨) وذلك أن اروى بنت اويس خاصمت سعيداً في بعض داره ، فقال : دعوها وإياها ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من أخذ شبراً من الأرض بغير حقه طوّقه في سبع ارضين يوم القيامة ، ثم دعا عليها فقال : اللهم إن كانت كاذبة فاعم بصرها واجعل قبرها في دارها .

فعميت وصارت تلتمس الجدر تقول : أصابتني دعوة سعيد ابن زيد . فبينما هي تمشي في الدار مرت على بئر في الدار فوقعت فيها فكانت قبرها .

والقصة موجودة في صحيح مسلم في بـاب تحريم الظـلم وغصب الأرض .

الفَصْل الخَامِسْ

مَكانتهُ عندَ العلماء وَالناسِ

عرفنا ابن المبارك الامام العلم ، شيخ الاسلام ، وفريد عصره علماً وزهداً ، وشجاعة وسخاء ، وتقى وورعاً ، ونصحاً للأمة ، واتباعاً للنبي صلى الله عليه وسلم . ورأينا كيف كان أئمة عصره يطلقون عليه أسمى ألقاب التعظيم والتبجيل ، اعترافاً بمكانته في العلم ، فهو أعلم أهل المشرق والمغرب ، وهو طبيب الحديث وأمير المؤمنين فيه ، وهو فقيه العرب وإمام المسلمين ، إلى غير ذلك من الألقاب التي تدل على مكانته العالية ومنزلته الرفيعة بين علماء عصره . فقد كان عبد الرحمن بن مهدي يقول : حدثني ابن المبارك وكان نسيجَ وحدِه[1] . وكان يفضله على سفيان الثوري . وقيل له مرة : أيهما أفضل عندك ابن المبارك أو سفيان الثوري ؟ فقال : ابن المبارك ، فقيل له : إن الناس يخالفونك . قال : إن الناس لم يجربوا ، ما رأيت مثل ابن المبارك[2] . وقدم ابن مهدي

---

(١) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦١) وتقدمة الجرح والتعديل ص ٢٦٨ .

(٢) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦١) .

بغداد في بيع دار له ، فاجتمع إليه أصحاب الحديث فقالوا له : جالست سفيان الثوري وسمعتَ منه ، وسمعتَ من عبد الله ، فأيهما أرجح ؟ فقال : ما تقولون لو أن سفيان جهد جهده على أن يكون يوماً مثل عبد الله لم يقدر[3] ؟ وبالفعل فقد كان سفيان يتمنى أن يكون أياماً مثل ابن المبارك . وكان يقول : إني لأشتهي من عمري كله أن أكون سنة واحدة مثل عبد الله بن المبارك فما أقدر أن أكون ولا ثلاثة أيام .[4] بل كان سفيان يتمنى أقل من ذلك كان يقول : وددت عمري كله بثلاثة أيـام من أيـام ابن المبارك .[5] وليس سفيان وحده الذي يتمنى ذلك ، فهذا شعيب ابن حرب يقول : لو جهدت جهدي أن أكون في السنة ثلاثة أيام مثل ابن المبارك لم أقدر .[6]

وكانت رؤيته تسر القلوب ، وتقر العيون ، ويتباهى بهـا العلماء ؛ فعن عبد الرحمن الجهضمي قال : قال الأوزاعي : رأيتَ

---

(٣) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦١) . وعبد الرحمن بن مهدي الذي يشهد لابن المبارك هذه الشهادات هو الإمام الكبير الذي يقول فيه علي بن المديني : لو حلفت بين الركن والمقام ، لحلفت اني لم ار احداً أعلم من عبد الرحمن بن مهدي . كما في الترمذي (٩ : ٤٤٩) .

(٤) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٢) .

(٥) شذرات الذهب (١ : ٢٩٦) .

(٦) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٤) .

ابن المبارك ؟ قلت : لا . قال : لو رأيته لقرت عينك .(٧) وقال الأوزاعي أيضاً مثل ذلك لأبي عثمان الكلبي . وعن عبيد بن جناد قال : قال لي عطاء بن مسلم : يا عبيد هــل رأيت ابن المبارك ؟ قلت : نعم . قال : ما رأيتَ بعينيك مثله ، ولا ترى بعينيك مثله حتى تموت . وقد قال فيه غير واحد : لم أر مثل عبد الله بــن المبارك .(٨)

وكان فضيل بن عياض يقول : ما أحب أن يستأذن عليَّ أحد إلا العـُمـَري وابن المبارك .(٩)

وكان لعلو منزلته وعظيم قدره يقاس به العلماء والزهاد ، ويضرب به المثل في التوثيق والتثبت ، وذلك بعد موته بأكثر من مائة سنة ، فعن إبراهيم بن شماس قال : لوددت أن جميع ما عندي من حديث الصنعانيين ــ يعني : عبد الرزاق ، وهشام بن يونس ، وابن ثور ــ عند رجل بقـُومِس ثقة مثل عبد الرحمن بن مهدي عن ابن المبارك عن معمر ، فكنتَ أعيده عنه (١٠) .

---

(٧) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٧) .

(٨) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٦٧ .

(٩) تهذيب التهذيب (٥ : ٣٠٣) والعمري هو عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وقد نقل ابن حجر قول الفضيل هذا في ترجمة العمري .

(١٠) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٧٥ وقومس : بلدة جهة خراسان .

وفي ترجمة أحمد بن سيار بن أيوب الحافظ قال ابن تغري بردي[11] : « إمام أهل الحديث بمرو ، كان جمع بين الحديث والفقه ، والورع والزهد ، وكان يقاس بعبد الله بن المبارك » . وقال الذهبي[12] : كان بعض الأئمة يشبهه بابن المبارك في زمانه علماً وفضلاً .

وكان إسماعيل بن عياش يقول في ابن المبارك : **ما على وجه الأرض مثل عبد الله بن المبارك . ولا أعلم أن الله خلق خصلة من خصال الخير الا وقد جعلها في عبد الله بن المبارك(١٣) .**

وقد بلغ من علو منزلته أن وضعه العلماء في صف الصحابة رضي الله عنهم ، لا يفضلونه إلا بشرف الصحبة . وفي ذلك يقول ابن عيينة كلمته التي نقلتها أكثر كتب التراجم إذ يقول : **نظرت في أمر الصحابة وأمر ابن المبارك ، فما رأيت لهم عليه فضلاً إلا بصحبتهم النبي صلى الله عليه وسلم وغزوهم معه (١٤) .**

وبلغ من شهرته أن سلمة بن سليمان المروزي ــ وكان وراقاً لابن المبارك ــ كان يقرأ كتاباً لعبد الله بن المبارك ، ويظهر

---

(١١) النجوم الزاهرة (٣ : ٤٤) .

(١٢) تذكرة الحفاظ (٢ : ١٢٦) .

(١٣) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٧) ، وتهذيب التهذيب (٥ : ٣٨٥) .

(١٤) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٣) ، وتهذيب التهذيب (٥ : ٣٨٥) .

أنه كان يقول : قال عبد الله ، فقيل له : قل ابن المبارك ، فقال سلمة : إذا قيل بمكة عبد الله فهو ابن عباس ، وإذا قيل بالمدينة عبد الله فهو ابن عمر، وإذا قيل بالكوفة عبد الله فهو ابن المبارك[15] .

وذلك لأنه كان يعتبر واحد عصره ، ونور بلاده ، وفيه كان يقول عمار بن الحسن :

إذا سار عبدالله من مرو ليلة   فقد سار منها نورها وجمالها
إذا ذُكر الأحبارُ في كل بلدة   فهم أنجم فيها وأنت هلالها[16]

ولذلك صدّرت ترجمته في كل كتاب ترجم له بألقاب الثناء والمديح :

ففي تقريب التهذيب[17]: « **ثقة ، ثبت ، فقيه ، عالم ، جواد ، مجاهد ، جمعت فيه خصال الخير** » .

وفي حلية الأولياء[18]: « **السخي الجواد ، الممهّد للمعاد ، المتزود من الوداد ، أليف القرآن والحج والجهاد . جادَ فسادَ ، وروجع فزاد . مالـه مشارك ، وفعله مبارك . وقوله مبارك . شاها نشاه عبد الله بن المبارك رضي الله عنه** » .

---

(١٥) الورع ص ٧٣ .

(١٦) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٢٨٥) .

(١٧) تقريب التهذيب (١ : ٤٤٥) .

(١٨) حلية الأولياء (٨ : ١٦٢) وقد سبق التنبيه على النهي عن التسمية بشاها نشاه .

وفي العبر(١٩) : « **الامام العلم الفقيه ، الحافظ الزاهد ، ذو المناقب رحمه الله . كان رأساً في الذكاء ، رأساً في الشجاعة والجهاد ، رأساً في الكرم** » .

وقال الذهبي(٢٠) : « **الامام الحافظ العلامة ، شيخ الاسلام ، فخر المجاهدين ، قدوة الزاهدين ، صاحب التصانيف النافعة . أفنى عمره في الأسفار حاجاً ومجاهداً وتاجراً** ... » إلى ان قال : « **والله إني لأحبه في الله وارجو الخير بحبه ، لما منحه الله من التقوى والعبادة والاخلاص والجهاد وسعة العلم والإتقان والمواساة والفتوة والصفات الحميدة** » .

وكذلك افتتح الإمام النووي(٢١) ترجمته بالمدح والإطراء قال : « **عبد الله بن المبارك أبو عبد الرحمن ، الامام المجمع على إمامته وجلالته في كل شيء، الذي تستنزل الرحمة بذكره، وترتجى المغفرة بحبه** ... » .

تلك بعض أقوال العلماء والأئمة فيه . تصور مكانته عندهم ومنزلته في أعينهم . أما منزلته عند عامة الناس فقد كانت أعظم من منزلة أكبر السلاطين ، وأعظم ملوك الدنيا في ذلك الزمن .

---

(١٩) العبر في أخبار من غبر ص ٢٨٠ .

(٢٠) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٣) .

(٢١) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٢٨٥) .

يزدحم الناس لاستقباله ويحتشدون لرؤية وجهه ؛ أكثر مما يزدحمون لرؤية الخليفة والسلطان . وإليك هذه القصة التي تصور منزلته عند الناس :

قدم عبد الله بن المبارك مرة الرقة وبها هارون الرشيد ، فانجفل الناس خلف عبد الله بن المبارك ، وتقطعت النعال ، وارتفعت الغبرة[٢٢] ، واحتفل الناس به ، وازدحموا حوله . فأشرفت أمُّ ولد لأمير المؤمنين الرشيد من برج من قصر الخشب ، فلما رأت الناس قالت : ما هذا ؟ قالوا : عالم من أهل خراسان قدم الرقة يقال له عبد الله بن المبارك . فقالت : هذا ـ واللهِ ـ الملك لا ملك هارون الرشيد الذي لا يجمع الناس إلا بشُرط[٢٣] وأعوان وبالسوط والعصا والرغبة والرهبة[٢٤] .

وفي نهاية الحديث عن مكانته نعيد إلى الذاكرة قول أسود ابن سالم الذي يصوِّر ثقة الناس به ، ونظرتهم السامية إليه إذ يقول :

---

(٢٢) الغبرة : بفتحتين الغبار .

(٢٣) الشرط : بضم الشين وفتح الراء ، الواحد شرطي وشرطة بسكون الراء فيهما ، وسموا بذلك لأنهم جعلوا لأنفسهم علامة يعرفون بها .

(٢٤) البداية والنهاية (١٠:١٧٨) وتاريخ بغداد (١٠:١٥٦) .

« كان ابن المبارك إماماً يقتدى به . كان من اثبت الناس في السنة . إذا رايت رجـلاً يغمز ابن المبارك بشـيء فاتهمه عـلى الاسلام(٢٥) » .

وقول الفضيل بن عياض الذي يبين أن ابن المبارك كان رجلاً فريداً إذ يقول :

« ورب هذا البيت ما رأت عيناي مثل ابن المبارك »(٢٦) .

وسبب هذه المكانة العالية بين العلماء وغيرهم على السواء يوضحه ابن حبان في الثقات إذ يقول :

« كان فيه خصال لم تجتمع في أحد من أهل العلم في زمانه في الأرض كلها »(٢٧) .

---

(٢٥) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٨) .

(٢٦) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٠) .

(٢٧) تهذيب التهذيب (٥ : ٣٨٦) .

الفصل السادس

في رحاب الجنة

مع رحلة الوفاة

سبق أن ابن المبارك رضي الله عنه توفاه الله سنة إحدى وثمانين ومائة في رمضان لعشر مضين منه . مات سحراً بعد انصرافه من الغزو على أقرب الأقوال . وبذلك يكون قد جمع الله لابن المبارك في وفاته الخير من أطرافه ؛ فقد توفاه الله بعد أفضل عمل وهو الغزو ، وفي أفضل شهر وهو رمضان ، وفي أفضل ساعة وهي ساعة السحر ، وقد دفن « بهيت » وقبره هناك ظاهر يزار(١) .

---

(١) راجع ذلك مفصلاً في سيرة ابن المبارك ، وقد سبق أن هيت بلدة على الفرات من نواحي بغداد ، وقد زار بعض الفضلاء قبر ابن المبارك فقال :

مررت بقبر ابن المبارك غدوة فأوسعني وعظاً وليس بناطق
وقد كنت في العلم الذي في جوانحي غنياً وبالشيب الذي في مفارقي
ولكن أرى الذكرى تنبه عاقلاً إذا هي جاءت من رجال الحقائق

سير اعلام النبلاء (٦ : ٢٥٨) .

ولكن لنقف لحظات لنشاهد ابن المبارك رضي الله عنه ، وهو ينتقل من دار الدنيا إلى رحاب الله في جنة عرضها السموات والأرض ، حيث لافناء في ذاك الجنات ولا نَصَب :

لما حضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصر مولاه : اجعل رأسي على التراب ، فبكى نصر ، فقال له : ما يبكيك ؟ قال : ذكرتُ ما كنتَ فيه من النعيم وأنت هو ذا تموت فقيراً غريباً . قال : اسكتْ فإني سألت الله تعالى أن يحييني حياة الأغنياء وأن يميتني موت الفقراء . ثم قال له : لقنّي ولا تعد عليّ مالم أتكلم بكلام ثان (٢) .

وعن الحسن بن الربيع قال : لما حضرته الوفاة قال : قد ترى شدة الكلام عليّ ، فإذا سمعتني قلت كلمة الشهادة ، فلا تردها عليّ حتى تسمعني أخذت في كلام آخر ، فإنما كانوا يحبون أن يكون آخر كلامهم كلمة الشهادة لقوله عليه السلام : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة »(٣) .

إن ذلك الغني الواسع الغنى، والرجل العظيم المنزلة، والإمام المجمع على جلالته ؛ يصل به زهده إلى أن يطلب من ربه أن يميته فقيراً غريباً !! وهكذا كان ؛ فمات فقيراً من المال ولكن غنياً بثواب

---

(٢) إحياء علوم الدين (٤ : ٤٨٢) .

(٣) ذيل الجواهر المضية (٢ : ٥٢٩) .

الله ورضوانه ورحمته ، وغريباً عن الأهل والوطن ولكن مستأنساً بالله سبحانه ، فرحاً بما أعدّه له عنده ، ثم لا ينسى وهو في سكرات الموت أن يحرص على أن يكون آخر كلامه كلمة الشهادة، تنفيذاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم •

ثم لنتابع رحلة الوفاة لنرى ابن المبارك فقيراً غريباً ورأسه على التراب ، يقاسي سكرات الموت ومولاه نصر يراقبه • ثم ماذا ؟ •• ثم « فتح عبد الله بن المبارك عينه عند الوفاة وضحك ، وقال : لمثل هذا فلْيعملِ العاملون •(٤) » ويسلم الروح إلى بارئها وتنتهي رحلة حياة حافلة بالعلم والتقى ، والزهد والورع ، والبذل والجهاد ، والدعوة ونشر العلم ، ولكن لماذا فتح عينه وضحك يا ترى ؟

هذا ما سيراه أصحابه بعد وفاته ، وستراه بعد قليل •

لقد توفي ابن المبارك رحمه الله ورضي عنه وأرضاه ، وأفضى إلى ما عمل ، متزوّداً من كل ما ينفعه من الزاد في مثل هذه الرحلة الأبدية • وحزن عليه الناس جميعاً خاصتهم وعامتهم ، ودخل الخلل على العلم بموت عالم المشرق والمغرب ، وفجعت الأمة بموت ناصحها •

---

(٤) إحياء علوم الدين (٤ : ٤٨١) •

فهذا سفيان بن عيينة ينعى إليه ابن المبارك فيقول : رحمه الله لقد كان فقيهاً ، عالماً ، عابداً، زاهداً ، سخياً، شجاعاً ، شاعراً[٥] .

وهذا الفضيل بن عياض ينعى إليه ابن المبارك فيقول : رحمه الله ، أما إنه ما خلّف بعده مثله[٦] .

ويقول سلام بن أبي مطيع : ما خلف ابن المبارك بالمشرق مثـله[٧] .

ويقول أبو إسحاق الفزاري : إني لأمقت نفسي على ما أرى بها من قلة الاكتراث لموت ابن المبارك[٨] .

وعن أبي الوزير قال : قدمت على سفيان بن عيينة ، فقالوا له : هذا وصي عبد الله . فقال : رحم الله عبد الله ما خلف بخراسان مثله ، فقالوا : لا يرضون . قال : ما يقولون ؟ قالوا : يقولون ولا بالعراق ، قال : ما أخلق ما أخلق ما أخلق ـ ثلاثاً ـ[٩] .

وحدّث أبو عصمة قال : شهدت سفيان بن عيينة وفضيل ابن عياض ، فقال سفيان لفضيل : يا أبا علي أيّ رجل ذهب ؟

---

(٥) تقدمة الجرح والتعديل ص ١٦٢ .

(٦) حلية الأولياء (٨ : ١٦٤) .

(٧) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٤) .

(٨) حلية الأولياء (٨ : ١٦٤) .

(٩) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٢) .

ـ يعني ابن المبارك ـ ، فقال له فضيل : يا أبا محمد وبقي بعد ابن المبارك من يستحيا منه ؟[10] .

وينتقل الحزن إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد ، فقد ورد عليه كتاب صاحب الحيرة من هيت : أنه مات رجل بهذا الموضع غريب ، فاجتمع الناس على جنازته ، فسألت عنه فقالوا : عبد الله بن المبارك الخراساني . فقال الرشيد : إنا لله وإنا إليه راجعون ، يا فضل ـ للفضل بن الربيع وزيره ـ ائذن للناس من يعزينا في عبد الله بن المبارك ، فأظهر الفضل تعجباً منه ، فقال له الرشيد : ويحك إن عبد الله هو الذي يقول :

الله يدفع بالسلطان معضلةً عن ديننا رحمة منه ورضوانا
لولا الأئمة لم يأمن لنا سبلٌ وكان أضعفنا نهباً لأقوانا

من سمع هذا القول من مثل ابن المبارك مع فضله وزهده وعظمه في صدور العامة ولا يعرف حقنا ؟[11] .

وروي أنه لما بلغه خبر موت ابن المبارك قال : مات سيد العلماء[12] ، ثم جلس للعزاء وأمر الأعيان أن يعزوه في ابن المبارك[13] .

---

(١٠) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٣) .

(١١) حلية الأولياء (٨ : ١٦٤) .

(١٢) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٣) .

(١٣) تاريخ الخلفاء ص ٢٨٥ .

ويصوّر أبو خالد الأحمر فجيعة الناس بموت ابن المبارك إذ يذكره فيقول :

ما هدت الأرض هدتهـا منذ مـات سفيان هدتها لمـوت ابن المبارك(١٤) .

وقد رثاه أبو تميلة الأنصاري بمرثيـةٍ جيدة :

قال إسحاق بن راهويه : جلست إلى عبد الرحمن بن مهدي، فقال لي : من أين أنت ؟ فقلت : من أهل مرو ، قال : فترحم على ابن المبارك ــ وكان شديد الحب له ــ وقال : هل معك مَرْثِيَة رثي بها عبد الله ؟ فقلت : نعم ، فأنشدته قول أبي تميلة يحيى بن واضح الأنصاري :

طـرق الناعيـانِ إذ نبهانـي
بفظيعٍ من فادح الحدثانِ

قلت للناعيين : من تنعيانِ ؟
قالا أبا عبد ربنـا الرحمانِ

فأثار الـذي أتاني حزنـاً
وفؤاد المصـاب ذو أحزانِ

ثم فاضت عينايَ وجداً وشجواً
بدمـوعٍ تحـاذر الهطلانِ

---

(١٤) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٧٦ .

فلئن كانت القلوب تبكي
لقلوب الثقات من إخوانِ
قد تبكّيه بالدماء وفي الأجوا ف لذع كحرقة النيرانِ
لتقيٍّ مضى حميداً فريداً
ماله في الرجال إنْ عُدّ ثانِ
ياخليلي يا ابن المبارك عبـ ـد الله خلّيتنا لهذا الزمانِ
حين ودعتنا فأصبحت محموداً
حليف الحنوط والأكفانِ
قدّس الله مضجعاً أنت فيه
وتلقّاك فيه بالرضوانِ
أرض هيتٍ فازتْ بك الدهر
إذ صرتَ غريباً بها عن الإخوانِ
لا قريب بها ولا مؤنس
يؤنس إلا التقى مع الإيمانِ
ولِمَرْوٍ قد كنت فخراً فصارت
أرض مروٍ كسائر البلدانِ
أوحشت بعدكم مجالسُ علمٍ
حين غاب المغيث للّهفانِ
لهف نفسي عليك لهفاً بك الد
هر وفجعاً لفاجع لهفانِ
يا قريع القراء والسابق الأوّ
ل يوم الرهان عند الرهانِ

ومقيم الصلاة والقائم الليـ
ـل إذا نام راهب الرهبانِ
ومؤاتي الزكاة والصدقات الد
هر في السر منك والإعلانِ
دائباً في الجهاد والحج والعمْـ
ـرَة يتلو منزّل القرآنِ
دائماً لا يملّه يطلب الفو
ز وليس المجدّ كالمتواني
عين فابكيه حين غاب بوا كيه بهاطلٍ وساكب السيلانِ
إن ذكرناك ساعة قط إلا
هاج حزني وضاق عني مكاني
ولعمري لئن جزعت على فقـ دك إني لموجع ذو استكانِ
خافق القلب ذاهب الذهن
عبدَ الله أهذي كالواله الحيرانِ
أتلوّى مثل السليمِ[15] لديغ الرّ
قش قد مسّ جلده النابانِ
بدلاً كنت من أخي العلم سفيا
نٍ ويوم الوداع من سفيانِ

---

(١٥) السليم : اللديغ ، كأنهم تفاءلوا له بالسلامة ، ولديغ الرقش : الذي لدغته حية رقشاء ، اي فيها نقط سواد وبياض .

وبرأيِ النعمـــان كنت بصيراً
حين تبغي مقايسَ النعمانِ

قال : فما زال ابن مهدي يبكي وأنا أنشده[١٦] .

رُؤى النّـاسِ في حَقّـِهِ

لقد رأى له بعض الأئمة والصالحين ما يدل على القبول والرضا وحسن الجزاء عند الله سبحانه وتعالى :

فعن محمد بن فضيل بن عياض قال : رأيت عبد الله بـن المبارك في المنام ، فقلت : أي الأعمال وجدت أفضل ؟ قال : الأمر الذي كنت فيه ، قلت : الرباط والجهاد ؟ قال : نعم ، قلت : وأي شيء صنع بك ؟ قال : غفر لي مغفرة ما بعدها مغفرة ، وكلمتني امرأة من أهل الجنة أو امرأة من الحور العين[١٧] .

وعن صخر بن راشد قال : رأيت عبد الله بن المبارك في منامي بعد موته ، فقلت : أليس قد متّ ؟ قال : بلى ، قلت : فما صنع بك ربك ؟ قال : غفر لي مغفرة أحاطت بكل ذنب ...[١٨] .

---

(١٦) الورع ص ٧٤ .

(١٧) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٨) .

(١٨) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٩) والإحياء (٤ : ٥١٠) .

وقال زكريا بن عدي : رأيت ابن المبارك في النوم فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي برحلتي في الحديث[١٩] .

وقال الفريابي : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ، فقلت : ما فعل ابن المبارك ؟ فقال : مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحَسُن أولئك رفيقاً .[٢٠]

ورؤي الثوري في المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : رحمني ، فقيل له : ما حال عبد الله بن المبارك ؟ فقال : هو ممن يلج على ربه كل يوم مرتين .[٢١]

ورأى بعضهم في النوم قائلاً يقول : عبد الله بن المبارك في الفردوس الأعلى[٢٢] .

وعن محمد بن يوسف الفريابي قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وقد مرّ به سفيان الثوري ؛ قلت : يا رسول الله مات مسعر بن كدام . قال : نعم وتباشر بروحه أهل السماء .

---

(١٩) الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي ص ٤٧ من « مجموعة ست رسائل في علوم الحديث » .

(٢٠) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٩) .

(٢١) إحياء علوم الدين (٤ : ٥٠٩) .

(٢٢) الديباج المذهب ص ١٣١ .

قلت : يا رسول الله ما فعل حماد بن سلمة ؟ قال : مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً . قلت : يا رسول الله ما فعل حماد بن زيد ؟ قال : مع المقربين . قلت : يا رسول الله مـا فعل عبد الله بن المبارك ؟ فقال لي : هيهات هيهات ! ذاك أرفع من هؤلاء ..[٢٣]

هذا ما رآه له الصالحون و « رؤيا المؤمن جزء من ست وأربعين جزءاً من النبوة » كما يقـول رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢٤] . ولعل هذا هو الذي جعل ابن المبارك رضي الله عنه يفتح عينه عند الوفاة ليرى ما أعده الله لـه ، ويضحك فرحـاً وسروراً ، ويقول : لمثل هذا فليعمل العاملون .

فرحمه الله ورضي عنه ما أصدق قول الشاعر فيه ! :

جمالَ ذي الأرض كانوا في الحياة ، وهم
بعد الممات جمالُ الكتْبِ والسيَرِ

* * *

(٢٣) الورع ص ٥٤ .

(٢٤) رواه البخاري ومسلم .

خاتمة

هذا هو عبد الله بن المبارك ، رجل أعجمي ، من أب تركي وأم خوارزمية ، وجد في زمن يحتقر فيه غير العربي ، ومع ذلك فقد صنع منه الاسلام إماماً مقدّماً تعنو له الرقاب ، وجعل منه قدوة صالحة للأجيال . وهذا دليل واضح على عظمة هذا الاسلام الخالد ، ومدى تأثيره في النفوس ، وقدرته على صنع الرجال . ومن أين للعرب أمثال أبي بكر وعمر ، وخالد وسعد ، والبخاري ومسلم ، وأبي حنيفة والشافعي ، وصلاح الدين والعز بن عبد السلام، وآلاف العظماء ،من الحكام والقادة ، والمحدثين والفقهاء، والأبطال والمصلحين ، من الذين أشرق بهم تاريخ العرب ، لولا هذا الاسلام العظيم . وهذه ميزة تميز بها ديننا الخالد من بين سائر الدعوات ، حيث قدّم الفكرة وقدم معها آلاف النماذج العملية ، على حين اكتفت الدعوات الأخرى بالأفكار النظرية المهلهلة التي تعبث بها أعاصير النقص وريح الأهواء .

فالاسلام هو الحل الجذري الأصيل ، والدواء العملي المجرّب ، وهو وحده طريق الخلاص مما تعانيه أمتنا من الضعف

والتخلف ، ومن الفوضى والانحلال ، ومن العجز عن إيجاد القادة والمصلحين .

رحم الله ابن المبارك ، ورضي عنه ، وأعلى في عليين مقامه ، ووفقنا للسير على نهجه ، وحشرنا في زمرته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

والحمد لله رب العالمين

* * *

المراجع

اسم الكتاب	اسم المؤلف
١ ـ أبو حنيفة	محمد أبو زهرة
٢ ـ إحياء علوم الدين	أبو حامد الغزالي
٣ ـ الاختيار لتعليل المختار	مجد الدين الموصلي
٤ ـ أدب الإملاء والاستملاء	ابن السمعاني
٥ ـ أدب الدنيا والدين	الماوردي
٦ ـ الاعتصام	الشاطبي
٧ ـ الأعلام	خير الدين الزركلي
٨ ـ اقتضاء العلم العمل	الخطيب البغدادي
٩ ـ بداية المجتهد ونهاية المقتصد	ابن رشد
١٠ ـ البداية والنهاية	ابن كثير
١١ ـ بهجة المجالس وأنس المجالس	ابن عبد البر
١٢ ـ تاج العروس	ابن عطاء الله السكندري
١٣ ـ تاريخ الاسلام السياسي	حسن إبراهيم حسن
١٤ ـ تاريخ بغداد	الخطيب البغدادي
١٥ ـ تاريخ الخلفاء	السيوطي
١٦ ـ تاريخ دمشق	ابن عساكر
١٧ ـ الترغيب والترهيب	المنذري

اسم الكتاب	اسم المؤلف
١٨ ــ تدريب الراوي	السيوطي
١٩ ــ تذكرة الحفاظ	الذهبي
٢٠ ــ تقدمة الجرح والتعديل	ابن أبي حاتم
٢١ ــ تقريب التهذيب	ابن حجر العسقلاني
٢٢ ــ تنبيه المغترين	الشعراني
٢٣ ــ تنوير القلوب	محمد أمين الكردي
٢٤ ــ تهذيب الأسماء واللغات	النووي
٢٥ ــ تهذيب التهذيب	ابن حجر العسقلاني
٢٦ ــ الجامع الصحيح	الامام مسلم
٢٧ ــ جامع العلوم والحكم	ابن رجب الحنبلي
٢٨ ــ الجواهر المضية في طبقات الحنفية	عبد القادر القرشي
٢٩ ــ حلية الأولياء	أبو نعيم الأصفهاني
٣٠ ــ خلاصة تذهيب الكمال في أسماء الرجال	الخزرجي
٣١ ــ الخيرات الحسان في مناقب أبي حنيفة النعمان	ابن حجر الهيتمي
٣٢ ــ الديباج المذهّب في أعيان المذهب (المالكي)	ابن فرحون
٣٣ ــ ذيل الجواهر المضية	ملا علي القاري

اسم الكتاب	اسم المؤلف
٣٤ ـ رجال الفكر والدعوة في الاسلام	أبو الحسن الندوي
٣٥ ـ الرحلة في طلب الحديث	الخطيب البغدادي
٣٦ ـ الرسالة المستطرفة	محمد بن جعفر الكتاني
٣٧ ـ سنن الترمذي	أبو عيسى الترمذي
٣٨ ـ سير أعلام النبلاء ـ مصور مخطوط في المجمع العلمي العربي	الذهبي
٣٩ ـ شرح حديث «ما ذئبان جائعان..» من المجلد الثاني من(مجموعة الرسائل المنيرية)	ابن رجب الحنبلي
٤٠ ـ شرح «المضنون به على غير أهله» لعز الدين الزنجاني	عبيد الله بن عبد الكافي
٤١ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب	ابن العماد الحنبلي
٤٢ ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى	القاضي عياض
٤٣ ـ صفة الصفوة	ابن الجوزي
٤٤ ـ طبقات الشافعية الكبرى	السبكي
٤٥ ـ الطبقات الكبرى	ابن سعد
٤٦ ـ الطبقات الكبرى	الشعراني

اسم الكتاب	اسم المؤلف
٤٧ ـ العِبَر في أخبار من غَبَر	الذهبي
٤٨ ـ فضل علم السلف على الخلف	ابن رجب الحنبلي
٤٩ ـ العقد الفريد	ابن عبد ربه
٥٠ ـ الفهرست	ابن النديم
٥١ ـ الفوائد البهية في تراجم الحنفية	اللكنوي
٥٢ ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير	المناوي
٥٣ ـ القلائد من فرائد الفوائد	مصطفى السباعي
٥٤ ـ قواعد في علوم الحديث	ظفر أحمد العثماني التهانوي
٥٥ ـ الكبائر	الذهبي
٥٦ ـ كشف الظنون	حاجي خليفة
٥٧ ـ الكنز المدفون والفلك المشحون	يونس السيوطي
٥٨ ـ كنوز الأولياء ـ مخطوط ـ رقمه في الظاهرية ٣٩٧٢	أبو الليث الزيلي
٥٩ ـ اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة	السيوطي
٦٠ ـ المجموع شرح المهذب	النووي
٦١ ـ المحدث الفاصل	الرامهرمزي
٦٢ ـ مرآة الجنان	اليافعي
٦٣ ـ مقدمة «الاختلاف في اللفظ»	محمد زاهد الكوثري

اسم الكتاب	اسم المؤلف
٦٤ ــ معجم الأدباء	ياقوت الحموي
٦٥ ــ معجم البلدان	ياقوت الحموي
٦٦ ــ معجم المؤلفين	رضا كحالة
٦٧ ــ معرفة علوم الحديث	الحاكم
٦٨ ــ مقالات الكوثري	محمد زاهد الكوثري
٦٩ ــ مناقب الامام أحمد بن حنبل	ابن الجوزي
٧٠ ــ مناقب الشافعي	البيهقي
٧١ ــ الموافقــات	الشاطبي
٧٢ ــ ميزان الاعتدال	الذهبي
٧٣ ــ النجــوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة	ابن تغري بردي
٧٤ ــ النهاية في غريب الحديث	ابن الأثير
٧٥ ــ نيل الأوطار	الشوكاني
٧٦ ــ الورع	أحمد بن حنبل
٧٧ ــ وفيات الأعيان	ابن خلكان
٧٨ ــ هديــة العارفين في أسماء المؤلفين	إسماعيل باشا البغدادي

ملاحظة : هذه المراجع التي سجلناها هي اهم المراجع التي استفدنا منها ، وهنالك مراجع اخرى لم يرد ذكرها ، وقد سبق أن اشرنا لبعضها .

فهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة